

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بجسة التعريف بالإسلام

تاريخ

ساعات خلق النبي

وأنك تعلم خلق عظيم
قديري

تأليف
الدكتور أحمد محمد الحرفي

القاهرة
١٩٩٤م - ١٤١٤هـ



جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
بجنته التعريف بالإسلام

سبحان الله رب العالمين

وإنك تعلم خلق عظيم
قرآن كريم

تأليف

الدكتور أحمد محمد الحوفي

القاهرة
١٩٩٤م - ١٤١٤هـ

تقديم اللجنة

عرض على اللجنة العامة للتعريف بالاسلام تقرير اللجنة الفرعية
على كتاب الدكتور أحمد الحوفي : « من أخلاق النبي » صلى الله
عليه وسلم ، واستوعبت اللجنة ما ورد في التقرير من وجوه الاستحسان
للكتاب لما تضمنه من مميزات في أسلوبه ، وفي تنسيق فصوله ،
واستيفائه لجوانب الحديث المنصف عن أخلاق الرسول محمد صلى الله
عليه وسلم ، ولما ختم به الكتاب من حسن الرجاء في الله أن يهدي الجميع الى
التمسك بأهداب الاسلام والاقتداء برسول الاسلام ، في أخلاقه وكماله
حتى تكون أمة محمد على ما يليق بخير أمة أخرجت للناس .

ويسر اللجنة أن تقدم هذا المؤلف في مقدمة سلسلة كتب السيرة
النبوية والتي يتجه المجلس الأعلى للشئون الاسلامية الى اتمامها قريبا ان
شاء الله .

رئيس اللجنة
عبد اللطيف السبكي

بسم الله الرحمن الرحيم

نَجْوَى

سيدي يا رسول الله

ماذا يستطيع البيان - وهو كَلِيلٌ - أن يبلغ من تقريب ءُلاك ؟

وماذا يخطئ القلم - وهو قَلِيل - في تصوير سجياك ؟

ومن أين للقطرة أن تصف البحر ؟

وأنتى لذرة الرمل أن تصور الجبل ؟

ومن أين للهباءة أن ترسم الشمس ؟

إن قصارى ما يبلغه جهد القلم أن يشير في هيبة إلى مقامك الأسمى ،
ومكانك الأسمى ، ومحلّك الرفيع .

لقد جاءت بعثتك بشيرا بميلاد الحق الذي توارى مناره ، وباستهلال
الخير الذي طال انتظاره ، وباسترداد القيم العالية والمثل السامية مكانها
بعد ذلة وهوان ، إذ بعثك الله على فطرة من الرسل ، ضلّ فيها الناس رشادهم ،
وجحدوا عقولهم وقلوبهم ، فصاروا أصناماً تعبد أصناماً ، وأحجاراً
تقدّس أحجاراً ، وملأوا الأرض خرافات وأوهاماً ، وانتهز الأقوياء فرصة
الجهالة الجاهلاء ، فاستبدوا بالشعوب ، وسيظفروا على العقول والقلوب ،

وسخروا لمنافعهم وشهواتهم خيرات الأرض وقوى البشر ، فإذا الأكثرون عبيد للقلّة ، وإذا القلّة طبقات يُسَخَّرُ بعضها بعضاً ، وهؤلاء وأولئك غرقى في الضلالة ، أسرى للشهوات : أعداء لكل فضيلة ، حتى ضجت الأرض مما تحمل من شرور وآثام .

لكن الله لطف بعباده : فاصطفاك لتبلغهم ختام شرائعه ، وتهدّهم بآخِرِ كتب . . . فكنت الغيث تقاطر على نبات صَوَّحَ فرداً إليه الحياة ، وكنت الضوء للغمالين بَصَّرهم طريق النجاة ، فاسترد الخلق إنسانيتهم وكرامتهم ، إذ عبدوا الله الأحد بعد أن عبدوا الخشب والحجر ، فتطهرت مشاعرهم من أرجاسها ، وانطلقت عقولهم من أغلالها ، وتحرروا من إيسار الرق ، وحطموا أغلال الاستعباد .

وإذا كانت الفلسفات والوثنيات قد استغلق الصواب عليها ، فأغرقت في المادية أو الروحية ، فإن شريعتك وحدها هي التي لاعمت أحسن ملائمة بين المادة والروح ، وبين الدنيا والآخرة ، فجعلت لكل منهما نصيباً من الوجدان والعقل والعمل لا يتجاوز نطاقه ولا يَطْغى ، فلم يكن عجباً أن صار أتباعك الأولون سادة العالم ، وخير أمة أخرجت للناس .

حبيبي يا رسول الله

يا لها من حديقة فيحاء غناء ، كل ما فيها طيب المظهر والمخير ، عبق الشذى ، حلو الجنى ، شهى إلى كل نفس .

إنها أخلاقك الفضلى التي تتسامى عن الأنظار فلا يدرك أحد أيها أعلى مكاناً ، وتتسابق إلي القلوب فلا يعرف أحد أيها أسرع جرياناً ، ولا أيها أعظم في النفوس آثاراً وأرسخ بنياناً .

لقد قضيتُ أسعد أيام العمر سادناً في هذه الحديقة ، وكلما أمضيت في ظل فضيلة من فضائلك زمناً خيل إليَّ أنها أبرز فضائلك ، فإذا ما أويت إلى ظل أخرى تراءت لي أعظم شمائلك ، ثم أتفياً ثالثة فتبدو كأنها أعظم خمائلك ، فلا سبيل إلى مفاضلة أو موازنة أو ترجيح .

مولاي يا رسول الله

معذرة عن قصور الرؤية ، فإن العُشبة النابتة في أصل الدوحة قد تشربَّتْ إلى معرفتها ، فيخيل إليها الوهم أنها علمت حقيقتها ، على حين أن نظرتها لم تتجاوز رؤية الأصل القريب من الثرى .
مغفرة عن عجز القلم ، فإن بيانك الرائع لو وكل إليه أن يصور علاك لأحجم واعتذر ، وما بياني إلا غدير يجرى من نهرك ، أو جدول يتجمع من قطرك .

عفواً عن التناول إلى مقامك الأعلى ، فما قصدت إلا أن أذكر قومي بآخلاقك المثلى ، فهي ذخيرتهم من القوة ، ورصيدهم من العزة ، وسبيلهم إلى المجد ، وطريقهم إلى الألفة ، وغذاء لقلوبهم ، ونور لعقولهم ، وهى الملجأ والملاذ ، إذا عزَّ ملجأ ونأى ملاذ .

إمامي يا رسول الله

إن مئات الملايين من أتباعك في أشد الحاجة إلى أن يتَملَّوا بالنظر إلى آخلاقك العظيمة ، لعلهم يتأسون بها فرادى وجماعات .
فأنت مثلنا الأعلى ، وأنت رائدنا الأسمى ، وأنت الأسوة والقودة والإمام .

سيدى الحبيب

يا سعادتي إذ سعيبت إلى مثواك الطهور ، فوقفت بين يديك في شوق
المهلوف ، وغبطة المجدود ، مليباً للدعاء الكريم الذى هتف في خاطري
أن أتجه إليك لأستأذنك في نشر هذا الكتاب قبل طبعه .

لقد شعرت في وقفتي أن نفحات من روحك العظيم تصعد بي إلى
السموات العلأ ، حتى لقد خيل إلى بعد الإفاقة من الاستغراق أننى عشت
فترة روحاً بغير جسد ، روحاً يتخطى الأحقاب في لمح البصر ، فيشهد
سيرتك الغراء من المشرق إلى المغرب ، ويراك في هذه المدينة المباركة
تقيم دولة الإسلام على دعائم العقيدة والشرعية ، وترفع سمكها بالأخلاق
العظيمة والمثل الرفيعة ، وتحصنها بالخير والحق والعدل والحرية والإخاء
والمساواة .

مولاي خاتم الرسل وخير البشر .

إن الفرحة بالمثل لدى ثراك العبق أسمى من أن يصورها رائع من
الشعر أو بارع من النثر ، فأرجوا أن تأذن لي في وداع إلى لقاء يتكرر
ما بقيت حياة ، والسلام عليك ورحمة الله .

احمد محمد الجوفى

تمهيد

المذاهب الأخلاقية

ما الأخلاق

هذه الأخلاق التي تحدّث القدماء والمُحدّثون بها ، والتي لا يعرّى إنسان من لبوسها ، لأنّ منها الطيب ومنها الخبيث ، كالصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، والعفة والفجور ، والشجاعة والعجز (١) . هل هي في حاجة إلى تعريف ؟

نعم ، إنها معروفة لنا جميعا ، ولكنها تحتاج إلى تعريف يكشف عن أصلها وعن ينبوعها .

ولعلّ أسهل ما تُعرّفُ به أنها عادة مقصودة مُرادّة ، وإن شئت فقل إنها عزيمة مكررة معتادة ، توجه إلى الخير أو إلى الشر .

وذلك لأنّ العبادة كثيرا ما تكون عَفْوِيَّة غير مقصودة سواء أكانت حسنة أم قبيحة ، فلا تُسمّى خُلُقًا .

وكذلك العزيمة قد تدفع إلى العمل مرة أو بضع مرات ، فلا تدخل في نطاق الأخلاق ، كالذي يعلم أنّ صديقه مريض فيعتزم على زيارته ،

(١) الخلق في اللغة السجية والنطبع سواء أكان حميدا أم غير حميد ، ولهذا يوصف الخلق المدوح بأنه كريم أو عظيم أو حميد أو ربيع ويوصف الخلق المذموم بضد هذه الاوصاف .

ويسرع بتنفيذ عزمته . والذي يرى شخصاً في البحر مشرفاً على الغرق ، فيسارع إلى نجاته . والذي يقضى بين خصمين بالعدل أو بالظلم مرة وحيدة في حياته ، فإن عمل كل من هؤلاء لم يتكرر تكرراً ينجي عن عادة مقصودة أو عزيمة معتادة .

ولا بد من عنصر الاختيار والحرية . لأن الذي يبذل ماله مضطراً مجبراً لا يُسمى سخياً .

لهذا نقول إن العزيمة إذا اعتادت عملاً صار خلقاً ، فالذي تعود الصدق يسمى صادقاً ، فصار الصدق خلقاً من أخلاقه ، والذي تعود الأمانة يسمى أميناً ، والأمانة خلق من أخلاقه ، والعنيف هو الذي تسيطر عليه العفة في جميع حالاته ، والفاجر هو الذي تستعبده شهوته فلا يستطيع أن يردعها

ومعنى هذا أن ميلاً من الميول طبع الشخص بطابعه زمناً طويلاً ، فصار خلقاً ثابتاً له .

فإذا كانت الميول الغالبة على شخص خيرة كلها كانت أخلاقه فاضلة ، وإذا كانت الميول المسيطرة عليه شراً كلها كانت أخلاقه ذميمة فاسدة ، وبين هذا العلو وذاك السفلى درجات متفاوتات وطبقات متعددة .

ولعله قد تبين من هذا أن الأخلاق نفسية أو معنوية ، وأن مظهرها الخارجى هو ما نسميه المعاملة أو السلوك ، فالأخلاق مصدر ، والسلوك مظهر .

أما الغاية التي يتوخاها ذو الأخلاق الفاضلة فهي السعادة التي يشعر بها وينعم . وهذا هو ما أراده الغزالي بقوله : «وغاية هذا الخلق أن يصير

الفعل الصادر منه لذيذا ، فالسخى يستلذ بذل المال الذى يبذله ، دون
الذى يبذله عن كراهة ، والمتواضع يستلذ التواضع (١)

ولقد سبق الإمام الغزالي إلى تحديد الخلق بما يكاد يتفق وهذا التعريف ،
فقال إنه هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ،
من غير حاجة إلى فكر وروية

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا
وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً

وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقاً سيئاً .

وإنما قلنا إنها هيئة راسخة لتتحقق المداومة على الفعل ، لأن من يصدر
عنه بذل المال على الدور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ، ما لم يثبت
ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ .

وإنما اشترطنا أن تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من
تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال إن خلقه
السخاء والحلم .

فهنا أربعة أمور : أحدها فعل الجميل والقبیح ، والثانى القدرة عليهما ،
والثالث المعرفة بهما ، والرابع هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ،
ويتيسر عليها أحد الأمرين ، إما الحسن وإما القبيح .

وليس الخلق هو الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل ،
إما لفقد المال أو المانع ، وربما يكون خلقه البخل ، وهو يبذل مضطراً أو
مُرائياً .

(١) احياء علوم الدين ٥٠/٣

وليس الخلق هو القوة . لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء ،
 بل إلى الضدين واحدة . وكل إنسان خلق بالفطرة قادراً على الإعطاء
 والإمساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء ...
 وليس الخلق هو المعرفة . فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقيبح جميعاً
 على وجه واحد .

بل الخلق هو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو
 البذل ، فهو صورة النفس الباطنة (١) .
 ولكننا نلاحظ أن النفس ميدان فسيح يشمل كثيراً من القوى . وبعض
 هذه القوى لا صلة له بالأخلاق كالتمثيل والتذكير والتفكير والذكاء
 والغباء ، لهذا لا بد من حصر الخلق فيما يتصل بالعزيمة . وفيما تبعث عليه من
 خير أو شر .

لمحة إلى المذاهب الأخلاقية

اختلف الباحثون منذ القدم إلى اليوم في الأساس الذي يقوم عليه صرح
 الأخلاق . فتعددت آراؤهم ، ولم تسلم من النقد .
 وأريد قبل أن أعرض للأساس الإسلامي للأخلاق أن ألم بهذه المذاهب في
 إيجاز يغني عن التفصيل .

(١) الغرر

لكل أمة عرقها ونظمها وعاداتها التي تتوسم الخير في اتباعها ، وتربى
 أظنمها على الخضوع لها ، وتوئبهم أو تعاقبهم على مخالفتها .

(١) الاحياء ٤٦/٢

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذا العرف هو المقياس الأخلاقي ،
فما وافق العرف كان خيرا ، وما خالفه كان شرا ، وما سكت العرف عنه
كان الناس فيه مخيرين بين أن يفعلوه أو يتركوه .

لكن هذا المقياس مضطرب مختل ، لأن العرف لاثبات له ، فهو يتغير
 باختلاف البيئة والعصر ، ولأن بعض ما يبيحه العرف لا يقره العقل
 ولا يرتضيه الخير ، فقد كان شرب الخمر عرفاً عند العرب في الجاهلية ،
 فحرمها الإسلام ، وكانت الغارات عرفاً عندهم ، فحظرها الإسلام ، وكان
 الاسترقاق عرفاً عند الأمم القديمة ، فلما جاء الإسلام ضيق روافد الرق ،
 وفسح الطرق لتحريرهم .

وكانت السرقة مباحة في إسبرطة لتدريب الشباب على الحيلة. والخداع
 في الحرب ، على شريطة ألا يراهم أحد أو يعلم بأمرهم ، فكانوا يدخلون
 الحدائق على حين غفلة من أهلها ، ويدلفون إلى الموائد الغامة في غيبة
 حراسها ، فإن غفلت عنهم العيون ونجوا من بعاتات الرقباء أكلوا وشربوا ،
 وكانت عاقبة أمرهم خيرا ، وإن تنبه للسارق أحد وقبضت عليه الأيدي ،
 فإيا للفضيحة والعار ، وبالسبب الباقية والعقوبة المنتظرة ، فإنه يُشهر أمره ،
 ويسلم إلى مروض الأطفال فيضربه بالسوط ، ويحرمه الطعام ، لا لأنه سرق ،
 بل لأنه لم يأخذ حذرَه .

لذلك كان الغلمان إذا أقدموا على سرقة بالغوا في التحرز والاحتياي ،
 حتى لقد وصل الأمر بأحدهم أن سرق ثعلباً صغيراً ، فحمله ومضى به ،
 ولما رأى الناس على مقربة منه وضعه تحت ثوبه ليخفيه على عيونهم ،

فأعمل الثعلب أنيابه ومخالبه في بطنه . فمزق أحشاءه . والمسكين يمضي في طريقه صابراً يفضل الموت على الفضيلة والعار ^(١) .

ثم إن الاستمساك بالعرف جمود وتحجر ، وتعويق عن التقدم والتطور وتقبل الآراء الجديدة . وهو إلى هذا كله معاداة الإصلاح والمصلحين .

(٢) المنفعة المادية

ذهب جماعة إلى أن المنفعة المادية أساس الأخلاق . وأجهدوا أنفسهم في التفكير والتدليل والتعليل ، فالأعمال التي تحقق للجماعات مآرب مادية أو منافع عاجلة أو آجلة ، يصفونها بأنها من الأخلاق الفاضلة ، وكل خلق فاضل لا بد أن يدور حول هذا المحور .

وإنهم بهذا ليتنكرون للأساس الروحي ، ويعدون نزعات فردية ، لا تصلح أن تكون أساساً عاماً للناس كافة .

وهنا يكمن الخطر والضرر والتعادي والتدابير ، فإن صلة الفرد بالفرد ، وصلة الفرد بالجماعة ، وصلة الجماعة بالجماعة ، إذا ما قامت على أساس النفع المادي فقد قامت على الأنانية ، والأثرة . والشره ، والغش ، وانتهاز الفرص ، وتجاهل الخير الذي يناله الآخرون ، فيحيا كل منهم لنفسه وحدها ، ويرى الآخرين خصوماً له ، فلا تعاطف ، ولا تألف ، ولا محبة ، ولا إيثار ، ولا إخاء ، ولا ثقة ولا سلام .

وكيف يتحقق شيء من هذه الفضائل في عالم هبط إلى درك الحيوانية ، وفقد معاني الإنسانية ، ومثلها الكريمة ، ودعائمها الخلقية السامية ؟

(١) تاربخ التربية ٢٧

على أنه مما لا شك فيه أن الأسباب الاقتصادية التي يدور حولها النفع المادى كثيرا ما تتأثر بأسباب غير اقتصادية ، فإن التعليم أو الأمية ، وكثرة السكان أو قلتهم ، والحرب أو السلام ، أسباب غير اقتصادية ، ولكنها ذات آثار فى الاقتصاد بعيدة المدى ، فهل يرجع الأساس الأخلاقى إلى الأحوال الاقتصادية وحدها أو إلى هذه الأسباب وحدها ، أو إليهما معاً ؟

(٣) السعادة الشخصية

يرى أصحاب هذا المذهب أن السعادة هى اللذة والخلو من الألم ، فاللذة هى أساس الأخلاق ، وهى محور الأعمال ، والعمل يكون خيراً بقدر ما يحقق من لذة ، ويكون شراً بقدر ما يسبب من ألم .

ويزيدون على هذا أنهم لا يتطلبون اللذة فحسب ، بل يتطلبون أكبر لذة ، فإذا كانت أمام الشخص عدة أعمال تنتج لذة وجب عليه أن يختار أعظمها للذة .

وفى رأيهم أن الألم للذة سلبية ، فيجب على الإنسان أن يبتعد عما يسبب الألم .

وقد كان من أكبر الدعاة إلى السعادة الشخصية أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م) إذ رأى أن السعادة أو اللذة الشخصية هى غاية الإنسان ، وليس فى الحياة خير سواها ، وليس بها شر إلا الألم ، ونفى أن تكون للفضيلة قيمة ذاتية ، لأن قيمتها فى السعادة التى تصحبها .

ولم يكن أبيقور يعنى اللذة الحاضرة ، بل أراد أن نلقى نظرة على الحياة كلها ، ونطلب لذة الحياة ، ودعا الناس إلى أن يسيطروا على شهواتهم ،

فيرفضوا اللذة التي تستتبع ألماً أكبر منها ، ويحتملوا الألم الذي ينشئ
لذة أكبر منه .

وفي رأيه أن اللذات العقلية والروحية أقيم من اللذات البدنية ، ولهذا
دعا إلى المعيشة السهلة اليمسيرة المعتدلة العفيفة ، لأنها خير وسيلة إلى السعادة
أو اللذة .

ومعنى هذا أن الفضائل فضائل لأنها تسبب للمتصف بها لذة ، فالهفة
فضيلة ، والدعارة رذيلة ، لأن السعادة التي ينالها العفيف في رضاه عن نفسه
وفي بعده عن الألم الذي تسببه الدعارة ، يَرْجَحُ ما يجده الداعر من لذة
وقتيّة يتبعها ألم النفس ، وفقدان الثقة . وتعريض المال والصحة والشرف
للضياح (١) .

والحق أن في هذا المذهب مفاجأة للصواب في كثير من الأعمال والأحوال ،
فإن الأخيار يحتملون ألواناً من العذاب والألم ليحققوا الخير لغيرهم .
والآباء والأمهات كثيراً ما يشقون ، وكثيراً ما يطرحون لذاتهم ليسعدوا
أبنائهم .

وإن المجاهدين ليتمتدوا أديانهم . والشجعان يشترون حرية أوطانهم
بدمائهم وأرواحهم ، وهم لا يتوقنون إلى شئ غير إعلاء كلمة الله ، وحماية
الأوطان ، بل إنهم ليتدبرون على هول المعارك ، معتمزين على الاستشهاد في
سبيل الله وفي سبيل الوطن ، فأين هي السعادة الشخصية أو اللذة التي قام
عليها هذا المذهب ؟

(١) كتاب الاخلاق ١٠٦ احمد امين

نعم إن في الاستشهاد في سبيل الله والوطن سعادة ، ولكنها ليست السعادة التي ينادى بها أنصار مذهب اللذة أو السعادة الشخصية .

على أننا طالما رأينا ذوى النجدة يهرعون إلى إطفاء حريق ، أو إلى إنقاذ غريق ، أو إلى تخليص أناس من ضيق ، وهم لا يقصدون لذة ، ولا يتوقعون ثناءً أو جزاءً من أحد .

ثم إن هذا المذهب قائم على الأثرة ، وإنها لشرُّ يأباه الخلق الكريم ، لأن الذى يفعل الخير لغيره مجلبة للذة أثرٌ يفعل خيرا لنفسه لا للناس ، فهو وجود أو يشجع أو يعف ليكسب ثناءً ، أو يشعر بالقدرة والتعالى والتفوق ، وليس هذا من الخلق الفاضل الكريم ، ولأن الفاضل فى رأى أبيقور لا يعنيه شئ من الخير الذى يصيبه الناس ، أو من الشر الذى يحيق بهم إلا بالقدر الذى يمس سعادته أو شقائه .

(٤) السعادة العامة

إذا كان أبيقور قد أسس مذهبه الأخلاقى على السعادة الفردية ، فإن آخرين قد أسسوا مذهبهم على السعادة العامة ، فذهبوا إلى أن الواجب على الإنسان تحقيق أعظم قسط من السعادة للناس ، فليست السعادة أو اللذة مقصورة على العامل وحده كما دعا أبيقور ، بل إنها تشمل كل من يتصلون بالعمل أو يتصل بهم العمل .

وهم يرون أن الفضائل تُعدُّ فضائل لأنها تثمر لذات أكثر مما تثمر من آلام ، فهى فضائل وإن آلمت بعض الناس ، وهى فضائل وإن آذت إفعال نفسه ، ويرون أن الرذائل رذائل لأن آلامها تفوق لذاتها .

فالصدق فضيلة لأنه يزيد سعادة المجتمع ، وبه يَرْتَقِي المجتمع ويبقى ،
فانطبيب بصدقه يرشدنا إلى ما ينفع صحتنا ، والمعلم بصدقه يربى أبنائنا
ويعلمهم ، والعالم بصدقه يُنمِّي معارفنا وتجاربنا ، ولولا صدق هؤلاء
وأمثالهم ما وثقنا بخبر من أخبارهم ، ولا بنصح من نصائحهم ، ولكننا
وثقنا بهم . وتبيننا أن صدقهم نافع لنا ، فحكمتنا بأن الصدق فضيلة ،
وأوجبنا على الناس أن يَصْدُقُوا فيما يقولون .

كذلك تبين لنا في كل فضيلة أنها نافعة للمجتمع ، وتبين لنا من كل
رذيلة أنها ضارة بالمجتمع .

والسعادة التي يعنيها هؤلاء تشمل السعادة الحسية والمعنوية ، واللذة
التي يقصدونها تجمع اللذة الجسمية والعقلية ، وإن كان بعضهم يرى أن
اللذة النفسية أشرف من الجسدية .

وهذا المذهب قديم ، فقد ذكر أرسطو أن أويديوكس كان يرثى أن اللذة
هي الخير الأعلى ، لأن جميع الكائنات تطلبها وترغب فيها ، سواء أكانت
عاقلة أم غير عاقلة ، وكان يقول إن ما هو خير للجميع ، وما يرغب فيه
الجميع ، هو الخير الأعلى .

ومن أكبر الدعاة إلى هذا المذهب بنتام (١٧٤٨-١٨٣٢ م) وجون
ستيوارت ميل (١٨٠٦-١٨٧٣ م) .

يقول بنتام : وضعت الفطرة الإنس ، تحت حكم اللذة والألم ، فنحن
مدينون لهما بكل أفكارنا ، وإليهما ترجع جميع أحكامنا وجميع مقاصدنا
في الحياة .

ومن يدعى أنه أخرج نفسه من حكمهما لا يدرى ما يقول ، فإن

غرضه الوحيد - حتى في اللحظة التي يرفض فيها أعظم اللذات ، ويقبل أشد الآلام - إنما هو طلب اللذة ، والهروب من الألم (١) .

لكن هذا المذهب مع تساميه على سابقه ومع قربيه إلى المثل الأعلى يكاف فاعل الخير أو الشر أن يحسب كل ما ينشأ عن فعله من لذة أو ألم لكل كائن يتلذذ أو يتألم من هذا الفعل ، سواء أكان من الناس أم من الحيوان ، وليس هذا بمستطاع .

ثم إن السعادة العامة ليست مقياساً مُحدداً ثابتاً ، لأن المحور هو اللذة والألم ، وهما يختلفان باختلاف الأشخاص ، وباختلاف الملابس ، فقد يرى شخص في عمل لذة ، على حين أن آخر يرى فيه ألماً ، وقد يرى شخص في عمل لذة كبيرة بينما يرى آخر فيه لذة صغيرة ، وقد يرى الشخص الواحد في عمل لذة في وقت معين ، ثم يرى فيه ألماً في وقت آخر .

وهو إلى هذا يربط- عيون الناس إلى نتائج أعمالهم ، وما تكفله من لذة أو ألم ، غير متطلعة إلى سمو الأخلاق وإلى المثل العليا . على أن السعادة العامة مقياس مؤقت لاثبات له ولا أمان فيه ، لأن الناس ينظرون إلى مصلحة المجتمع نظرات متباينة ، وهذه النظرات المتباينة تختلف من عصر إلى عصر ، بل تختلف في العصر الواحد من بيئة إلى بيئة .

وكثيراً ما يتسلط الأقوياء ، فينصبون للمجتمع قِيماً فيها نفعهم وحدهم ، وفيها ضرر الضعفاء وحدهم .

ولقد يصاب المجتمع كله بالخور في فترة من حياته ، فيركن إلى

(١) كتاب الاخلاق ٦٥ أحمد أمين

البرذائل أكثر مما يجتجح إلى الفضائل ، وتروّج فيه الأهواء ، أو تسود آرائه
للأدعياء ، ويفتدع المجتمع مثلها العالية التي تكفل له الرقي والعلاء .

على أن أرسطو قد ناقش مذهب اللذة العامة فأيد بعضه ، وفند بعضه ،
وجاء في تفنيده أنه إذا كانت الكائنات العاقلة وغير العاقلة ترغب في
اللذة فماذا تكون قيمة هذا الرأي ؟

وقال إن الخير شيء نهائى ومحدود ، على حين أن اللذة غير محدودة ،
لأنها قابلة للأقل والأكثر ، وإن بعض اللذات غير حميد ، فلا يصح أن
تكون اللذة العامة أو السعادة العامة مقياس الفضيلة ، بل يجب أن تكون
الفضيلة هي مقياس اللذات العامة (١) .

(٥) الضمير

أقام زينون الفيلسوف اليونانى (٣٤٢-٢٧٠ ق م) مذهبه الأخلاق
على الضمير ، ثم عزز هذا المذهب الفيلسوف الألمانى كانت (١٧٢٤ -
١٨٠٤ م) .

وأساس هذا المذهب أن فى كل إنسان قوة فطرية يميز بها الخير من الشر ،
كأنها إلهام ، ولهذا يتفق الناس على أن الصدق والشجاعة والعفة والأمانة
فضائل ، ويجمعون على أن الكذب والجبن والفجور والخيانة رذائل .
فنحن حينما نصف عملاً بأنه خير أو شر لا ننظر إلى لذة ولا إلى ألم
كما ينهض دعاة مذهب السعادة ، بل نحكم بفطرتنا غير ناظرين إلى
ن نتائج العمل .

(١) علم الأخلاق ٢/٢٢٨ لأرسطو .

ومن مزايا هذا المذهب أنه يعد الفضائل فضائل في كل بيئة وفي كل زمان وفي كل حالة ، بغير ما تَطَّلَعُ إلى ما ينشأ عنها من لذة أو ألم ومن نفع للشخص أو ضرر .

كما أن من مزاياه أنه يعد الفضائل ، بدهيات ليست محتاجة إلى تدليل على ما فيها من خير ، فمحال أن تنقلب الفضائل رذائل ، أو أن تصير الرذائل فضائل .

وسواء أكان الضمير قوة من قوى الشعور أو قدرة من قدر العقل فإنه يتطلب من الإنسان أن يصغى إلى صوت ضميره ، وأن يطيع أمره ونهيه .

ولكن هذا المذهب لا يسلّم من عيب ، لأن الناس يخافون في حكمهم على الأعمال اختلافاً كبيراً ، وكثيراً ما تتباين أحكامهم حتى على البدهيات ، فالسرقة الخفية كانت في إسبرطة عملاً ممدوحاً يُمرّن عليه الشباب لتدريبهم على الحيلة في الحرب ، والاسترقاق كان في العالم القديم مباحاً ، وشرب الخمر ولعب الميسر وغارة بعض القبائل على بعض كانت من مظاهر السيادة عند العرب في الجاهلية .

وشتان ما بين أحكام الضمير المتقلبة والأحكام التي ترجع إلى الإدراك كالحكم على الفحم بأنه أسود ، وكوصف القطن بأنه أبيض ، وكحسبان العشرة بأنها ضعف الخمسة .

ومن عيوب هذا المذهب أن الضمير في حاجة إلى تربية وتكوين ، لأنه كثيراً ما يُغشيه الهوى ، وتسييره المنفعة الخاصة ، وكثيراً ما تسيطر عليه أحكام البيئة والعصر والأحداث ، فإذا ربي تربية دينية كان رقيباً على النفس ، وإن لم يرب هذه التربية كان خافت الصوت ضعيف الساطان .

على أن الضمير مهما يكن صوته قوياً دائماً الهتاف بالإنسان أن يصغى إليه ليطيعه فيعمل الخير ، وليتجنب الشر ، فإن في الإنسان قوة أخرى تستطيع أن تقاوم هذا الصوت وتعصيه ، هي العزيمة التي كثيراً ما ترفض نصائح الضمير ، وتطغى على العقل .

فلا بد من سلطان أقوى من الضمير ، يخضع له الضمير والعقل والعزيمة جميعاً .

(٦) الوسطية

كان مذهب الوسطية أكثر المذاهب شيوعاً ، وأعظمها تأثيراً على الدارسين والباحثين ، منذ وضع أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) مقياساً للأخلاق وأساساً للفضائل أنها وسط . بين طرفين ، واعتدال بين رذيلتين .

قال أرسطو : « إن الوسط . بالنسبة لشيء ما هو النقطة التي على بعد سواء من كلا الطرفين ، والتي هي واحدة بعينها في كل الأحوال . أما بالإضافة إلى الإنسان فالوسط . هو هذا الذي لا يعاب لا بالإفراط ولا بالتفريط . »

كل إنسان عالم وعاقل يُجهّد نفسه في اجتناب الإفراط من كل نوع ، سواء أكان بالأكثر أم بالأقل ، ولا يطلب إلا الوسط . القيم ، ويفضله على الطرفين ، ولكن هذا الوسط . ليس وسط . الشيء عينه ، بل الوسط . بالنسبة إلينا . وإن أعني بالكلام : هنا الفضيلة الأخلاقية ، لأنها هي التي تختص بانفعالات الإنسان وأفعاله ، فالفضيلة هي نوع وسط . ما دام الوسط . هو الغرض الذي تطلبه بلا انقطاع (١) .

(١) علم الاخلاق ١/ ٢٤٥

ومثل أرسطو للحد الوسط. بأن الاعتدال أو العفة وسط. بين الفجور والخمود ، والسخاء وسط. بين الإسراف والبخل ، وكبر النفس وسط. بين الوقاحة والضعفة ، والحلم وسط. بين الشراسة والفتور ، والصدق وسط. بين النفيج والتعمية ، والبشاشة وسط. بين السخريّة والفضاظة ، والصدّاقة وسط. بين الملق والشراسة^(١) .

ولقد أعجب بهذا المذهب كثير من العلماء ، وجاراه كثير من فلاسفة المسلمين ، ولعل مرد هذا إلى أنه يدعو إلى الاعتدال ، والاعتدال خلة يرضاه الإسلام ، ويحمدنها الناس ، لأنه يدل على الاتزان وعلى سلامة التقدير وصواب التدبير والبعد عن الشطط.

وحسبنا أن نذكر أن الغزالي (٤٥٠-٥٠٥ هـ) ذهب إلى أن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل . والمراد بالحكمة حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية .

والعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة .

والشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها . والعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها ، إذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأي ، وإصابة الظن ، والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ،

(١) علم الاخلاق ٢٥٠/١-٢٥٧ .

ومن إفراطها تصدر الجرّيزة^(١) والمكر والخداع والدهاء ، ومن تفريطها يصدر البكّة والغمارة والحمق والجنون .

وأما الشجاعة فيصدر منها الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها .

وإفراطها وهو التهور يصدر منه الصّلف والبَدَخ والتكبر والعُجب ، وتفريطها تصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب .

وأما العفة فيصدر منها السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والظرف وقلة الطمع .

وميلها إلى الإفراط أو التفريط يحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقصير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغيرها .

فأمّهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربع وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ، والباقي فروعها .

ولم يبلغ كمال الاعتدال فيها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) .
وقال إن الإمساك حيث يجب البذل بخل ، وإن البذل حيث يجب الإمساك تبذير ، وبينهما وسط هو محمود ، وهو الجود أو السخاء أو الكرم ، إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا به ، وقد قال الله تعالى :
« لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ . »^(٣)

(١) الجرّيزة : الخبث والخداع

(٢) الاحياء ٤٦/٣

(٣) سورة الاسراء ٢٩

وقال تعالى : «والذين إذا أَنْفَقُوا لم يُسْرِفُوا ولم يَقْتُرُوا ، وكان بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا^(١)»

فالجود وسط. بين الإسراف والاقتار ، وبين البسط. والقبض .

وقال في موضع آخر إن الحكمة فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية ، والعدالة وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب .

وذكر أن الحكمة وسط. بين رذيلتين هما الخُبُّ والبَلَّةُ ، وهما طرفا إفراطها وتفریطها .

أما الشجاعة فهي وسط. بين التهور والجبن ، والعفة وسط. بين الشرِّه -- إفراط. الشهوة -- والخمود .

ثم قال إن العدل لا تكتنفه رذيلتان ، بل رذيلة الجور هي المقابلة له^(٣) .

وفي رأيه أن الشجاعة تشمل الكرم والنجدة وكِبَر النفس والاحتمال والحلم والثبات والنبيل والشهامة والوقار .

وطبق مذهب الوسطية فقال إن الكرم وسط. بين البَذَخ والبَذَالَة ، والنجدة وسط. بين الجسارة والانخذال ، وكِبَر النفس وسط. بين التكبر وصغر النفس ، والاحتمال وسط. بين الجَسَارَة والهَلَع ، والحلم وسط. بين الإِسْتِشَاظَة والانْفِرَاك ، والوقار وسط. بين الكبر والتواضع^(٤) .

(١) سورة الفرقان ٦٧ - القوام : العدل وما يعاش به

(٢) الاحياء ٢٢٥/٣

(٣) ميزان العمل ٦٧-٧٤

(٤) المرجع السابق ٧٥

وذهب إلى أن 'نعفة' تشمل الحياة والخجل والمسامحة والصبر والسخاء وحسن تقدير ولانبساط والدمائة والانتظام وحسن الهيئة والقناعة ونورع والطلاقة وساعدة والمظرف .

وكذلك طبق مقياس الوسطية : فقال إن الحياة وسط. بين الوقاحة ونخوة . والمسامحة وسط. بين المناقشة والإهمال ، والسخاء وسط. بين التبتير والتقتير . والنورع وسط. بين الرياء والهتكة^(١) الخ .

كذلك ذكر ابن مسكويه (٤٢١هـ) أن الفضائل أوساط بين أطراف وتلك الأطراف هي الرذائل ، ثم قال إنه من الصعب وجود الوسط . ، وتتمسك به بعد وجوده أصعب : ولذلك قالت الحكماء : إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصواب بعد ذلك حتى لا يخطئها أعسر وأصعب^(٢) .

غير أنه مع هذا جعل يطبق نظرية الوسط. كما طبقها غيره.

لكن هذه النظرية ليست سليمة من القصور والعيوب .

١ - ولقد يتضح قصورها إذا ما طبقناها على كل فضيلة من الفضائل ، فاشجاعة مثلاً ليست وسطاً بين التهور والجبن ، وإن كان التهور رذيلة والجبن رذيلة . بل الشجاعة فضيلة حيثما كانت وكيفما كانت ، ما دامت سنداً للحق : ودفاعاً عن العرض والمال والحياة . وحماية للضعفاء من جبروت الطغاة وعدوان الأقوياء .

وإن تكون الشجاعة في حال من أحوالها هذه مذمومة ، وإن تكون

(١) ميزان العمل ٧٧ - ٨١

(٢) تهذيب الاخلاق ٢٠

فى مجاوزتها الحد المألوف رذيلة توصف بالتهور ، لأن التهور ليس شجاعة انحرفت عن الوسطية إلى طرف التهور كما يقول مذهب الوسطية ، إنما التهور رذيلة ، لأنه حمق وخرق وخطل فى التدبير وعجز عن ضبط النفس ، وغفلة عن الحزم وعن تدبير العواقب .

فليست الشجاعة دائماً ألا يخاف المقدم ، فإنها كما تكون فى الإقدام ، تكون فى الإحجام ، وكما تكون فى الاستهانة بالمخاوف ، تكون فى توقى بعض المخاوف وفى تدبيرها للتغلب عليها لا للاستكانة لها .

وهذه الشجاعة درجات ، أولها فضيلة ، وعليها فضيلة بل أفضل الفضيلة ، وهى الفداء والبطولة والاستشهاد .

وكذلك الكرم تتفاوت درجاته من جود بالقليل إلى جود بالكثير إلى جود بالأكثر إلى جود بالمال كله ، ولكل حالة من هذه الحالات بواعثها وأهدافها ، فقد يجود الشخص فى سبيل من سبل الخير بالعشرة أو المائة ويسمى كريماً ، لأن طاقته لا تحتل أكثر من هذا ، أو لأن الصالح العام لا يوجب عليه فوق هذا ، وقد يجود الشخص بالآلاف أو بمئات الآلاف ولا يسمى مُسْرِفاً ، لأن ثرائه يتسع لهذا السخاء ، أو لأن مصلحة الأمة توجب هذا السخاء وتقتضيه .

﴿ على أن هذا الشخص أو ذاك يوصف بالإسراف إذا ما بذل المال القليل فى هوى من أهواء نفسه لا يمت إلى الخير بسبب من الأسباب ، أو أنفق الكثير وقد كان فى القليل كل الغناء ، ولهذا قال تعالى : « وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . وَإِذَا تُعْزِنُ عَنْهُمْ ﴾

ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا . وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ . فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (١) .

وقال تعالى : « كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٢) » .

وهل يستطيع الناس أَنْ يصفوا بالإسراف غنياً لا وارث له يخرج عن ماله كله للفقراء ، أو يشيد به مدرسة أو مسجداً أو مصنعاً ، أو يشتري به سلاحاً للدفاع عن الوطن ؟

إن هذا الغنى يوصف بأنه بلغ القمة في الأريحية والسخاء .

وهذا الذى نقوله فى نقد الوسطية فى الفضائل كلها نقول مثله فى نقد الوسطية فى الرذائل كلها ، كالجبن والبخل والفجور وغيرها .

٢ - على أن نقطة الوسط بين الرذيلتين لا يمكن تحديدها ، فكيف تعرف ؟ ومن الذى يحكم بأن هذه النقطة هى الاعتدال دون غيرها ؟ وهل الوسط بين الرذيلتين محدود أو ممكن التحديد مثل منتصف طريق معروف الطول ؟ وأين ذلك المقياس الذى يعين المنتصف الذى عناه أرسطو وسواه ؟

وقد ذكر أرسطو نفسه أن إدراك الوسط فى كل شىء أمر صعب جداً ، كما أن استكشاف مركز دائرة لا ييسر لجميع الناس ، ولهذا كان على من يريد إصابة ذلك الوسط القيم أن يبتعد عن الرذيلة التى هى أشد ما

(١) سورة الاسراء ٢٦ - ٢٩

(٢) سورة الانعام ١٤١

تكون تَصَادًا مع هذا الوسط ، لأن هذين الطرفين أحدهما أكبر إثمًا والآخر أقل (١) .

٣- فإذا ما راعينا أن الفضيلة ليست دائماً متساوية البعد عن الطرفين تبين لنا أن الوسط بين رذيلتين ليس هو الفضيلة ، فالشجاعة أبعد عن الجبن من بعدها عن التهور ، والكرم أقرب إلى جانب الإسراف منه إلى جانب البخل ، والعفة أدنى إلى الخمود منها إلى الفجور . وهكذا .

٤- ثم إن بعض الفضائل لا يتحقق فيها أنها أوساط بين رذائل ، فالصدق ليس وسطاً بين الكذب وشيء آخر ، إنما الصدق صدق فحسب ، والكذب كذب فحسب ، والعدل ليس وسطاً بين الجور وشيء آخر ، بل العدل عدل خالص والجور جور خالص ، والعفة ليست وسطاً بين الفجور والخمود ، بل العفة هي العفة .

وقد ذكر أرسطو نفسه أن الوسط القويم بين طمع غال في المجد ، وقعود تام عن المجد ليس له اسم خاص (٢) ، وذكر أن الصدق ليس وسطاً بين رذيلتين (٣) ، وحرار في التواضع فلم يعده فضيلة (٤) .

٥- ونستطيع أن نفهم من كلام أرسطو نفسه أن الوسط متنقل غير محدود ، فهو تارة يقول إن المراد الوسط بالنسبة إلينا (٥) ، وتارة يقول إن بعض الأطراف تشبه الوسط ، فالتهور به شبه بالشجاعة ، والسرف به شبه بالسذء ، ولكن المفارقة الكبرى تتبين بين بعض الأطراف وبعض (٦) .

-
- | | |
|-----|-------------------|
| (١) | علم الأخلاق ٢٦٢/١ |
| (٢) | علم الأخلاق ٣٢/٢ |
| (٣) | علم الأخلاق ٤٢/٢ |
| (٤) | علم الأخلاق ٢٥٠/١ |
| (٥) | علم الأخلاق ٢٤٥/١ |
| (٦) | علم الأخلاق ٢٥٩/١ |

٦ - أما الاستدلال على أن الكرم وسط بين البخل والإسراف بقوله تعالى : «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا» فإنه موضع نظر .

وذلك أن الآية الكريمة مسبوقة بقوله تعالى : «وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . وَإِذَا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا^(١)» .

وهذا أمر الله عباده بصلة أقاربهم وبصلة المساكين وأبناء السبيل بعد أن أمرهم في آية سابقة ببر آبائهم وأمهاتهم ، ونهاهم عن التبذير ، وهو البعثرة في السرف والإنفاق في المعاصي وفي غير الحق ، كما روى عن عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعن مجاهد وقتادة وابن زيد .

أما الإنفاق في الحق فقد قال فيه مجاهد : لو أنفق إنسان ما له كله في الحق ما كان تبذيرا ، ولو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا^(٢) .

ثم نهى الله عن البخل بالمال في الحقوق التي أوجبها في أموال الأغنياء ونهى عن العطاء الذي لا يُبقي عند صاحبه شيئا ، فلا يجد ما يعطيه إذا سئل ، فيلومه سائلوه ويلوم نفسه .

وقد فسر بعضهم البسط بأنه إنفاق في سخط الله وفي معاصيه وفي ما لا ينبغي أن ينفق المال فيه^(٣) .

والذي يصح استنباطه من هذا أن القرآن الكريم أمر بفضيلة هي

(١) سورة الاسراء ٢٦-٢٩

(٢) تفسير الطبري ٥٣/١٥

(٣) تفسير الطبري ٥٦/١٥

الجود بالمال على المحتاجين من الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ، ونهى عن رذيلة هى البخل ، وعن رذيلة أخرى هى التبذير أو الإسراف ، والمراد بالإسراف ابتذال المال فيما لا يصح أن يبتذل فيه ، من معصية وترف وأبهة ورشوة وما يماثلها .

وليس فى الآيات ما يفهم منه أن الكرم وسط بين رذيلتين ، بل الذى يفهم أن القرآن ينهى عن رذيلتين هما الشح والإسراف ، وبين هاتين الرذيلتين درجات من الكرم تختلف باختلاف مقدرة المنفقين ، فقد يكون إنفاق شخص معتدلاً وهو أقرب إلى البذل الكثير ، وقد يكون إنفاق شخص آخر معتدلاً وهو أقرب إلى الحرص والتقتير ، وقد ينفق الشخص ماله كله فى الحق وهو براء من التبذير .

كذلك الآية الكريمة : «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً» (١) لا تعنى الوسطية بين الجود والشح أو بين السخاء والتقتير ، بل تدم الإسراف ، وتدم الشح ، وتدعو إلى العدل ، وليس الاعتدال حداً وسطاً بين الإسراف والبخل ، بل هو شيء آخر لا صلة له ببخل أو إسراف .

على أن الإسراف المقصود ليس هو السخاء الكثير ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسخو كثيراً فى سبيل الله ، وكان أبو بكر وعثمان وغيرهما من أثرياء المسلمين قد سخوا بأكثر أموالهم فى سبيل الله ، وكان ذلك محموداً منهم ، وقد أشاد النبي بفعالهم ، بل الإسراف هو الانفاق فى المعاصي قل أو كثر ، لأن الطاعات لا إسراف فيها ، فقد

(١) القوام : العدل وما يعاش به

سورة الفرقان ٦٧

سمع رجل رجلاً يقول : لا خير في الإسراف ، فقال له : لا إسراف في الخير (١) ومن الإسراف الإنفاق في اللذات والشهوات ووسائل الترف التي تضعف العزائم ، وتفسد الأخلاق ، ولهذا قال عمر بن الخطاب : كفى سرفاً ألا يشتهي الرجل شيئاً إلا اشتراه فأكله .

وإلى هذا ذهب كثير من أهل التأويل ، فقالوا إن الإسراف هو الإنفاق في المعصية ، والتقتير هو المنع من حق الله ، والقوام هو الاعتدال الذي لا يتجاوز حدود الله ، ولا يقصر عما فرضه ، وهو الإنفاق بالعدل والمعروف ، ولهذا قال مجاهد : لو أنفقت مثل أبي قُبَيْسٍ ذهباً في طاعة الله ما كان سرفاً ، ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان سرفاً (٢) .

(٧) القوة

بنى بعض فلاسفة الغرب المحدثين كيان الأخلاق على دعائم القوة ، مثل هوبز ونيتشه ، ورأوا أن للأقوياء الأعلياء أخلاقاً لا يليق لها العبيد ، وأن للضعفاء المسترقين أخلاقاً لا تليق بالأقوياء ، وهم بهذا التقسيم ردوا الفضائل كلها إلى القوة ، فالشجاعة والبطولة والعظمة والتفوق وأشباهها مظاهر للقوة ، والأخلاق التي لا تبدو في مظاهر القوة راجعة إليها ، فالصبر محمود ، لأن القوى هو الذي يحتمل الشدة ، ويطيق المكروه ، ويثبت أمام البلاء ، ولا يتخاذل ولا يجرع ، لأن الجزع والتخاذل من أخلاق الضعفاء .

والرحمة حميدة ، لأنها مظهر من مظاهر قوة الشخص الذي يرحم .

(١) الكشف ١١٥/٢
(٢) تفسير الطبري ٢٣/١٩

من هو أضعف منه ، وبينه على استعلائه على أن يلقى الضعيف بما يلاقى به
الأنداد من الأقوياء .

والكرم ممدوح ، لأنه يمثل المقدرة على مقاومة البخل ، وهو في الوقت
نفسه تنمضل على المحتاج الذي لم تبلغ به قوته درجة الكريم المانع .

وإن هذا المذهب لمعيب ، لأنه يقسم البشر طبقتين ، ويفصل بينهما
فصلا لا تقره الإنسانية ، ويقم بين الأقوياء والضعفاء سورا لا ينفذ منه
تراحم ولا تواد ولا تعاطف ، ويجعل الناس بعضهم أعداء لبعض ، يبطش
قويهم بضعيفهم ، ويخنع ضعيفهم لقويهم . وإن أدى البطش والخنوع
إلى هلاك الضعفاء وانقراضهم .

وليس من شك في أن بلايا استعمار الأقوياء للضعفاء ، واستئثارهم
بخيرات بلادهم ، واستهانتهم بحياة الملايين منهم ، راجعة إلى هذا
المذهب البغيض .

الفصل الأول

الأخلاق الإسلامية

ينبوعها

أما وقد تبين أن تلك المنابع لم تَخُلْ من ضيق وكثرة وانقطاع في الطريق وَغَيْض ، فإن علينا أن نمد النظر إلى ينبوع آخر ، ينبوع ثر لا يَنْضَب ، متدفق لا يَغِيض ، نقي لا يَتَرَنق ، مستمر لا يتوقف ، مبرأ من العيوب والنقائص على تعاقب الأزمان والأجيال ،

فما هذا ينبوع ؟

إنه الإسلام الذي لا يهdy إلى الأخلاق الفضلى والمثل العليا سواه .

محورها

ما الفضيلة العظمى التى تدور الفضائل كلها فى فلكها الرحيب ؟
ما المحور المركز الثابت الذى تستدير الفضائل حوله منجذبة إليه ،
كما تدور الأرض حول أمها الشمس ؟
إنه التقوى .

فماذا تعنى التقوى ؟

١ - للتقوى دلالة دينية تشمل طاعة الله تعالى والرغبة في ثوابه ، وتشمل خشيته سبحانه والخوف من عقابه ، وهى هذه الدلالة الشاملة المحور الذى تدور حوله الأخلاق الإسلامية .

هى الأساس الوطيد الذى لا يتبدل ولا يَمِيدُ ولا يخضع للأهواء والمقاييس الفردية أو المقاييس العامة التى تتحول وتتغير .

هى المركز الذى تلتف الفضائل من حوله ، ويرنو إليه كل فرد برغبة وبرهبة ، ويدور فى محيطه سواء أحقق له نفعاً عاجلاً أم لم يحقق ، بل إنه يدور من حوله منجذباً إليه وإن كان فى دورانه ضرر محقق يمسّه فى نفسه أو فى ماله أو فى رغبة من رغباته .

وما من شك فى أن الذى يتقى ربه يحبه ، ويطيعه ، ويعمل ما يستحق عليه ثوابه ، ويكف عما ينزل به عقابه ، فيحيا فى طهارة نفس ، وصلاح عمل ، وبراعة تدبير ، وثناء من الخير والحق ، وينفر من كل شر ، ويتحلى كل رذيلة ونقيصة .

ولن يكون التقى - وهو يعلم أن الإسلام ينبوع الأخلاق وأن التقوى محورها - إلا كريماً شجاعاً عادلاً أميناً عفيفاً صادقاً وفيماً رحيماً غيوراً متحلياً بكل فضيلة ، مبرأ من الجبن والبخل والفجور والغدر والكذب ومن كل رذيلة .

٢ - وقد ترددت مادة التقوى فى القرآن الكريم بهذا المعنى تسعاً وثلاثين ومائتى مرة ، منها أمر صريح بالتقوى ثلاثاً وثمانين ، ومنها كلمة تقوى تسع عشرة ، وكلمة تقى ثلاث مرات ، وكلمة الآتى مرتين .

قال تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (١) » .

والمعنى لا تنسبوا إلى طهارة العمل ، وزيادة الخير ، وكثرة الطاعات ،
والبعد عن المعاصي ، فإن الله يعلم الزكى منكم والتقى .
وقال سبحانه : « وَلَيَسَّ الْبِرُّ بَانَ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ
الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى (٢) » .

فقد كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا
داراً ولا فسطاطاً من باب ، فإذا كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته ،
منه يدخل ويخرج ، أو اتخذ سلماً يصعد فيه ، وإن كان من أهل الوبر
خرج من خلف الخباء ، فبين لهم سبحانه أن البر ليس بتخرجهم من
دخول الباب ، ولكن البر هو اتقاؤهم ما حرم الله (٣) ، واجتنابهم ما نهى
عنه .

وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ،
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى (٤) » أي
لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل ، فتعدوا عليهم
بأن تنتصروا منهم ، وتتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا
يحل لكم من مثلة أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد ، وأمرهم
سبحانه بالعدل لأنه أقرب إلى التقوى .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، منها قوله تعالى :

(١) سورة النجم ٣٢

(٢) سورة البقرة ١٨٩

(٣) الكشاف ٩١/١

(٤) سورة المائدة ٨

«يُنَبِّئِينَ نَقُوءًا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» (١) .

وقوله تعالى :

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ» (٢) .

وقوله سبحانه :

«وَيَسِقَ الَّذِينَ آمَنُوا رَبُّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا» (٣) .

وقوله سبحانه :

«أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا» (٤) .

وقوله سبحانه :

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» (٥) .

وقوله سبحانه :

«وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» (٦) .

وقوله سبحانه :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا» (٧) .

وقوله سبحانه :

«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (٨) .

(١) سورة آل عمران ١٥

(٢) سورة الأعراف ٩٦

(٣) سورة الزمر ٧٢ - زمر : جماعات

(٤) سورة الأعراف ٦٣

(٥) سورة الطلاق ٢ - لا يحتسب : لا يظن ولا يخطر بباله

(٦) سورة البقرة ١٩٤

(٧) سورة البقرة ٢٧٨ - ذبوا : اتركوا

(٨) سورة الحجرات ١٣

وقوله سبحانه :

« تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا » (١) .

وقوله سبحانه :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » (٢) .

٣ - ونستطيع أن نستنبط. للتقوى - مع هذه الدلالة العامة التي تجمع كل فضيلة ، وتنفي كل رذيلة - معاني جزئية تتصل بها فضائل معينة .

(١) فالكرم متصل بها في قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ » (٣) .

وفي قوله تعالى : « وَسَجَنِبُهَا لِالَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ » (٤)

(ب) والشجاعة متصلة بها في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَلْيَجَلُّوا فِيكُمْ غُلظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » (٥) .

وفي قوله تعالى : « فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » إلى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا

(١) سورة مريم ٦٣

(٢) سورة المائدة ٢

(٣) سورة الليل ٥-٧

(٤) سورة الليل ١٧-٢٠ - يتزكى : يتطهر باخراج ماله خلاصا لوجه الله

(٥) سورة التوبة ١٢٣

كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ
أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً . وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ : لَوْلَا
أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ . قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
لِمَنِ اتَّقَى ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ، أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ
كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ (١) »

فتمدد كان المسلمون وهم في مكة منهيين عن مقاتلة الكفار ،
وكانوا يتمنون أن يأذن الله لهم فيه ، فلما فرض عليهم القتال
بالمدينة تردد فريق منهم ، لا عن شك في الدين ولكن عن خوف
من الحرب والموت ، وودوا أن يعهلهم الله إلى وقت قريب ،
فردَّ عليهم سبحانه بأن متاع الدنيا قليل ، وبأن الآخرة خير
للاتقياء الشجعان ، وبأن الموت لا بد أن يدرك كل حيٍّ وإن
تحصن في بروج متينة عالية .

وقوله سبحانه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢) » .

فقد أمرهم الله بالصبر على الدين وتكاليفه أو بالصبر على
الشدائد ، وبمغالبة أعداء الله في الصبر على أهوال الحرب ،
وبالإقامة في الثغور مرابطين فيها بخيلهم ، مترصدين للغزو .

(٣) والعدل مرتبط بها في قوله تعالى : « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ

(١) سورة النساء ٧٤-٧٨ . الفيل : نشره النواة

(٢) آل عمران ٢٠٠ - اصبروا : اصبروا على الطاعات والمصائب وعن المصائب .
صابروا : غالبوا الكفار في الصبر فلا يكونوا أشد منكم صبرا . رابطوا : اتقيوا على الجهاد

فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١) .

وفى قوله سبحانه : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٢) .

(د) والعفة ذات علاقة بها فى قوله تعالى : « يَا نِسَاءُ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ، إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ، فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣) » .

فتمدح نهي الله نساء النبي إذا ما أردن التقوى عن الإجابة بكلام لئِنَّ مُرِيبٍ حَتَّى لَا يَطْمَعَ فِيهِنَّ صَاحِبُ الْفُجُورِ ، وأمرهن أَنْ يَقُلْنَ قَوْلًا حَسَنًا فِيهِ الْجِدُّ وَالْخَشُونَةُ وَقَطْعُ الطَّمَعِ فِيهِنَّ .

(هـ) وللصدق صلة بها فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (٤) » .

(و) والوفاء بالعهد شعبة منها فى قوله تعالى : « فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥) » .

عن الحسن أَنَّ كَلِمَةَ التَّقْوَى هِيَ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ ، وَقَدْ أُضِيفَتْ الْكَلِمَةُ إِلَى التَّقْوَى لِأَنَّهَا سَبَبُ التَّقْوَى وَأَسَاسُهَا (٦) .

-
- (١) سورة البقرة ١٩٤
(٢) سورة المائدة ٨ ، لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ : لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَغْضَا لَهُمْ
(٣) سورة الاحزاب ٣٢ -
(٤) سورة التوبة ١١٩
(٥) سورة الفتح ٢٦
(٦) الكشاف ٢/٢٨٧

وفي قوله سبحانه : «الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ . وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ» (١) .

(ز) والرحمة غصن من دوحتها . في قوله تعالى : «وَلْيَخْشَ الَّذِينَ نُو تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ، وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا» (٢) .

فقد أمر الله الأوصياء بأن يخشوا الله فيخافوا على من في حجورهم من اليتامى . ويشفقوا عليهم ، كما يخافون على أبنائهم ويشفقون عليهم لو أنهم تركوهم ضعافاً .

(ح) والعفو جزء منها في قوله تعالى : «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» (٣) .

(ط) والصبر جانب، من جوانبها في قوله تعالى : «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» (٤) .

دوى أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة وقد بقرأ بطنه ، ومثلوا به ، فقال : أما والذي أحلف به لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك . فنزلت الآيات ، فكفر عن يمينه ، وكف عما أَرَادَهُ .

١١ سورة الانفال ٥٦

١٢ سورة النساء ٩

١٣ سورة الشورى ٤٠

١٤ سورة النحل ١٢٥-١٢٨

وقد أمر الله نبيه بالصبر ، وأكد أنه سبحانه ولي المتقين الذين يحسنون ما يعملون .

والمتقون هنا هم الذين يخشون ربهم ، وهم الذين يصبرون .
وفي قوله تعالى : « بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ^(١) » .
وفي قوله تعالى : « لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِّن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عِزِّ الْأُمُور ^(٢) » .

(ى) والأمانة فرع من التقوى فى قوله تعالى : « فليؤدِّ الذى أوْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ، وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ^(٣) » .

وفي قوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ ، وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا ^(٤) » .

وفي قوله تعالى : « وَمِن أَهْلِ الْكِتَابِ مَنُ إِن تَأْمَنُهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنُ إِن تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ

(١) سورة آل عمران ١٢٥ - فورهم : وقتهم . مسومين : معلمين

(٢) سورة آل عمران ١٨٦ - عِزِّ الْأُمُور : القامّة على عزيمة قوية

(٣) سورة البقرة ٢٨٣

(٤) سورة البقرة ٢٨٢ - ليمل : ليمل

ويقولون على الله الكذبَ وهم يَعْلَمُونَ . بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ^(١) .

وسبب نزول الآية أن رجلا من قريش استودع عبد الله بن
سلام ألفاً ومائتي أوقية من الذهب ، فأداها إليه ، واستودع
قرشي آخر فنحّاص بن عازوراء دينارا فجحده وخانه . ومثل هذا
اليهودى لا يرد الأمانة إلى صاحبها إلا بالمطالبة والتعنيف أو
بالقضاء والبينة ، لأنهم يزعمون أن أكل أموال غير اليهود
مباح لا عتاب فيه ولا ذم .

وقد نفى الله سبحانه وتعالى دعواهم . ووصفهم بالافتراء على
الشريعة التي جاء بها موسى ، وزاد الفرية شناعة بأنهم يعلمون
أنهم كاذبون .

ثم بيّن سبحانه أن الأمانة والوفاء بالعهد من التقوى ، وأن
الله يحب المتقين .

(ك) وقوة العزيمة ومضاء الإرادة ، مظهر من مظاهر التقوى في قوله
تعالى : « خُذِ الْعَقْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ .
وإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هم
مُبْصِرُونَ ^(٢) » .

(١) سورة آل عمران ٧٥-٧٦ الاميين : غير اليهود

(٢) سورة الاعراف ١٩٩-٢٠١

أى خذ ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم : وما أقى منهم ،
وتسهل من غير كلفة ، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم .
وأمر بالمعروف والجميل من الأفعال ، ولا تكافئ السفهاء
بمثل سفههم ، ولا تمارهم ، بل احلم عليهم ، وأعرض عنهم .
وعن جعفر الصادق : أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم
الأخلاق ، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه
الآية .

فإن حملك الشيطان بوسوسته على خلاف هذا فلا تطعه ،
واستعذ بالله من وسواسه .
إن المتقين إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان تذكروا ما أمر الله به
ونهى عنه فأبصروا السداد وتغلبوا على الوسواس .

خصائصها

تتميز الأخلاق الإسلامية على الأخلاق الوضعية بعدة خصائص :
١ - الخيرية المطلقة .

لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية أن يكفل الخير الكامل الشامل
المبرأ من الأثرة ، أو من إثارة فريق من الناس على فريق ، أو من الاستجابة
لنوازع الأهواء ومقتضيات البيئة والملابسات .

لكن الإسلام هو الذى كفل هذا الخير ، لأنه استنَّ الأخلاق المثلى التى
تحقق الخير المحض للفرد وللناس جميعاً فى كل البيئات وفى جميع الحالات
وفى كل الأوقات ، فأمر بالفضيلة ورغب فيها لأنها خير يجب

أن يفعل . ونهى عن الرذيلة . وبغضها إلى الناس ، لأنها شر يجب أن يُترك ،
وتسأى الإسلام بفعل الخير وتاركى الشر عن أن يتوقعوا جزاءً من الناس ،
لأن الجزاء الأوفى من الله وحده ، وسما بهم عن اتخاذ الخير سلماً إلى شهرة
أو مجد أو مباهاة أو تسلط . أو شعور باللذة والاستمتاع ، أو اجتلاب
مذمعة مادية عاجلة أو بعيدة المنال . لأن الخير يجب أن يراد به وجه الله .

فقد كان الكرم مثلاً خلقاً فاضلاً في الحياة الجاهلية ، طالما باهى به
المفتخرون ، وأشاد به المادحون ، وكان البخل رذيلة ، طالما هجاها الشعراء
وبرىء منها الأسخياء ، ولكن كرم العرب في الجاهلية كان من إملاء البيئة ،
وكان وسيلة من وسائل الفخار والكلف بحسن الأحداث .

ذلك بأن العرب كانوا يحبون في بادية شحيحة بالزاد ، وحياتهم ترحال
وتجوال ، فكل واحد منهم معرض لأن ينفذ زاده ، فهو يقري ضيفه اليوم ،
لأنه قد يضطر إلى أن يضاف في يوم .

ثم إنهم يكرمون لولعهم بحسن السمعة وطيب الثناء ، ولأنهم ذوو
أريحية وحساسية ، تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة
الملهوف .

وكان المال في نظر الكرماء وسيلة إلى الحياة الشريفة وكسب المحامد
ونيل السيادة (١) .

أما الكرم في الإسلام فإنه مظهر لسخاء النفس ، وكرم اليد ، ورحمة
القلب ، وابتغاء ثواب الله ، ومبعثه أن المال مال الله ، وأن صاحب المال
خليفة عليه موقوت ، لا بد أن يتركه لسواه ، وأن هذا المال ليس حقاً للمالكه

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٣٠٨-٣٢٨ أحمد الحوى .

وحده ، بل له شركاء فيه من الفقراء والمساكين والمحاييج ، ومن مرافق الدولة وصالحها العام ، وغاية هذا الكرم ليست أبهة أو مباهاة أو سيادة أو عظماً مشوباً برياءً ، بل القربى إلى الله ، والشوق إلى ثواب الله ، ولهذا حض الإسلام على البذل ، وآثر أن يكون بعض البذل في خفاء .

وكانت الشجاعة في الجاهلية وسيلة لعدوان الأقوياء على الضعفاء : وطالما خايل العرب بقوتهم وبغلبتهم على غيرهم . وبعدون القادريين على من هم أقل منهم مقدرة ، فلما جاء الإسلام وجه الشجاعة إلى نصرة الحق ، وحماية الدين ، ونجدة المظلومين المضطهدين ، فارتفع بدلاتها عن العدوان إلى الجهاد .

٢ - الصلاحية العامة :

تمتاز الأخلاق الإسلامية بأنها تكفل الخير لجميع الناس في كل زمان ومكان ، وبأنها سمحة سهلة ميسورة ، ليس فيها إرهاب ولا إعنات ولا تكليف بما لا يطاق ، بل إن الإسلام سنَّ أخلاقاً فاضلة تستريح إليها النفوس النقية وتهش لها الضمائر الحية ، وتوئدها العقول السليمة^(١) ، وقد صدق المولى سبحانه في قوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ^(٢) » وفي قوله : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا^(٣) » وفي قوله : « وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ . لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا^(٤) » ، وفي قوله « إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ^(٥) » .

(١) سورة البقرة ١٨٥

(٢) سورة البقرة ٢٨٦

(٣) سورة الأنعام ١٥٢

(٤) سورة الحج ٦٥

هذه السهولة وهذه الصلاحية محقتان في الأخلاق الإسلامية : على حين أن مذهب العرف ضيق المجال متغير الأحكام في البيئات والأعصار . وكثيرا ما يجانب العرف الحق والخير والسداد ، وعلى حين أن مذهب السعادة الشخصية أذانية بغیضة . وقاصر عن الاتساع لكثير من الأعمال الخيرة والبطولة والفداء .

ثم إن مذهب السعادة العامة عسير التحقيق . ومقياسه مضطرب لا حدود له ولا استقرار .

أما المذهب الذى يختص بأخلاق القوة طائفة من الناس هم السادة الأقوياء ، ويستبقى أخلاق اللين لطائفة أخرى هم العبيد والأرقاء والضعفاء ، فإن الإسلام ينكره أشد الإنكار ، لأن الإسلام دين المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وفى الثواب والعقاب . وفى الحسنات والسيئات ، فهو لا يقر التفرقة ولا يرتضيها .

ثم إن الإسلام يحض على الأخلاق التى تمثل القوة كالشجاعة والكرم والعفو والحلم ويحض على الأخلاق التى تمثل الدعة والسماحة واللين كالرحمة والصبر والإيثار وطيب العشرة .

والإسلام إذ يحض على أخلاق القوة يبتغى أن تكون جِمي للعقيدة ، وحصنا للحق ، وظهيرا للخير ، ووسيلة إلى نصره المظلوم ، ونجدة المهضوم وإنصاف الضعفاء ، ونفع الناس ، ولا يرتضى أن تتخذ وسائل للعدوان ، أو مظاهر للاستعلاء : أو دعائم للإفساد فى الأرض وإذلال الضعفاء .

قال تعالى : « إِنْ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ^(١) »

(١) سورة نمل ١٨

وقال سبحانه : « أليس في جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ^(١) » .

وقال تعالى : « وما لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ^(٢) » .

وقد اتضح من دراسة المذاهب الخلقية أن الخير الذي تقصده أو الفضيلة التي تدعو إليها إما شخصية فردية ، وهذه أثره يرفضها الإسلام ، وإما عامة ولكنها قاصرة عن الصلاحية الشاملة أو الدائمة ، وكثيرا ما تحيد عن الصلاح بتضليل من الأقوياء المنتهزين ، أو بتأثير من الانحراف .
النام .

أما الفضائل الإسلامية فإنها الصالحة للأفراد والجماعات في اليسر والعسر ، وفي الشدة والرخاء ، وليس فيها تفريق بين زمان وزمان ، ولا بين فريق وفريق ، ولا بين حال وحال .

٣ - الثبات :

الأخلاق الإسلامية نابعة من الدين ، وكفيلة بالخير المطلق ، وصالحة للناس جميعاً ، فهي إذاً تتيمُّ بالثبات والدوام والاستقرار ، لأنَّ المشرعَ الحكيمَ راعى فيها كفالة الخير الدائم العام .

وإنَّ النظرة إلى المذاهب الوضعية لتكشف عن تقلبها واضطرابها وقصور صلاحيتها ، ولهذا تعددت في العصر الواحد وفي مختلف الأعصار .
فالمنفعة المادية مثلاً مذهب لا ثبات له ، لأنه يتنكر للبواعث

(١) سورة الزمر ٦٠ .

(٢) سورة النساء ٧٥ .

الروحية وللمثل السامية ، ويطبع الناس بطابع الأثرة ويلزمهم بشرية الغاب .

والضمير الذى احتكم إليه بعض الفلاسفة متقلب ، فكثيرا ما تُغشيه الأهواء ، وتنحرف به النزعات ، وتقهره العزيمة .

والوسطية لا حدود لها يهتدى إليها الناس ليعرفوا أين تنتهى الرذيلة وأين تبدأ الفضيلة .

والسعادة الشخصية ترجع بها الأهواء ، والسعادة العامة تتلاعب بها الآراء .

وليس غريباً أن تتصف الأخلاق الوضعية بالتغير والاضطراب ، لأنها تمثل نفسية واضعها ، وهو إنسان لا يستطيع مهما يبلغ من الذكاء وبعد النظر وعمق الفكر وحب الخير أن يضع للبشر دستوراً أخلاقياً ثابتاً لا تبدله الأحوال .

ومن الخطأ أن يجترىء الناس على صنع أخلاق لهم كما يصنعون الطعام واللباس والمتاع ، أو كما يبتكرون نظريات فى علوم الرياضة والفلك والاجتماع .

وإذا كان العلماء قد تباينت آراؤهم وما تزال تتضارب فى أنواع الدراسات فأتى لهم أن يبتدعوا ينابيع للأخلاق الفاضلة وهى موصولة بالنفوس أوثق اتصال ، وهذه النفوس نحر ما يزال الدارسون على حافته بعيدين عن الأتباع ، ولقد يظن بعضهم أنهم اجتازوا الساحل إلى اللجة ولكنهم لا يلبثون أن يكذبوا هذا الظن ، لأنهم ما زالوا على الشاطئ فوق الحصى والرمال .

٤ - الالتزام المستجاب :

ما الذى يبتغيه واضع القانون حينما يضعه للناس؟
وما الذى يريده العالم حين يضع مذهباً فى الأخلاق؟
إنهما يريدان من الناس أن يخضعوا لما وضع لهم فى السر والعلن ،
وفى الوحدة والاجتماع ، وفى النعماء والبأساء .
ولكن ما الذى يحدث فى كثير من الأحيان؟
ألا يتحايل الناس على القانون ، ويتسللون من قيوده إذا ما واتتهم
فرصة للتحايل والفرار؟
ألا يعصون نداء المذهب الأخلاقى إذا ما أمّنوا ألا يعابوا بهذا العصيان؟
ألا تعرض لبعض الناس ألوان من الإغراء تتوارى أمامها رهبة القانون .
وتضعف مثلُ الفلاسفة ؟
ذلك بأن الوازع هنا خارجى لا سلطان له على دخائل النفوس وأعماق
الوجدان ، فإذا ما غفلت عينه عن الرقابة تمرت الأهواء والنزعات .
أما الأخلاق الدينية فإنها تستمد من ينبوعها قوة نافذة تلزم بها فى
العلن والخفاء ، وفى السراء وفى الضراء ، لأن الرقيب عليها هو الله الذى
لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يغربُ عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .
وإن هذا الإلزام لمحبوب مطاع ، لأنه أمر أو نهى من الله ، قد ربي
المجتمع عليه ، وأخذ نفسه به ، وخضع له ، وأيقن أن خضوعه يحقق الخير
للأفراد أو الجماعات ، ويقرب من ثواب الله .
ومعنى هذا أن الأخلاق الدينية تستند إلى سلطان روحى يمدّها بأعظم

الدوافع على الاستمسك بها والاعتصام ، ويحفز الناس إلى عمل الخير حفزاً منوطاً بالثواب ، ويردعهم عن فعل الشر ردعاً مرهوب العقاب .

ولقد ذكر أرسطو أنه من الضروري لتكوين الرجل الفاضل أن يكون قد أحسنت تربيته في البداية . وأن يكون قد اعتاد عادات حسناً ، ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا إذا أكره الناس على الفضائل إما بإرشاد العقل ، وإما بأمر منظم ذي قوة كفيلة بأن تطاع ^(١) .

وإذا كان أرسطو قد حصر هذه القوة في القانون ، فإننا نحصرها في الدين . لأنه أعظم من القانون سلطاناً . وأشد منه رقابة . والناس له أكثر استجابة .

٥ - الرقابة المحيطة :

على أن الأخلاق الدينية أَمْنَع حصانة من الأخلاق الوضعية ، لأنَّ الهيمنة عليها أشد وأقوى ، فلا يجترئ إنسان على مخالفتها إلا بعد تردد وإحجام ، ثم يندم على ما اجتراح ويأسى ، وقد يجره الندم إلى توبة نصوح لا رجعة بعدها إلى الآثام .

وذلك أن عليها رقيباً عنيدا من الدين نفسه ، ورقيباً من الضمير الحي الذي أيقظه الدين ورباه ، ورقيباً من العقل السليم الذي صقله الدين وهداه .

وقد يسأل سائل : هل أقر الإسلام الضمير ، وعده رقيباً ؟
والجواب على هذا أن الإسلام قدر الضمير ، واعتمد عليه في أنواع من الحكم والاختيار .

(١) علم الأخلاق ٢/٣٧٠

وحسب الضمير شرفاً أن يكون المقصود في قوله تعالى : « لا أَقْسِمُ
بِیَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ولا أَقْسِمُ بالنفس اللوامة (١) » .

وفي قول رسول الله : إن في الجسد مُضْغَةً إذا صلحت صلح الجسد
كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب .

وقد تعرض أمور ليس للشرع فيها نص ، فيحار الناس أخير هي أم
شر ؟ أحلال أم حرام ؟ وهنا يهتف الضمير الحى بما يطمئن النفوس ،
ويهديها إلى الخير والحق والحلال . وهذا هو المقصود من قوله صلى الله عليه
وسلم : اسْتَفْتِ قلبك ، استفتت نفسك . البر ما اطمأن إليه القلب . واطمأنت
إليه النفس ، والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر (٢) .

وقوله : الحلال بَيِّنٌ والحرامُ بَيِّنٌ ، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها
كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأً ل عرضه ودينه ، ومن
وقع في الشبهات وقع في الحرام ، ألا وإن في الجسد مُضْغَةً إذا صلحت
صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب (٣) .

وقوله : لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به
حَذَرًا لما به البأس (٤) .

أما العتزل فإن القرآن قد رفعه مكاناً علياً في كثير من آياته ، وإن
الفضائل التي دعا إليها الإسلام لتوافق العقل السليم ، ولهذا جعله
الإسلام من الرقباء عليها وعلى الناس .

(١) سورة القيامة ١ - النفس اللوامة : التي تلوم صاحبها كثيراً

(٢) مكنز العمال ٨٨/٢

(٣) الاحياء ٥٠/٣ وتيسير الوصول ٢٤٩/٣

(٤) مكنز العمال ٢١/٢

ونعل الإمام الغزالي كان يقصد إلى بعض هذا حينما ذكر أن الاعتدال في قوة العقل وكمال الحكمة . وفي قوة الغضب والشهوة ، وفي خضوعها للعقل ونشرع يحصل من طريقين .

أحدهما بوجود إلهي وكمال فطري . فيخلق الإنسان ويولد كامل لعقل . حسن الخلق . قد تحرر من سلطان الشهوة والغضب ، لأن القوتين خلقتا فيه منقذتين للعقل وللشرع ، فيصير عالماً بغير تعليم ، ومودباً بغير تأديب . كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والآخر اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب ، وجميع الأخلاق المحموده شرعاً تحصل بهذا الطريق (١) .

على أننا لا نعرف فضيلة إلا وقد أمر الدين بها ، وارتضاها العقل السليم وأيدها . وهش لها الضمير الحي وسددها .

وليس هناك رذيلة إلا وقد نهى الدين عنها وبغضها ، ونفر منها الضمير الحي وأنكرها . ورفضها العقل السليم وقبحها .
وإنه لجدير بإمعان النظر أن القرآن الكريم إذ يأمر بفضيلة أو ينهى عن رذيلة يسلك مسالك منها :

١ - أنه يعقب على الأمر أو النهي بتعليل موجز يكشف عما في العمل بالفضيلة من خير ، وما في اقتراف الرذيلة من شر ، وفي هذا تنبيه للضمير وللعقل .

من هذا قوله تعالى : « وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » (٢) .

(١) الاحية ٢/٥٠
(٢) سورة فصلت ٢٤

فها هنا تعليل لمقابلة السيئة بالحسنة يبين أن هذه المقابلة تطفىء الغضب ، وتعيد المودة ، وتكفل السلام .

وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ^(١) » .

فها هنا نهى عن عدة ردائل ، وتعليل لهذا النهى .

(١) نهى عن سخرية بعض المسلمين ببعض سواء أكانوا من الرجال أم النساء ، لأن الذين يسخرون منه قد يكون أكرم منهم أخلاقاً ، وأعظم تقوى ، وأعلى مكانة عند الله .

(ب) ونهى عن تبادل الشتائم ومعائب الألقاب ، لأن هذا مروق من آداب الدين ، ومعصية لله ، وظلم للنفس وللناس .

(ج) وأمر باجتناب كثير من الظن ، لأن بعضه باطل ، وقد يجر إلى اعتداء وذنب .

(د) ونهى عن التجسس ، وعن الغيبة ، لأن من يغتاب أخاه يرتكب عملاً شنيعاً بشعاً تعافه كل نفس ، فهو مثل من يأكل لحم

(١) سورة الحجرات ١١ - ١٢ - لا تلمزوا : لا تسيبوا : لا تنابزوا بالألقاب : لا يدع بعضكم بعضاً بلتب يكرهه . الاسم : المذكور من السخرية واللمز والتنازع .

إنسان ، وهذه بشاعة ، ثم إن هذا الإنسان أخوه ، وهذه بشاعة ثانية ، ثم إن هذا الإنسان الأخ ميت ، وهذه بشاعة ثالثة .

(هـ) وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ، فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (١) » .

فالتثبت لتحري الأنبياء التي ينقلها الكاذبون ضرورى ، لأن تصديق أنبيائهم قد يثير النفوس ، فيدفعها إلى حرب أو قطيعة أو سوء مجازاة . ثم تتكشف الحقيقة فيكون الندم والأسف .

(و) وقوله تعالى : « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (٢) » فإن التنازع والتخاصم والتفرق يصيب بالخبية وضعف القوة ، ويطمع الأعداء في المسلمين .

٢ - وقد يراوح القرآن الكريم ، فيأمر بالفضيلة في موضع أو ينهى عن الرذيلة في موضع ، بغير أن يلحق بالأمر أو النهى تعليلا ، ولكنه في موضع آخر يعقب بالتعليل .

من هذا قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٣) » .

فهذا أمر بالعدل مجرد من التعليل ، ولكن الأمر بالعدل اقترن في موضع آخر بأنه مظهر من مظاهر التقوى والخلق الكريم ، في قوله تعالى :

(١) . سورة الحجرات ٦

(٢) سورة الانفال ٤٦ - ريحكم : قوتكم

(٣) سورة النحل ٩٠

«اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» (١) . واقترون في موضع آخر بأنه عمل ممدوح محبوب ، في قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ . إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ» (٢) .

٣ - وقد يعقب القرآن الكريم على الأمر أو النهي بالترغيب في ثواب الله والترهيب من عقابه ، كقوله تعالى : «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (٣) .

وقوله تعالى : «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ . وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» (٤) .

وليس معنى هذا أن الفضائل أو الرذائل التي لم يلحق بها القرآن الكريم تعليلاً أقل شأنًا من التي ألحق بها بعض التعليل ، أو أنها محتاجة إلى تعليل يبيدها ، بل معناه أنها من البديهيات التي لا يختلف الناس فيها . فتطيف الكيل والميزان جريمة في تقدير كل إنسان متدين حتى الضمير سليم العقل كريم الخلق ، وإذا أفلت مرتكبها من العقاب في الدنيا فلن يفلت من عقاب الآخرة .

والوفاء بالعهد خُلَّةٌ محمودة يحرص عليها العقلاء الفضلاء ، ونكثُ العهد رذيلة يأنفون منها ، لأنها منقصة ، وإن خفيت على الناس فلن تخفى على علام الغيوب .

-
- (١) سورة المائدة ٨
(٢) سورة النساء ٥٨
(٣) سورة المطففين ١ - ٦ ويل : هلاك وعذاب . اكتالوا على الناس : اشتروا منهم ؛ كالموهم : باعوا لهم
(٤) سورة النحل ٩١

غايته

تبين أن الأخلاق الإسلامية متفردة بآن الدين منبعها ، وبأن التقوى محورها ، وممتازة على المذاهب الأخلاقية بخصائصها ، وإنها لتميزة أيضاً بغايتها .

وماذا عسى أن تكون الغاية من المثل الأعلى الذى تشرئب إليه الإنسانية فى جميع عصورها ، لأنه يحقق لها الحق والخير والعدل ، وما يكفله الحق والخير والعدل من محبة وسلام وإيثار وتعاطف ورخاء وتقدم وتعاون على البر والتقوى ؟

ماذا عسى أن يفعل الروح الطاهر الذى يسرى فى كل نفس وفى كل جمع قوة دافعة إلى الكمال ، مانعة من العيب والنقص ؟
ما الذى يبتغيه الأنقياء الفضلاء من مرضاة الله عنهم فى الدنيا وفى الآخرة ؟

إنها السعادة .

السعادة التى تظلل الفرد ، وتظلل الأمة .

السعادة المحققة لا الأوهام الملققة .

السعادة الماثلة لا الأطياف الزائلة .

السعادة التى تجعل الحياة الدنيا جنة صغيرة يجتازها الناس إلى الحياة الآخرة ، وهى الجنة الكبيرة التى ينعمون فيها بما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر .

الفصل الثالث

شغف النجى بكمال الأخلاق

اصطفاه الله من أكرم دوحه ، وتعهده في طفولته وشبابه إلى أن اختار ليكون مبشرا ونذيرا ، فرباه أشرف تربيـب ، وأدبه أحسن تأديب .

أدبه بمثل قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١) » و « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ (٢) » و « وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٣) » و « اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (٤) » .

وكان القرآن الكريم منهـل أخلاقه ، قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة فساءلتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت : كان خلقه القرآن (٥) .

فكيف لا يكون في القمة من حلـو الشـمائل وحميد السجـايا ؟

لقد كان في هذه القمة ، ولكنه مشغوف بالاستزادة ، حتى إنه كان

-
- (١) سورة الاعراف ١٩٩
 - (٢) سورة النحل ٩٠
 - (٣) سورة لقمان ١٧
 - (٤) سورة النحل ١٢٥
 - (٥) الاحياء ٢١٢/٢

يقول في دعائه اللهم كما حسنتَ خلقي فحسنْ خلقي ، اللهم جنبني منكرات الأخلاق ، اللهم اهْدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت (١) .

وقد ناط مكارم الأخلاق برسالته ، فقال : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، وكان لا يفتأ يحض المسلمين على التحلى بالفضائل ، وينفرهم من الرذائل .

وله في هذا أحاديث كثيرة ، منها قوله :

إِنْ أَحْبَبَكُمْ إِلَىَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجَالَسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا ، الْمُوْطَأُونَ أَكْثَفًا ، الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ .

وقوله : « إِنْ الرَّجُلَ لِيَدْرِكَ بِحَسَنِ خَلْقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ بِاللَّيْلِ الظَّامِ بِالْهَوَاجِرِ . » وقوله : مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ حَسَنُ الْخَلْقِ .

وقوله : أَكْثَرُ مَا يَدْخُلُ النَّاسُ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللَّهِ وَحَسَنُ الْخَلْقِ .

وقوله : إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعَوْا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ ، فَسَعَوْهُمْ بِبَسْطِ الْوَجْهِ وَحَسَنِ الْخَلْقِ (٢) .

وسئل : أَى الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : خَلْقٌ حَسَنٌ .

وقيل له : أَى الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ إِيمَانًا ؟ قَالَ : أَحْسَنُهُمْ خَلْقًا .

والذى يفهم من هذه الأحاديث ومن غيرها أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَبَطَ الْأَخْلَاقَ الْفَاضِلَةَ بِالتَّحْقِيقِ وَبِالتَّقْوَى أَوْثَقَ رِبْطٍ ، وَلِهَذَا

(١) شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ٢٤٤/٤ والاحياء ٣١٣/٢ وكنز العمال ٣/٢

(٢) كنز العمال ٣/٢ والاحياء ١٣٩/٢

اخترت من كتاب احياء علوم الدين للغزالي الاحاديث التى خرجها ولم يضعفها زين الدين العراقي فى كتابه (الفنى) المطبوع على هامش الاحياء

جاءه رجل فوقف بين يديه وقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : حسن الخلق ، فاتاه من قبلي يمينه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه من قبل شماله فقال : يا رسول الله ما الدين قال : حسن الخلق ، ثم أتاه من ورائه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ فالتفت إليه وقال : أما تفقه ؟ هو ألا تغضب .

ويفهم من بعض أحاديثه أن سوء الخلق يمحى الحسنات ، ويبطل الطاعات فقد قيل له : أن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وهي سيئة الخلق ، تؤذى جيرانها بلسانها . فقال : لا خير فيها ، هي من أهل النار .

وقال : سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل .

وقال : إن العبد ليبلى من سوء خلقه أسفل درك جهنم .

وقال : الشؤم سوء الخلق (١) .

وبلغ من كلفه بمكارم الأخلاق أنه أطلق من السبي بنت حاتم الطائي مكافأة لكرم أخلاق أبيها ، فلما جاءت إلى النبي في سبأيا طيء فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلى عني ، ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإني بنت سيد قومي ، وإن أبي كان يحمي الذمار ، ويفك العاني ، ويشبع الجائع ، ويطعم الطعام ، ولم يرد طالب حاجة قط . أنا ابنة حاتم الطائي .

فقال صلى الله عليه وسلم : يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق ، وإن الله يحب مكارم الأخلاق .

(١) الاحياء ٢/٤٢

فقام أبو بريدة بن خيار فقال : يا رسول الله ، الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال الرسول : والذي نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق (١) .

كان صلى الله عليه وسلم مشغولاً بمكارم الأخلاق شغفه بتبليغ الرسالة وبطاعة الله وتقواه ، فكان المثل الأعلى في كل فضيلة ، وكان خليقاً بشيء الله سبحانه وتعالى عليه في كتابه الكريم ، كقوله : «وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (٢) وقوله : «فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (٣) وقوله : «فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تَبْصُرُونَ وَمَا لَا تَبْصُرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ» (٤) وقوله : «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» (٥) .

وحسبه من التشريف الإلهي أن الله تعالى أقسم بحياته في قوله : «لَعَمْرِكُ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» (٦) ولم يقسم الله بحياته أحد غير محمد عليه الصلاة والسلام .

وحسبنا من وصف أصحابه له قول على بن أبي طالب : إنه كان أجود الناس كناً ، وأجراً الناس قلباً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بدينه هابه ، ومن خالطه أحبه (٧) .

فلنشرع في السقيا من جداول نهري الزاخر بمكارم الأخلاق .

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | الاحياء ٣١٤/٢ |
| (٢) | سورة القلم ٤ |
| (٣) | سورة آل عمران ١٥٩ |
| (٤) | سورة الحاقة ٣٨-٤٠ |
| (٥) | سورة الاحزاب ٢١ |
| (٦) | سورة الحجر ٧٢ - يعمّهون : يترددون ضالين لا يهتدون |
| (٧) | سيرة ابن هشام ٤٢/٢ |

الفصل الثالث

الشجاعة

حقيقتها

عرض أرسطو لتعريفها فقال : إننا نخاف الأشياء التي من شأنها أن نخاف ، وهذه الأشياء هي الشرور ، فالخوف إذاً هو تصور الشر . سواء أكان عاراً أم فقراً أم مرضاً أم موتاً . غير أن الرجل الشجاع لا تظهر عليه الشجاعة ضد جميع الشرور بلا استثناء ، بل من الشرف أن يخاف بعض الشرور ، ومن المخجل ألا يخاف مطلقاً ، مثال ذلك العار ، فالرجل الذي يخاف العار رجل حقيق بالاحترام ، وذو شعور بالشرف . أما الذي لا يخافه فهو على الضد وقح شقي ، وإن سُمي شجاعاً أحياناً فهذا مجاز ، لأن فيه نوعاً من الشبه بالرجل الشجاع .

فما الشرور المخوفة التي تنطبق عليها الشجاعة في الحقيقة ؟

إنها الشرور العظمى ، لأنه لا يطيقها إلا الشجاع ، والموت أشدها إخافة .

ولكن الشجاعة لا تنحصر في مكافحة الموت في جميع الأحوال بلا تمييز ، بل تنحصر في مكافحة الموت في الحرب ، حيث يدافع المرء عن نفسه بشهامة ، وحيث يكون الموت شرفاً ومجداً^(١) .

(١) علم الاخلاق ٢٩٧/١

وسيتبين من شجاعة رسول الله أنها كانت أسمى من رهبة الموت في الدفاع عن النفس ، لأنها كانت في الدفاع عن النفس ، وعن الدين ، وعن الحق ، وعن الصحب ، وعن المثل العليا التي يدعو إليها .

فلم يكن شجاعاً فحسب ، بل كان المثل الأعلى في الشجاعة ، إذ كان شجاعاً في السلم ، وشجاعاً في الحرب ، وكان شجاعاً في وحدته ، وفي قلة من أنصاره ، وشجاعاً في جماعته ، وفي كثرة من أعوانه ، وكان شجاعاً في جهره بالحق ، وفي دفاعه عن العقيدة مهما تكن عاقبة الشجاعة .

وإذا كان التاريخ القديم والحديث قد سجل في صفحاته أسماء كثيرة من الشجعان الذين تضرب بشجاعتهم الأمثال ، فإنه لم يستطع أن يسجل لواحد منهم ما سجله لرسول الله من ضروب الشجاعة المثلى في مصادرها وفي مظاهرها وفي غاياتها ..

مصادرها

أما مصادر شجاعته فهي وراثته وفطرته وتربية الله له ، وحسبنا أن نذكر قوله تعالى « أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(١) »

وقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ

(١) سورة التوبة ٤١

والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعَهْدِهِ من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم (١) .

وقوله تعالى : «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) .

وقوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولَّوهُمْ الْأَذْبَارَ . وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٣) .

مظاهرها

أما مظاهر شجاعة الرسول فإنها متعددة الألوان متنوعة الضروب ، تجمعها شجاعة الرأى وشجاعة الحرب .

(١) شجاعة الرأى

لقد قضى حياته قبل البعثة ساخطاً على ما يرى من فساد العقيدة ، وضلال العقول ، وعمى القلوب ، وانحلال الأخلاق ، وكان قد شاركه فى بعض هذا السخط . معاصرون له هم الخنفاء ، لكن سخطهم لم يكن مثل سخطه ، وغيرتهم على كرامة الإنسان لم تكن مثل غيرته ، وتشوقهم إلى العقيدة الصحيحة لم يكن كشوفه .

(١) سورة التوبة ١١١

(٢) سورة آل عمران ١٦٩-١٧١

(٣) سورة الانفال ١٥-١٦ لانولهم الادبار : لانفروا منهزمين ، لان المهزوم يولى وظهره الى عدوه . متحرفاً : منعطفاً . متميزاً : منفضاً . باء : رجع

ثم اجتبه الله لرسائله ، فثبت على الدعوة إليها ثباتاً لا يتخلخل ، وغار على دينه غيره لا تتحول ولا تتبدل .

١ - فقد ضاقت قريش بدعوته إلى الإسلام ، وبتسفيه أحلامها ، وعيب آلهتها : فمشوا إلى عمه أبي طالب ، وقالوا له : إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإننا قد استنهيئك من ابن أخيك ، فلم تنه عنا ، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، حتى تكف عنا ، أو ننزله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ، فقال لمحمد : يا بن أخي إن قومك قد جاءوني ، فقلوا لي كذا وكذا . فأبى على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله أن عمه تخلى عنه ، وأنه خاذله ، وأنه قد ضعف عن نصرته . فقال : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .

ثم استعير رسول الله فبكى ثم قام ، فلما ولي ناداه أبو طالب ، فقال : أقبل يا بن أخي فأقبل عليه ، فقال : اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً (١) .

٢ - وعرض عتبة بن ربيعة على قريش - بعد أن أسلم حمزة بن عبد المطلب - أن يعرض على الرسول أمورا لعله يقبل بعضها فيكف عن دعوته ، فوافقته قريش ، فقام إليه عتبة فقال : يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والعلاء في النسب ، وإنك قد أتيت

(١) سيرة ابن هشام ٢٨٤/١ وتاريخ الطبري ٢٢٠/٢

قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها .
فقال له رسول الله : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر ما لا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك .
وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً^(١) تراه ولا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فلما فرغ عتبة قال له رسول الله : أقب فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال الرسول : فاسمع مني .

قال : أفعل .

فقال الرسول : بسم الله الرحمن الرحيم . «حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة^(٢) مما تدعونا إليه » ومضى رسول الله يقروها عليه ، وعتبة منصت وقد ألقى يديه خلف ظهره

(١) الرثى : ما يترامى للانسان من الجن
(٢) سورة فصلت ١٥ - أكنة : انغصية

معتمدا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله إلى آية السجدة من السورة :
فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، وأنت وذاك .
فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم
أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟
قال : سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . ، والله ما هو بالشعر ولا
بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين
هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت
منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على
العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .
قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم (١) .
٣ - ذكر عبد الله بن عمرو بن العاص أن أشراف قريش اجتمعوا يوماً
في الحِجْر ، فذكروا رسول الله وقالوا : لقد سفه أعلامنا ، وشم آباءنا ،
وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، ولقد صبرنا منه على أمر
عظيم . وبيناهم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ، فأقبل يمشي حتى استلم
الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت .

فلما مر بهم غمزوه ببعض القول - قال عبد الله بن عمرو : فعرفت
ذلك في وجه رسول الله - ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها -
قال عبد الله بن عمرو : فعرفت ذلك في وجهه - ثم مضى ، فمر بهم الثالثة ،

(١) سيرة ابن هشام ٣١٣/١

فغمزوه بمنثلها حتى وقف ، ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذي
نفس محمد بيده ، لقد جئتكم بالذبح . فأطرق القوم ، كأنما على رأس
كل منهم طائر واقع ، حتى إن أشدهم على الرسول وطأة قبل ذلك
ليَرْقُوهُ (١) بأحسن ما يجد من القول ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم
راشدا ، فوالله ما كنت جهولا .

فانصرف رسول الله ، حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا
معه ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ،
حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم في ذلك طلع عليهم
الرسول ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون : أنت الذي
تقول كذا وكذا ، لِمَا كان قد بلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، فقال
رسول الله : نعم ، أنا الذي أقول ذلك .

فرأيت رجلا منهم أخذ بمجامع رداءه ، وقام أبو بكر الصديق دونه
يقول وهو يبكي : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه ،
ورجع أبو بكر وقد صدعوا فوق رأسه من كثرة ما جذبوه بلحيته (٢) .

(٢) الشجاعة في الحرب :

وقد تجلت شجاعته الحربية منذ مطلع شبابه ، فإنه لما كان في الرابعة
عشرة أو الخامسة عشرة هاجت حرب الفجار (٣) بين قريش ومعهما

(١) يَرْقُوهُ : يسكنه ويهدئه

(٢) سيرة ابن هشام ٢١٠/١ وتاريخ الطبري ٢٢٣/٢ والاحيلى ٢٠١/٢ .

(٣) سميت فجارا لأنها كانت في الشهر الحرام ففجروا فيها جميعا

كِنانة وبين قيس عيلان ، وشهد رسول الله بعض وقائعها ، إذ أخرجه أعمامه معهم .

وحدث رسول الله بقوله : كنت أنبئ^(١) على أعمامى^(٢) .

ثم بعد النبوة كان يشارك في المواقع ، ويُقدِّم لإقدام البطل ، ويمارس ما يمارسه القائد الشجاع ، ويتعرض لما يتعرض له أتباعه وجنوده ، على حين أنه كان يستطيع أن يعنى نفسه من هذه المشاركة العملية اعتياداً على أنه النبي ، فيتوارى أو يتحصن أو يتخذ مكانه في مؤخرة الجيش ، ولو أنه فعل ذلك لكان له مندوحة لا يرقى إليها تثريب أو ملام ، ولو أنه آثر هذا المسلك لرضى المسلمون به مرضاة خالصة ، فقد كانوا يؤثرون رسول الله على أنفسهم ، ويشترون سلامته بلأرواحهم .

١ - ففي غزوة بدر تزاحف المسلمون والمشركون ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : إن اكتنفكم القوم فانصحوهم عنكم بالنبل .

وجعل يمدُّ الصفوف ، ثم دخل العريش وناشد ربه ما وعده من النصر ، وقال : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد . وأبو بكر يقول : يا نبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله مُنَجِّزٌ لك ما وعدك .

ثم خرج إلى الناس فحرضهم ، وقال : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة^(٣) .

(١) أنبل عليهم : ارد عليهم نبل مدوهم اذا رموهم بها
(٢) سيرة ابن هشام ١٩٨/١
(٣) سيرة ابن هشام ٢٧٩/٢

٢ - وفى غزوة أحد تجلت ألوان من شجاعته :

١ - حينما علم بمقدم قريش لحربه فى موقعة أحد ، قال لأصحابه :
إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا
بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها .

وكان عبد الله بن أبي بن سلول يرى هذا الرأى : وكان رسول الله يكره
الخروج ، ولكن جماعة من الصحابة آثروا الخروج . ولم يزلوا برسول
الله حتى دخل بيته ، فلبس لأمته وتقلد سيفه ، ثم خرج إليهم ، فندموا
وقالوا : استكرهنا رسول الله ، ولم يكن لنا ذلك . فلما خرج عليهم قالوا :
يا رسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد . فقال :
ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل ، ويحكم الله بينه وبين
عدوه . وخرج فى ألف من أصحابه (١) .

تتجلى هنا ضروب من الشجاعة : أولها فى تدبير الخطة والموازنة
بين قوة المسلمين وقوة قريش ، وإيثار أن يبقى المسلمون فى مدينتهم ،
ليدفعوا العدو المهاجم وهم أوفر منه قوة ، وأعز حصانة ، وأقدر على ملاقاته
وإن كانوا أقل . منه عددا وعدة ، ولا تثريب على قائد فى أن يقف مثل
هذا الموقف ، لأن الشجاعة تقتضى الهجوم تارة وتقتضى الارتداد تارة ،
وتكون فى المبادرة حيناً ، وتكون فى التريث حيناً آخر .

وثانيها فى الاستجابة لحماسة الكثرة التى آثرت الخروج من المدينة
للقاء قريش ، فإنه لم يكن بد من هذه الاستجابة والجدوة متقدة ، والعزيمة

(١) سيرة ابن هشام ٦٧/٣ وتاريخ الطبرى ١١/٣ وشرح الزرقانى على المواهب اللدنية ٢٤/٢

ملتهبة ، والنفوس متلهفة إلى الاستشهاد في الدفاع عن العقيدة وعن الوطن ، وإلا كانت هذه الحماسة عرضة لأن يخذلها البقاء واختلاف الآراء .

وثالثها مضاء النبي في عزمته ، ورفضه أن يستجيب لدعوة البقاء بعد أن أعد عدته ، ولبس لأمنته ، وإصراره على ألا يضعها حتى يقاتل أعداء الله ، فإنه بهذا الإصرار أذكى شجاعة الصحابة جميعاً ، من كانوا يؤثرون الخروج ، ومن كانوا يؤثرون البقاء ، وخرج بهم يقودهم إلى لقاء الأعداء .

ب - جعل على الرجال في يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - عبد الله ابن جُبَيْر وأقامهم في موضع ، وقال : إن رأيتمونا تحطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم .

وكان الموضع الذي أنزلهم به حماية لظهور المسلمين ، فعليهم أن يلزموه ، حتى إن رأوا المسلمين يقتلون فليس لهم أن يتحركوا لنجدتهم ، وإن رأوهم ينتصرون ويغنون فليس لهم أن يتركوا مواقعهم .

وقد انتصر المسلمون في أول المعركة ، حتى أسرع نساء المشركين بالهرب .

حينئذ قال أصحاب عبد الله بن جُبَيْر : الغنيمة الغنيمة ، لقد انتصر أصحابكم ، فماذا تنتظرون ؟

فقال عبد الله : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟

قالوا : لا ، والله لتأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فلما سارعوا

إلى الغنائم ، وتحولوا عن مواضعهم جعل رسول الله يدعوهم : يا عباد الله من كَرَّ فله الجنة .

ولكن نظامهم كان قد اضطرب ، وشاع فيهم أن النبي قد قتل ، وفر منهم من فر ، ولم يبق غير اثني عشر رجلا من المسلمين .

في هذا المأزق بقي النبي ثابتاً يجالده ، ويرى عن قوسه حتى صارت شظايا . روي البيهقي عن المقداد قوله : فو الذي بعثه بالحق ما زلتُ قدمه شبرا واحدا ، وإنه لفي وجه العدو ، تفيء إليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفترق عنه مرة ، وهو قائم يرمي عن قوسه ، ويرمي بالحجر^(١) ، حتى انحازوا عنه .

وفي هذه الموقعة كُسرت رِباعيته^(٢) ، وشُجَّ في وجهه ، وجرحت شفته ، وبال دمه على وجهه ، فكان يمسح الدم وهو يقول : كيف يفلح قوم خَضَبُوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم^(٣) ؟ .

ثم صلى الظهر قاعدا من الجراح التي أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعودا^(٤) .

جـ- لما لم يظفر المسلمون في تلك الغزوة ، نهضوا نحو الشَّعب ، ونهض معهم رسول الله وأبو بكر وعمر وعليّ وطلحة والزبير ، فمشى إليهم أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ وهو يقول : أَيْ مُحَمَّد ، لَا نَجُوتُ إِنْ نَجُوتَ .

(١) كان العرب يتقاتلون أحيانا برمي الأحجار . الحيلة المرببة من الشعر الجعلى : ٢٤٣-٢٦٤ أحمد الحوفي .

(٢) الرباعية التي بين الناب والثنية

(٣) سيرة ابن هشام ٨٤/٣ وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٣٥/٢ وفتح المبدى ٣٢٧/٢

(٤) سيرة ابن هشام ٩٢/٣

فقال الصحابة : يا رسول الله ، أيعطف عليه رجل منا ؟

فقال : دعوه .

فلما دنا منهم أبى تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة ، فانتفض بها انتفاضة ، ثم استقبل أبيتاً قطعته في عنقه طعنة قلبته عن فرسه ، فمات من أثرها وهو في طريقه إلى مكة (١) .

د - لم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بموقف البطولة الذي رمى فيه عن قوسه حتى اندق طرفها ، فجعل يناول سعد بن أبي وقاص النبل وهو يقول : ارم فذاك أبى وأمى (٢) .

بل حول انتصار المشركين الموقوت إلى رهبة من المسلمين ، وتوقع للشار القريب ، وبهذا أضعف قوى الخصوم ، وقوى ضعف المسلمين ، وبشرهم بنصر قريب .

وذلك أنه بعد الموقعة نادى أبو سفيان : إن موعدكم بدر للعام القابل ، فقال رسول الله لرجل من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث على بن أبي طالب فقال : اخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جئوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم .

قال على : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجئوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، وتوجهوا إلى مكة (٣) .

(١) سيرة ابن هشام ٨٩/٣

(٢) سيرة ابن هشام ٨٧/٣

(٣) سيرة ابن هشام ١٠٠/٣

ثم عاد الرسول إلى المدينة ، فناول سيفه ابنته فاطمة وقال :
اغسلي عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقني اليوم (١) .

وقد جاء ذكر هذه الخرجة في قوله تعالى : « الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ
وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ .
الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ، فَخَشَوْهُمْ ، فزَادَهُمْ إِيمَانًا ،
وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَاَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ
سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَاكُمُ الشَّيْطَانُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢) » .

هـ - ثم نمتد النبي وعيده في العام التالي لأحد ، فخرج ايلقى أبا سفيان
في بدر الآخرة ، وأقام ثمانى ليال ينتظره ، وكان أبو سفيان قد خرج
في أهل مكة حتى نزل مَجَنَّة ، ثم بدا له أن يرجع ، فرجع هو ومن معه ،
وأقام النبي على بدر ينتظر أبا سفيان ، فلما لم يجيء عاد إلى المدينة (٣) .

٣ - قالت السيدة عائشة : كان رسول الله في غزوة الخندق يتردد
على ثُلَمَة في الخندق يحرسها بنفسه ، حتى إذا آذاه البرد جاعنى فأدفاته ،
فإذا دَفَع عاد إلى تلك الثلثة يحرسها ، ويقول : ما أخشى أن يؤتى الناس
إلا منها (٤) .

(١) السيرة ١٠٦/٣

(٢) سورة آل عمران ١٧٢-١٧٥ القرح : الجراح . قال لهم الناس : نفر من عبد القيس
أرسلهم أبو سفيان إلى المسلمين ليشطوهم .
يخوف أوليائه : أولئك الرهط الذين اتى الشيطان على أفواههم ما يرهبكم به من
أعدائه .

(٣) سيرة ابن هشام ٢٢٠/٣

(٤) كتاب المغازى ٤٦٣

٤ - في سنة ثمان بعد الفتح خرج النبي للقاء هوازن وثقيف وغيرهم في غزوة حنين ، فلما اقتربوا من وادي حنين انحدروا في متسع منحدر ، وفي عماية الصبح كان القوم قد سبقوهم إلى الوادي ، فكمنوا في شعابه وأحناؤه ومضايقه ، فشدوا على المسلمين ، فانهزموا راجعين إلا قليلا منهم ، لا يلقى أحد على أحد .

ولكن الرسول انحاز ذات اليمين وكان على بغلته البيضاء ، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث يقودها به ، وكان النبي ينادي : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، أيها الناس ، هلموا إلى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، ولكنهم شغلوا باضطرابهم ، وحملت الإبل بعضها على بعض ، فانطلق الناس ، إلا نفرا من المهاجرين والأنصار ثبتوا مع رسول الله ، فقال الرسول : يا عباس ، اصرخ : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمر ، فأجابوا : لبيك لبيك ، فكان الرجل يذهب ليثنى بغيره ، فلا يقدر ، فيأخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بغيره ، ويخلى سبيله ، فيوم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا حتى انتصر المسلمون (١) .

وقد سئل البراء بن عازب : أفررت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله لم يفر ، إن هوازن كانوا قوماً رماة ، فلما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم ،

(١) كتب البخاري للواقدي ٩٠٠ وسيرة ابن هشام ٨٥/٤ والسيرة الحلبية ١٢٤/٣ واللؤلؤ والمرجان ٢٦٠/٣

واستقبلتنا هوازن بالسهم ، فأما رسول الله فلم يفر ، فلقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بلجامها ، والنبي يقول : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب^(١) .

٥- ومن مظاهر شجاعة رسول الله أنه كان يطلق على أسلحته وعدده الحربية أسماء تميزها ، وألقاباً تدل عليها ، لأنه يشعر نحوها بعطف ومودة وإعزاز ، كأنها هي أنا سي من جنوده الأوفياء وأعوانه الأصدقاء . فرايته التي يحضر الحرب بها اسمها العقاب^(٢) .

وسيفه الذي لم يفارقه في حرب من الحروب اسمه ذو الفقار^(٣) ، وله سيوف أخرى هي المِخْذَم^(٤) ، والرُّسُوب^(٥) ، والقَضِيب^(٦) ، والقَلْعَى^(٧) ، والبِتَار^(٨) ، والحَتَف^(٩) ، والعَضْب^(١٠) ، والصَّنْصَامَة^(١١) . وأسماء قسيه السِّدَاد ، والكُتُوم ، والرُّوحَاء ، وشَوْحَط^(١٢) . وكنانة سهامها الجُمُع^(١٣) .

-
- (١) فتح المبدي ٢/٣٠٨
 (٢) العقاب طائر من كواصر الطير قوى المخالب حاد البصر
 (٣) كان في وسطه مثل قنرات الظفر
 (٤) المِخْذَم : القاطع
 (٥) الذي يرسب ويستقر في الضريبة
 (٦) القَضِيب : القاطع
 (٧) نسبة الى برج القلعة وهو موضع بالبلاية
 (٨) البِتَار : الشديد القطع
 (٩) الحَتَف : الهلاك
 (١٠) العَضْب : القاطع
 (١١) الصَّنْصَامَة : السيف الذي لا ينتهي
 (١٢) السِّدَاد : المصيبة الموقفة . الكتوم : التي لا صدع ولا شق في نبعها ابو هي المنخفضة الصوت عند الرمي بها . الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين ميلا من المدينة . الشَوْحَط : شجر بالجبال تنخل منه القسي .
 (١٣) الجُمُع : العظمة أو المثقلة أو المستورة

وحربته اسمها النُّبْعَة ، وله أُخرى يقال لها البيضاء ، وثالثة صغيرة تشبه العكاز يقال لها العَنْزَة .

ومجنُّه اسمه الدَّفَن (١) .

وتُرسه اسمه الموجز ، وله آخر اسمه الزَّلُّوق ، وثالث اسمه فُتُق (٢)

ومن رماحه المَثْوَى (٣) والمُثْنَى (٤) .

وأذراعه ذات الفضول (٥) ، والْفِضَّة ، وذات الوِشاح ، وذات الحواشي ، والسُّغْدِيَّة أو السَّعْدِيَّة ، والبِتْرَاء (٦) ، والخَرْنِق (٧) .

وأسماءُ أفراسه السَّكَب (٨) ، وقد اشتراه من أعرابي وكان اسمه عند صاحبه الضَّرْس (٩) فغير رسول الله اسمه ، واللِّزَّاز (١٠) ، واللَّخِيف أو اللُّخِيف (بالحاء والحاء (١١)) والورد (١٢) ، والطَّرْف (١٣) ، وسَبَّحَة (١٤) .

(١) الدفن : الستر والاختفاء ، فلعل المراد أن المجن يستر صاحبه وفي السيرة الحلبية أنه الدفن كان له رأس معقوفة كالصولجان ، وفي القاموس أن الدفن مجتمع اللحيين من أسفلها

(٢) الزلوق : لأن السلاح ينزلق عنه . فتق : ضبط الكلمة مؤلف السيرة الحلبية بضم الفاء وفتح التاء ولم يشرحها ، وفي القاموس المحيط أن الفتق بضم الفاء والتاء موضع بالطائف .

(٣) لأنه يشوى المطعون به ويقيم موضعه فلا يتحرك

(٤) أى المثنى عليه .

(٥) ذات الفضول : ذات الطول

(٦) البتراء : القصيرة .

(٧) الخرنق : الناعمة .

(٨) شبه بسكب الماء وانصبابه لشدة جريه

(٩) الضرس : الصعب السوء الخلق .

(١٠) اللزاز : الذى يلحق بالملوب لسرعته

(١١) اللخيف بالحاء على وزن امير وزبير لانه يلحف الأرض بذي له طول له أى يغطيها . وبالغاء الذى يجرى بشدة

(١٢) الورد : الذى لونه بين الكميث والاشقر

(١٣) الطرف : الكريم الجيد

(١٤) سبحة : سريع

وبغلته اسمها الشهباء ، واسمها الدُّلُّ ، وهي التي ركبها في غزوة حنين (١) .

وناقته اسمها القصواء أو العطاء أو الجدعاء (٢) .
وهكذا يتبين من تلك الأسماء ومن غيرها أن النبي لم يترك عدة من عدده الحربية إلا سماها (٣) .

٦ - كذلك كان يحذب على خيله ويعزها ، حتى إنه مسح وجه فرسه ومنخريه وعينه بهكم قميصه ، فقليل له ؛ يا رسول الله تمسح بكم قميصك ؟ فقال : إن جبريل عاتبنى في الخيل .
وذكر أنه في غزوة تبوك قام إلى فرسه الطرف فعلق عليه شعيرة ، وجعل يمسح ظهره بردائه ، فقليل له يا رسول الله تمسح ظهره بردائك ؟ فقال : نعم ، وما يدريك لعل جبريل أمرني بذلك .
وقال : الخيل معقود بنواصيها الخير .
وكان يُضَمَّرُ الخيل للسباق ، ويأمر بإجرائها كل يوم شوطاً وشوطين (٤) .

الغاية منها

وأما الغاية من شجاعته فإنها أعلاء كلمة الله ، والدفاع عن التوحيد الخالص ، وحماية الإسلام من عدوان المشركين ، وتحرير الناس من أغلال

(١) السيرة الحلبية ١٢٤/٣ الشهباء : بيضاء مسودة . الدللة : تحريك الراس والأعضاء في المشي .

(٢) القصواء : التي قطع قليل من طرف أذنها . العطاء : التي شقت أذنها . الجدعاء : التي قطعت أذنها . وهذه القاب لنافذة رسول الله ولم تكن قصواء ولا عطاء ولا جدعاء (القاموس المحيط مادة جدع ، وفتح المبدى ٣٠٩/٢)

(٣) السيرة الحلبية ٣٦٦/٣ وتاريخ الطبري ١٨٢/٣ والاحياء وعاشه ٢٣٤/٢ ، والقاموس المحيط .

(٤) السيرة الحلبية ٣٦٨/٢ .

الوثنية ، وأوهاق الاستعباد ، وأصفاد الفساد ، ومخازي العقائد والنظم ، ومناسد الأخلاق ، لتحل محلها أسمى عقيدة وأصلح نظام في السياسة والإدارة والمعاملات والاجتماع .

كانت شجاعة رسول الله بالحق وفي نصرة الحق ، فلم تلبس لبوس الغرور أو الكبرياء أو المياهاة أو الاستعلاء ، ولم يتصل بها جبروت أو شره إلى التوسع ، أو طمع في سلطان أو استيلاء .

جاء رجل إلى النبي فقال : يا رسول الله ما القتال في سبيل الله ، فإن ألدنا يقاتل غَضَباً ويقاقل حَمِيَةً ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١) .

وأقرب إليه أعرابي فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٢) .

فلم تكن الشجاعة التي اتصف بها النبي ، والتي حرص عليها ، وأقرها وامتدحها ، شجاعة القوى المقدام المدلل بقوته ، المفاخر بها بين الناس ، ولا شجاعة الثائر المحتاج الذي أشعله الغضب لغير حق ، بل كانت الشجاعة المثلى التي لا تتوخى غير إعزاز دين الله ، وإعلاء كلمته ، والذود عن محارمه ، والدفاع عن الحقوق التي صانتها الشريعة وحمتها ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد (٣) .

(١) فتح البدي ١١٩/١

(٢) الاحياء ٣٢٩/٤

(٣) فتح البدي ٢٤٠/٢

وكانت الغاية النبيلة تقضى بأن تكون الوسائل نبيلة ، فقد عرض عليه الانتصار بالمشركون على المشركين ، وهو في قلة من الأعوان وحاجة إلى فرد واحد يزيد عدد من معه ، فأبى ، وقال : لا أنتصر بمشرك (١) .

الإشادة بشجاعته

لقد كان المسلمون يُعجبون بشجاعة رسول الله إعجاباً يصغر في عيونهم شجاعتهم ، ويهونُ بسالتهم .

يقول الإمام علي : كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو .

ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ، وهو أقربنا إلى العدو ، فكان يومئذ أشدنا بأساً (٢) .

ويقول أنس بن مالك : كان النبى أشجع الناس ، فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق بعضهم نحو الصوت ، يريدون أن يتعرفوا الخبر ، فإذا النبى عائد على فرس ما عليه سرج ، وفى عنقه سيفه ، وكان قد سبقهم إلى الخروج فعرف الصوت ، فلما قابلهم قال لهم : لن ترأعوا ، ان ترأعوا (٣) .

وقال عبد الله بن عمر : ما رأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرى من رسول الله .

وقال عمران بن حصين : ما لقي رسول الله كتيبة إلا كان أول من يضرب .

(١) الاحياء ٢/٢١٦

(٢) الاحياء ٢/٢٣٨

(٣) تاريخ الطبرى ٢/١٨٦

وقال البراء : كان رسول الله إذا تشمر للقتال أشد الناس بأساً ،
وكان الشجاع منا هو الذى يقترب منه فى الحرب ، لشدة قربه من
العدو (١) .

حُضه على الشجاعة

كان النبى قدوة المسلمين فى شجاعته الحربية وغير الحربية ، وكان
يحثهم على الشجاعة ، ويحببها إليهم بأقواله ، ويوضح لهم الغاية
النبيلة التى يجب أن يتوخوها فى جهادهم ، وله فى هذا المجال أحاديث
كثيرة ، منها :

- ١ - من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ،
ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد (٢) .
- ٢ - أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر (٣) .
- ٣ - إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعصم الله
بعقاب منه (٤) .
- ٤ - قيل : يا رسول الله أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله : مؤمن
يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله (٥) .
- ٥ - مثل المجاهد فى سبيل الله - الله أعلم بمن يجاهد فى سبيله -

(١) الاحياء ٢٣٨/٢

(٢) فتح المبدى ٢٤٠/٢ والجامع الصغير ٢٨٧/٢

(٣) الجامع الصغير ١٦١/١ والاحياء ٢٠٠/٢

(٤) الجامع الصغير ٢١٤/١

(٥) فتح المبدى ٢٩٢/٢

كمثل الصائم القائم ، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة (١) ! .

٦ - إن في الجنة مئة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض (٢) .

٧ - لَعَذُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا (٣) .

٨ - والذي نفسى بيده لا يكلم أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله - إلا جاء يوم القيامة وجرحه ينضب دماً . اللون لون الدم ، والريح ريح المسك (٤) .

٩ - جاء رجل إلى النبي فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟

قال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

١٠ - ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي .

١١ - لا يعجزن أحدكم أن يلهو بأسهمه : من ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها .

١٢ - لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية . ولوددت أن أقتل في سبيل الله ، ثم أحيى ، ثم أقتل (٥) .

(١) فتح المبدي ٢٩٣/٢ أى مثل الصائم نهاره القائم ليله ، وتوكل الله أى تكفله .

(٢) فتح المبدي ٢٩٤/٢

(٣) فتح المبدي ٢٩٤/٢

(٤) فتح المبدي ٢٩٧/٢ لا يكلم : لا يجرح . والله أعلم بعظم شأن من يجرح في سبيله ، أو هو تنعيم للصيانة عن الرياء والسمعة وتنبه على الاخلاص في الجهاد ، وأن الثواب لمن أخلص فيه وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا .

يشعب : يجرى

(٥) فتح المبدي ٦٦/١

١٣ - إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (١) .

١٤ - قال في يوم بدر : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة (٢) .

١٥ - مَنْ أَحْسَنَ الرِّمَى ثُمَّ تَرَكَهُ فَقَدْ تَرَكَ نِعْمَةً مِنَ النِّعَمِ (٣) .

١٦ - لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تتجنبوا إماعتهم (٤) .

(١) فتح المبدى ١٢/١ وكنز العمال ٨٧/٢

(٢) تاريخ الطبرى ٢٨١/٢

(٣) الجامع الصغير ٣٤٢/٢

(٤) تيسير الوصول ٣٧٨/٣ الامعة : الذى لا رأى له

الفصل الرابع

الكرم

الكرم والجود والسخاء : الإنفاق عن رضا فيما يعظم نفعه وخطره ،
أو بذل المال في سبيل من سبل الخير والبر .

وقد ذكر القاضى عياض أن هذه الألفاظ متقاربة المعاني ، وقال إن بعضهم فرق بينها ، فجعلوا الكرم ، الإنفاق بطيب النفس ، وسموه حرية ، وهو ضد النذالة ، وإن السخاء سهولة الإنفاق ، وتجنب اكتساب ما لا يحمد ، وهو الجود ، وهو ضد التقدير ، وإن الساحة التجافى عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس ، وهى ضد الشكاية^(١) .

ولكن هذه تفرقة فيها تعسف وتكلف ، لأن اللغة لا تقرها^(٢) .

وقد كان الكرم من سجايا النبي عليه الصلاة والسلام فطرة وتربية .
إلهية وتوجيهاً من القرآن ، إذ كان الكرم - بمعنى البذل في سبيل الخير والحق - وما زال وسيلة من وسائل القوة والتعاون والتواد والأمن والصلاح .
لهذا تردد الأمر بالبذل والنهي عن البخل في القرآن الكريم .

فمن حض القرآن الكريم على البذل في سبيل الله قوله تعالى : « مَنْ

(١) الشفا ١/ ٨٥ .

(٢) المعاجم اللغوية على أن الكرم والجود والسخاء معانيها واحدة .

ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ . وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١) .

وقوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢) » .

وقوله سبحانه : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ، فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣) » .

وقوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٤) » .

وقوله سبحانه : « إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْ لَكُمْ وَلِلَّهِ شُكْرٌ حَلِيمٌ (٥) » .

ومن نهى القرآن عن البخل ووعده للأشحَاء عن الإنفاق في سبيل الله قوله تعالى : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لِمَنْ يَبْخُلُ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، سَيُطْرَقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٦) » .

وقوله سبحانه : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى

(١) سورة البقرة ٢٤٥

(٢) سورة البقرة ٢٥٤ خلة : صداقة

(٣) سورة البقرة ٢٦١

(٤) سورة آل عمران ٩٢

(٥) سورة التباين ١٧ .

(٦) سورة آل عمران ١٨٠

بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فلوقوا ما كنتم
تكنزون (١) .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٢) .

خصائص كرمه

لم يُشغف العرب في الجاهلية والإسلام بأكثر من شغفهم بالشجاعة
والكرم ، فكان الأمراء والملوك أشد ما يكونون حرصاً على أن يذيع في
الناس كرمهم وشجاعتهم ، وكان شعراؤهم يشيدون بفعالهم ، ويختصون
هاتين الفضيلتين بالتنويه ، محقين حيناً ، ومبطلين حيناً ، ومبالغين
أحياناً .

ولم ينفر العرب في الجاهلية والإسلام من نقائص نفورهم من الجبن
والبخل ، ولم يعير خصم خصمه بأقبح من هاتين الرذيلتين ، حتى لقد
تجنى بعض الشعراء على خصومهم ، فعيروهم بالجبن والبخل ، وهم في
الحقيقة أصحاب بلاء وسخاء .

لكن كرم النبي عليه الصلاة والسلام كان لوناً آخر جديداً لم يعرفه
العرب ، ولم يألّفه غيرهم .

١ - فلم يكن جوده لكسب محمّدية أو اتقاء منقصة ، ولم يكن للمباهاة
أو الاستغلال أو لاجتذاب المادحين ، بل كان في سبيل الله ، وابتغاء مرضاة
الله .

(١) سورة التوبة ٣٤-٣٥

(٢) سورة الحشر ٩

كان في حماية الدين ، وفي موازنة الدعوة ، وفي محاربة الذين يصدون عن سبيل الله .

وكان في الإنفاق على الفقراء من المسلمين الذين فقدوا أموالهم في سبيل الله ، أو عجزوا عن الكسب .

وكان في رعاية اليتامى والأيتام .

وكان في تحرير الأرقاء الذين كاتبوا مالكيهم على مال .

وكان في اجتذاب من يرى تألف قلوبهم من غير المسلمين ، ليتقوى باجتذابهم الإسلام .

٢ - وكان كرم النبي إيثارا على نفسه وأهله ، فهو يعطى أحوج ما يكون إلى ما يعطيه ، ويبذل الكثير وهو محتاج إلى القليل ، لأنه يستطيع أن يصبر ، ولأنه يحيا حياة الزهاد ، ولأنه الملاذ الرفيق والأب الشفيق الذي تشغله حاجات بنيته أضعاف ما تشغله حاجات نفسه .

وهذه هي الدرجة العليا من الكرم التي امتدحها الله تعالى في قوله : « وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (١) » .

لهذا قالت السيدة عائشة : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكن كنا نوثر على أنفسنا (٢) .

وسنعرف في فصل (الزهد) أنه كان يؤثر على نفسه وأولاده ، فيعطى عطاء يعجز عنه الملوك ، ويعيش هو عيشة الفقراء ، فيأتي عليه الشهر

(١) سورة العنكبوت ٩ خصامة : حاجة شديدة

(٢) الاحياء ٢/٢٢٣

والشهران لا يوقد في بيته نار ، وربما ربط. الحَجَر على بطنه الشريف من الجوع^(١).

٣ - وكان ينفق في سبيل الله ما استطاع أن ينفق ، وهو يستقل ما أنفق ، وكان يعطي العطاء الجزل ، فلا يستكثر ما أعطى ، وما سئل عن شيء قط. على الإسلام إلا أعطاه ، وما سئل شيئاً قط. فقال لا .

أتاه رجل فسأله ، فأعطاه غنماً سَدَّتْ ما بين جبلين ، فرجع إلى قومه وقال : : أَسْلِمُوا فَإِن مُحَمَّدًا يعطي عطاءً من لا يخشى الفاقة .

وحمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسّمها ، فما رد سائلاً حتى فرغ منها .

ولما قفل من حُنَيْنِ جاءه الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى شجرة ، فخطفت رداءه ، فوقف وقال : أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه الأعضاء^(٢) نَعَمًا لقسمتها بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً^(٣) .

وأُتِيَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ ، فقال : انثروه في المسجد ، وكان أكثر مال أُتِيَ بِهِ ، فخرج إلى الصلاة ، ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه وما قام وثم منها درهم^(٤) .

٤ - وبلغ به الكرم أنه كان يستحي أن يرد سائله خالي اليدين معتذراً بالفاقة .

(١) شرح الزرقاني ٣٠٢/٤

(٢) الأعضاء : شجر شائك كثير في الصحراء

(٣) فتح المبدى ٢٣٩/٢ والاحياء ٢٣٧/٢ وصحيح مسلم ٧٢/١٥

(٤) فتح المبدى ١٩٨/١

جاءه رجل فسأله ، فقال : ما عندى شئٌ ، ولكن ابتعْ عليَّ ، فإذا جاءنا شئٌ قضيناه .

فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ، قد أعطيتَه من قبل ، فما كلفك الله ما لا تقدر عليه .

فكره النبي ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله : أنفق ، ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً ، فتبسم النبي ، وعُرفَ البِشْرُ في وجهه ، ثم قال : بهذا أُمِرْتُ^(١) .

مظاهر كرمه

تعددت مظاهر هذا الكرم في ألوان ومناسبات شتى ، منها ما سبق في خصائصه ، ومنها :

١ - قال جابر : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يجالس أتابه صبي ، فقال : إن أمي تستكسيك درعاً^(٢) ، فقال رسول الله ، من ساعة إلى ساعة يظهر ، فعُدْ إلينا .

فذهب الصبي إلى أمه فتأملت له : عد إليه ، فقل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك .

فدخل رسول الله داره ، ونزع قميصه ، وأعطاه الصبي ، وقعد غرياناً ، وأذن بلال ، وانتظر المسلمون ، فلم يخرج النبي للصلاة^(٣) .

(١) المواهب اللدنية ٢٠٩ ، والاحياء ٢/٣٢٧ .

(٢) الدرع : القميص .

(٣) الكشف ١/٥٤٦ .

٢ - أئته امرأة بئردة فقالت : يا رسول الله ، أكسوك هذه ، فأخذها وهو محتاج إليها فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة ، فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذه ، فأكسنيها ، فقال : نعم .

فلما قام النبي لام الصحابة الرجل ، وقالوا له : إنك تعرف أن النبي محتاج إليها ، وأنه لا يُسأل شيئاً فيمنعه .

٣ - أعطى الأقرع بن حابس مئة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حصن مثلها ، فجاء عباس بن مرداس فقال :

أتجعل نهي ونهب العبيد لدين عيينة والأقرع^(١)
وما كان حصن ولا حابس يفوقان جدى في مَجْمَع
وما كنتُ دون امرئٍ منهما ومن تَضَع اليوم لا يُرْفَع

فقال رسول الله : يا أبا بكر اقطع لسانه عني ، أعطه مئة من الإبل^(٢) .

٤ - في مسيرة رسول الله إلى نجد يريد بني مُحارب وبني ثعلبة من غطفان ، حَدَّث جابر بن عبد الله قال : خرجت مع رسول الله على جمل لي ضعيف ، فلما عدنا جعلت الرفاق تمضي وجعلت أتخلف ، حتى أدركني رسول الله فقال : مالك يا جابر ؟ قلت : يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا ، قال : أنيخه ، فأنخته وأناخ رسول الله ناقته ، ثم قال : أعطني هذه العصا من يدك ، ففعلت ، فأخذها فنخس الجمل بها نخسات ، ثم قال : اركب ، فركبت ، فصار جملي يسابق ناقة الرسول .

وتحدثت معه فقال لي : أتبيعي جملك هذا يا جابر ؟ قلت : يا رسول

(١) النهب : المراد الفتيمة . العبيد : اسم لفرسه .

(٢) الكشاف ١/٤٢هـ

الله ، بل أَهْبَهُ لَكَ ، قال : لا ، ولكن بعنيه ، فقلت : سَمُهُ يا رسول الله ، قال : بِدَرَمٍ ، قلت : لا ، إذن تغبني يا رسول الله ، قال : بدرهمين : قلت : لا ، فلم يزل يرفع لي في ثمنه حتى بلغ الأوقية ، فقلت : أفقد رضىت يا رسول الله ؟ قال : نعم ، قلت : فهو لك ، قال : قد أخذته .

ثم أصبحت فأنخت الجمل على باب رسول الله ، وجلست في المسجد قريباً منه ، فخرج فرأى الجمل ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا جمل جاء به جابر ، قال : فأين جابر ؟ فدُعيتُ له فقال : يا بن أختي ، خذ جملك فهو لك ، ودعا بلالا فقال له : أعط جابراً أوقية ، فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً (١) .

٥ - قالت الربيع بنت مَعُوذ : أتيت النبي بَقِنَاعٍ (٢) من رُطَبٍ وأَجْرٍ زُغْبٍ (٣) ، فأعطاني مِءَةً كفه حُلِيّاً وذهباً .

وذلك أنه كما قالت السيدة عائشة كان يقبل الهدية ويثيب عليها (٤) .

٦ - كان أحب الطعام لإليه ما كان على ضَفَفٍ ، أى ما كثرت عليه الأيدي (٥) .

٧ - وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة ، لا يمسك شيئاً .

(١) سيرة ابن هشام ٢٦٧/٣

(٢) قناع : طبق من عشب النخل توضع فيه الفاكهة

(٣) أجْر : جمع جرو وهو الكلب الصغير ، شبهت بها القثاء الصغيرة في لينها ونمومتها زغب : عليها زغب وهو الشعر القصير .

(٤) الواهب اللدنية ٢١٠ ، والشفا ٨٧/١

(٥) الاحياء ٢٢٦/٢

وقد وصفه على بن أبي طالب بقوله : كان أجود الناس كفاً^(١) .

٨ - تعددت مظاهر كرمه حتى قبل البعثة ، قالت السيدة خديجة :
إنك لتصل الرّجيم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المُعْدِم ، وتُقرّي الضيف ،
وتُعين على نوائب الحق^(٢) .

حضه على الكرم

لطالما حض النبي على الكرم بمعناه الذي يرتضيه الإسلام ، من بذل .
في تقوية الجيش ، أو في الدفاع عن الدعوة ، أو في البر بالفقراء .
من هذا قوله :

١ - قال رجل للنبي أي الصدقة أفضل ؟ قال : أن تتصدق وأنت
صحيح حريص ، تأمل الغني وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت
الحُلُقُومَ قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان^(٣) .

٢ - سأل رجل النبي : أي الإسلام خير ؟ - يريد أن يعرف أي
خصال الإسلام خير - فقال له : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من
عرفت ومن لم تعرف^(٤) .

٣ - عدّ من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم القيامة رجلاً تصدق
فأنخني ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه^(٥) .

(١) سيرة ابن هشام ٤٢/٢ ، والاحياء ٢٣٢٧/٢ .

(٢) الشفا ١٠٠/١ .

(٣) فتح المبدى ٢٨٩/٢ .

(٤) فتح المبدى ٤٩/١ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان ٢٤٥/١ .

٤ - قال لَأَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ : أَنْفَقِي وَلَا تُنْهِي فَيُخْصِي اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ (١) .

٥ - السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَالبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ (٢) .

٦ - مَا مِنْ يَوْمٍ يَصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانُ يَنْزِلَانِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مَنْتَقِماً خَلَفْنَا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفْنَا (٣) .

٧ - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ : بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ ، فَجَعَلَ يَصْرِفُهَا يَمِيناً وَشِمَالاً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : مَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ زَادَ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي الْفَضْلِ (٤) .

٨ - إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ (٥) .

٩ - إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الشُّحُّ ، أَمَرَهُمْ بِالْكَذِبِ فَكَذَّبُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا (٦) .

١٠ - مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوْذُ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ

(١) اللؤلؤ والمرجان ٢٤٤/١

(٢) تيسير الوصول ٨٨/٢

(٣) صحيح مسلم ٩٥/٧

(٤) تيسير الوصول ٩١/٢ والمنتخب من السنة ٢٢٤/٧ عن مسلم ومسنَد أحمد .

(٥) الاحياء ٢١٨/٣

(٦) الاحياء ٢١٨/٣

يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت^(١) .

١١ - اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس من أهله ، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فانت من أهله^(٢) .

١٢ - إن الله تعالى يبغض البخيل في حياته السخى عند موته^(٣) .

١٣ - تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم^(٤) .

١٤ - العائد في هبته كالكلب بقيء ، ثم يعود في قيئه^(٥) .

١٥ - إذا طبختم اللحم فأكثروا المرق ، فإنه أوسع وأبلغ للجيران^(٦) .

١٦ - شر الطعام طعام الوليمة يُمنعها من يأتيها ، ويُدعى إليها من يابأها^(٧) .

١٧ - شر الطعام طعام الوليمة يُدعى إليها الشبعان ، ويعبس عنها الجائع^(٨) .

١٨ - ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه^(٩) .

١٩ - قال عوف بن مالك : قلت يا رسول الله : الرجل أمر به فلا يقريني ، ثم يمر بي ، أفأجازه ؟

قال : بل أقره^(١٠) .

(١) فتح المبدى ٣٠٤/٣

(٢) الاحياء ٢١٣/٢

(٣) كنز العمال ٩٢/٢

(٤) الاحياء ٢٠٣/٢

(٥) فتح المبدى ٢٥٦/٢

(٦) الجامع الصغير ٧٤/١

(٧) الجامع ٣٠/٢

(٨) الجامع ٣٠/٢

(٩) الجامع الصغير ٢٧٥/٢

(١٠) تيسير الوصول ٢٨٩/٢ يقريني : يضيفنى ويكرمنى

الفصل الخامس

العدل

ما العدل

عرف العدل ابن مسكويه بأنه فضيلة للنفس تحدث من اجتماع الفضائل الثلاث : الحكمة والعفة والشجاعة ، وذلك عند مسألة هذه القوى بعضها لبعض ، واستسلامها للقوة المميزة ، حتى لا تتغالب ولا تتحرك نحو مطالبها على سِرْم طبائعها ، ويحدث للإنسان بها سمة يختار بها أبدا الإنصاف من نفسه على نفسه أولا ، ثم الإنصاف والإنصاف من غيره وله (١) .

والمراد بالعدل هنا إعطاء كل ذي حق حقه بغير تفرقة بين المستحقين ، ومراعاة المسمى أو المقصود على قدر إيسارته وتقديره بدون إعانات أو محاباة . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل في كثير من الآيات : مثل قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا » (٢) .

وأمر بالعدل حتى مع الأعداء ، ونهى عن الظلم خضوعاً للبغضاء ،

(١) تهذيب الأخلاق ١٥ لابن مسكويه .

(٢) سورة النساء ٥٨

فقال سبحانه : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ . وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَتُقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » (١) .

وأمر بالعدل بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إلى المسلمين ، قال تعالى : «وإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» . إلى قوله تعالى : «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ . فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ » (٢) .

مظاهره

استقى النبي العدل من التربية الإلهية والأخلاق القرآنية ، وكانت فطرته السليمة مهية للعدل منذ شبابه ، فقد اشترك في حلف تعاهد أصحابه على مقاومة الظلم وإنصاف المظلومين .

وذلك أن قبائل من قريش (٣) تداعت إلى حلف الفضول (٤) قبل البعثة بعشرين سنة ، وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا قاموا معه وناصروه على ظالمه حتى ينصفوه .

وقد شهد النبي هذا الحلف ، وقال : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم (٥) ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت (٦) .

(١) سورة المائدة ٨ لايجرمكم شَنَاَنُ قَوْمٍ : لايحلمكم بفضكم لهم

(٢) سورة المائدة ٤٨-٤٢

(٣) من بني هاشم وبني المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة .

(٤) سموه بذلك لأنهم تعاهدوا على أن يردوا الفضول على أهلها .

(٥) أى لا أحب نقفه وان دفع لى أجود الأبل فى مقابل نقفه .

(٦) سيرة ابن هشام ١٤١/١ .

ثم إن النبي هو المبلغ للشرعة ، والمهيمن عليها ، والمنفذ لها ، وهو القاضى الأول الذى يطمئن المسلمون إلى أحكامه ، ويقتدون بها ، فمن يعدل إذا هو لم يعدل ؟

أما مظاهر عدله فإنها متعددة متنوعة ، منها :

١ - لما نزل قوله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » (١) ناداهم بطناً بعد بطن فقال : يا معشر قريش . اشترُوا أَنْفُسَكُمْ ، لا أَغْنَى عَنْكُمْ من الله شيئاً .

يا بنى عبدمناف ، لا أَغْنَى عَنْكُمْ من الله شيئاً .

يا عباس بن عبد المطلب ، لا أَغْنَى عَنْكَ من الله شيئاً .

يا صفية عمة رسول الله ، لا أَغْنَى عَنْكَ من الله شيئاً .

يا فاطمة بنت محمد سلىنى ما شئت من مالى ، لا أَغْنَى عَنْكَ من الله شيئاً (٢) .

٢ - بعد غزوة حُنين وَرَدَّ السبَايا ، أَخَذَ الناس يقولون : يا رسول الله اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم ، حَتَّى أَلْجَأُوهُ إِلَى شَجَرَةٍ فَاخْتَطَفَتْ رِداءه ، فقال : ردوا عَلَى رِدايى أَيُّها الناس ، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نَعَمٌ لَقَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ ، ثم ما أَلْفَيْتُمُونِى بِخَيْلٍ وَلَا جَبَانٍ وَلَا كَذَابٍ .

ثم قام إِلَى جنب بَعِيرٍ ، فَأَخَذَ وَبَرَةً من سَنَامِهِ ، فَجَعَلَهَا بَيْنَ إصْبَعَيْهِ ، ثم رَفَعَهَا وَقَالَ : أَيُّها الناس ، والله ما لى من فيئكم وَلَا هذه الوبرة إِلَّا

(١) سورة الشعراء ٢١٤

(٢) فتح البدى ٢٩٠/٢ والاحياء ٣٢١/٣

الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط (١) والمخيط. (٢)
فإن الغلول (٣) يكون على أهله عارا ونارا وشنارا يوم القيامة .

فجاء رجل من الأنصار بكُبة من خيوط شعر ، فقال : يا رسول الله ،
أخذت هذه الكبة لأعمل بها برذعة لبعيرى ، فقال : أما نصيبى منها
فلك ، فقال الرجل : أما إذ بلغت هذا فلا حاجة لى بها ، وطرحها من يده .
وكان عَمَيْل بن أبى طالب قد دخل على امرأته وسيفه متلطح دماً ،
فقالت : إني عرفت أنك قد قاتلت ، فماذا أصبت من غنائم المشركين ؟
فقال : دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، فسمع منادى
رسول الله يقول : من أخذ شيئاً فليرده ، حتى الخياط والمخيط . فرجع
عَمَيْل فقال : ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت ، فأخذها فألقاها فى الغنائم (٤) .

٣ - وجد من خيار أصحابه قتيلا بين اليهود - هو عبد الله بن سهل
الأنصارى - فلم يَجْرَ على اليهود فى تقدير الدية ، ولم يزد على الحق والعدل ،
بل طلب دية مئة ناقة ، كما كان العرب يفعلون ، فى الوقت الذى كان
أصحابه فى حاجة إلى بعير واحد يتقوون به (٥) .

٤ - كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هم أحق منهم ،
فكان يجعل العباس لإجلال الوالد والوالدة (٦) ، ولكنه لم يفضلهم فى عطاء ..

(١) الخياط : الخيط

(٢) المخيط : الإبرة

(٣) الغلول : الخيانة

(٤) سيرة ابن هشام ١٢٤/٤

(٥) الاحياء ٣١٦/٢

(٦) الاحياء وهامشه ٢١٩/٢

٥ - شكت إليه ابنته فاطمة ما تلقى من مشقات في أعمالها بمنزلها ،
وطلبت منه خادماً من السبي يكفيها مثونة العمل ، ، فأمرها أن تستعين
بالتسبيح والتكبير والتحميد ، وقال لها : لا أعطيك وأدع أهل الصفة
تطوى بطونهم من الجوع .

فآثر عليها فقراء المهاجرين الذين كانوا يقيمون بسقيفة المسجد ،
وليس لهم مرتزق (١) .

٦ - كان يُعدّل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفي يده قِذْحٌ يعدل به
القوم ، فمر بسواد بن غزية وهو نائى من الصف ، فطعن في بطنه بالقِذْح ،
وقال : استويا سواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله
بالحق ، فأقِذْنى (٢) .

فكشف رسول الله عن بطنه ، وقال : استقِذْ يا سواد .

فعانقه سواد ، وقبل بطنه ، فقال الرسول : ما حملك على هذا يا سواد ؟
قال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فلم آمن القتل ، فأردت أن يكون آخر
العهد بك أن يمس جلدى جلديك ، فدعا له رسول الله بخير (٣) .

٧ - قال النعمان بن بشير : أعطانى أبى عطية ، فقالت عمرة بنت
رواحه ، لا أرضى حتى تشهد رسول الله ، فأنى رسول الله فقال : إني
أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية ، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله .

قال الرسول : أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟

(١) شرح الزرقاني ٢٠٢/٤

(٢) أقننى : دمنى اقتص منك .

(٣) سيرة ابن هشام ٢٧٨/٢ وتاريخ الطبرى ٢٨٠/٢

قال النعمان : لا . قال الرسول : فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم ،
فرجع أبي فرد عطيته (١) .

٨ - استأذن رجال من الأنصار رسول الله أن يأذن لهم ليركوا لعمه
العباس بن أختهم المال الذي يقتدي به نفسه من الأسر يوم بدر ،
فقال عليه الصلاة والسلام : لا تدعوا منه درهماً .

وذكر ابن إسحاق وغيره أن النبي قال : يا عباس أفد نفسك وابنتي
أخيك عقیل بن أبي طالب ونزقل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو
ابن جحدم ، فإنك ذو مال .

فقال العباس : يا رسول الله إني كنت مسلماً ، ولكن القوم استكروهوني .
فقال رسول الله : الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ما تذكر حقاً فالله يجزيك
به . فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك .
وكان رسول الله قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب ، فقال العباس :
يا رسول الله احسبها لي في فدائني .

قال الرسول : لا ، ذاك شيء أعطانا الله عز وجل منك . قال العباس :
فإنه ليس لي مال . قال الرسول : فأين المال الذي وضعت بمكة عند أم الفضل
بنت الحارث ليس معكما أحد ، وقلت لها : إن أصبت في سفرى هذا
فللفضل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولقثم كذا وكذا ، ولعبيد الله
كذا وكذا .

قال العباس : والذي بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيرى وغيرها ،
وإني لأعلم أنك رسول الله .

(١) فتح البدي ٣٢٩/٢

ففدى العباس نفسه وابنى أخيه وحليفه ، وكان فداؤهم أربعين أوقية ذهباً (١) .

٩ - سرقت امرأة مخزومية ، فأحزن قريشاً شأنها ، فقالوا : ومن يكلم فيها رسول الله ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبيبه ؟

فكلمه أسامة ، فقال رسول الله : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ، وجاء في خطبته قوله : إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (٢) .

١٠ - أعطى يوم حنين الأقرع بن حابس مئة من الإبل ، فقام رجل فقال : والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها ، وما أريد بها وجه الله .

قال النبي : فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله (٣) ؟

١١ - بعد غزوة حنين قال قائل ارسول الله : أعطيت عيينة مئة بعير ، والأقرع بن حابس مئة بعير ، وتركت جعيل بن سُرَاقَة . فقال رسول الله : أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سُرَاقَة خير من طلاع الأرض ، كلهم مثل عيينة والأقرع ، ولكني تألفتها ليسلما ، ووكلت جعيل بن سُرَاقَة إلى إسلامه (٤) .

١٢ - قسم رسول الله غنائم هوازن على المهاجرين والمؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فتذمر الأنصار ، وكثرت منهم القالة ، حتى

(١) تاريخ الطبري ٢٩٠/٢ واللؤلؤ والمرجان ١٨٦/٢

(٢) اللؤلؤ والمرجان ٢١٤/٢

(٣) فتح المبدى ٣٤٠/٢

(٤) سيرة ابن هشام ١٣٦/٤ ، ١٣٩ طلاع الأرض : ملئها

ظنوا أن الرسول حاوي قومه ، وعاتبه حسان بن ثابت بقصيدة ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ، لما صنعت في هذا النبل الذي أصبت .

قال الرسول : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي .

قال : فاجمع لي قومك .

فخرج سعد فجمع الأنصار ، فاتاهم رسول الله ، فخطب فيهم بقوله : يا معشر الأنصار ، ما قاله بلغتنى عنكم ، وموجدة وجدتموها على في أنفسكم ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى ، الله ورسوله أمّن وأفضل .

ثم قال : ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ الله ورسوله المّن والفضل .

قال : أما والله لو شتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : آتينا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فواسيناك .

أوجنتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاة (١) من الدنيا تآلفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ .

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبغير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ .

(١) اللعاة : بقلة خفراء ناعمة شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ،
ولو سلك الناس شِعْباً وسلكت الأنصار شِعْباً لسلكت شِعْب الأنصار ،
اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .
فبكى القوم حتى أخضلوا^(١) لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً
وحظاً^(٢) .

أثر العدل فى المساواة :

جاء الإسلام والناس طبقات ، والعرب درجات ، فسوى بينهم مساواة
حتمية واقعية لم يعرف العالم مثلها من قبل ولا من بعد ، فلا عبرة بالحسب
ولا بالمال ولا بالجاه ولا باللون ، بل العبرة بالأخلاق الفضلى وبالتدين
الصحيح ، قال تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ »^(٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ،
ولا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى ولا أحمر على أسود ولا أسود
على أحمر إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟
فليبلغ الشاهد الغائب »^(٤) .

وقال عليه الصلاة والسلام : إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية^(٥) ،
كلكم بنو آدم ، وآدم من تراب^(٦) .

- (١) بللوا بالدموع
- (٢) سيرة ابن هشام ١٤١/٤
- (٣) سورة الحجرات ١٣
- (٤) كنز العمال ٢٢/٢
- (٥) عبية الجاهلية : كبرها
- (٦) الاحياء ٣٢١/٣

وقد كان العدل من أقوى البواعث على هذه المساواة .

وإليك طرفاً من مظاهر المساواة الإسلامية التي حققها العدل بين

الناس .

١ - قال للنبي بعض سادات العرب مثل الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم : اجعل لنا يوماً ولهم - للفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء - يوماً ، يجيئون إليك ولا نجىء ، ونجىء إليك ولا يجيئون ، وذلك لأنهم شكوا إلى النبي التآذى برائحتهم ، فأجابهم رسول الله ، رغبة في تقوية الإسلام بهم : فنزل قوله تعالى : «واضربْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » (١) .

٢ - حينما أذن بلال يوم الفتح على الكعبة قال الحارث بن هشام وسهل بن عمرو وخالد بن أسيد : هذا العبد الأسود يؤذن ؟ فنزل قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » (٢) .

٣ - قال أبو ذر : قلت لرجل عند النبي صلى الله عليه وسلم يا ابن السوداء ، فقال النبي : يا أبا ذر طف الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل .

(١) سورة الكهف ٢٨-٢٩

(٢) سورة الحجرات ١٣

- فقال أبو ذر : فاضطجعت وقلت للرجل : قم فطأ على خدى (١)
 ٤ - رأى رسول الله رجلاً غنياً جلس بجانبه فقير ، فانقبض الغنى عنه ، وجمع ثيابه ، فقال الرسول : أخشيت أن يعدو إليك فقره؟ (٢) .

حُضه على العدل والمساواة

قال عليه الصلاة والسلام :

- ١ - لا يقضين حكمٌ بين اثنين وهو غضبان (٣) .
- ٢ - ما من عبد استرعه الله رعيته فلم يحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة (٤) .
- ٣ - المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه (٥) ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته (٦) .
- ٤ - الظلم ظلمات يوم القيامة (٧) .
- ٥ - سمع خصومة بباب حجرتي ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلى من بعض فأحسب أنه صدق ، فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها (٨) .

(١) الاحياء ٣٠٢/٣

(٢) الاحياء ٣٢٢/٣

(٣) اللؤلؤ والمرجان ٢٢٦/٢

(٤) اللؤلؤ والمرجان ٣٠/١

(٥) لا يسلمه : لا يخذله

(٦) فتح المبدى ٢٣٥/٢

(٧) فتح المبدى ٢٣٦/٢

(٨) فتح المبدى ٢٢٨/٢

- ٦ - الناس كلهم سواء كأسنان المشط. (١) .
- ٧ - انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تَفْضُلَهُ بتقوى الله (٢) .
- ٨ - المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم (٣) أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم (٤) .
- ٩ - من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيئيه مائل (٥) .
- ١٠ - ثلاث منجيات وثلاث مهلكات : فأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا ، وخشية الله في السر والعلانية ، والقصد (٦) في الفقر والغنى .
- ١١ - إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد (٧) .
- ١٢ - من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله عز وجل .
- ١٣ - من أعان ظالماً لِيُدْحِضَ بباطله حقاً : فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله (٨) .

-
- (١) البيان والتبيين ١٩/٢
 (٢) كنز العمال ٢٢/٢
 (٣) اللمة : الأمان
 (٤) البيان والتبيين ١٩/٢
 (٥) الاحياء ٤٤/٢
 (٦) القصد : الاقتصاد
 (٧) الجامع الصغير ٢٧٥/١
 (٨) الجامع الصغير ٣٥٤/٢ وكنز العمال ١٠٢/٢ يدحض : يبطل

١٤ - حدّ يعمل في الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمَطَّرُوا أربعين صباحاً (١) .

١٥ - من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة .

١٦ - من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة (٢) .

١٧ - من ابتلى بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم في لحظه وإشارته ومقعده ومجلسه (٣) .

١٨ - اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً فإنه ليس دونه حجاب (٤) .

١٩ - إن الله تعالى ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته (٥) .

(١) الجامع الصغير ٣٦٧/١

(٢) الجامع الصغير ٣٣٦/٢ خصته : فليته في الخصومة

(٣) الجامع الصغير ٣٣٧/٢

(٤) كنز العمال ٢٢/٢

(٥) كنز العمال ١٠٢/٢

الفصل التاسع

العفة

حقيقتها

العفة فضيلة تقى الإنسان من أن يرتكب بيده أو بلسانه أو بشهوته ما لا يحلُّ له وربما تمنعه من الحلال إباءً وأنفةً .

وقد وردت كلمة العفة ومشتقاتها في كتاب الله ذالة على هذه الأنواع :

١ - حفظ الفروج عن الحرام قال تعالى : « وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجْلُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » (١) .

فهنا أمرٌ بالاجتهاد في طلب العفة والحرص عليها للذين لا يستطيعون الزواج لعجزهم عن الإنفاق .

وقد جاءت الآية الكريمة بعد الأمر بما يَعْصِمُ من الفتنة ويُبْعِدُ من ارتكاب المعصية وهو غض البصر ثم بالزواج الذى يُحْصِنُ المتزوج ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وكبح جماحها إلى أن تحين المقدرة على الزواج (٢) .

(١) سورة النور ٣٣

(٢) الكشف ١٣/٢

ويتصل بحفظ الفروج الامتناع عما لا يلائمه كالتبرج والكشف
عن مواضع الزينة والإغراء ولهذا أمر الله سبحانه بالتصون والتوقر في
قوله : «وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ
جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ، وَأَنْ يَسْتَغْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ،
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (١) .

فإنه لا حرج على هؤلاء النسوة اللاتي كبرن فلا يطمعن في زواج أن يخلعن
ملابسهن الظاهرة غير مبديات شيئاً من زينتهن الخفية ، أو غير قاصدات إلى
التبرج (٢) .

٢ - نزاهة النفس وأمانة اليد ، قال تعالى في النهي عن أكل مال
اليتامى : «وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا
فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ
كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » (٣) .

أي : اختبروا عقولهم ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ ، حتى إذا
تبينتم منهم رُشدا دفعتم إليهم أموالهم بغير تأخير عن حد البلوغ .
ولا تأكلوا أموالهم مسرفين ومبادرين بلوغهم الرشد .

﴿١٩٠﴾ والأوصياء نوعان : نوع غني ونوع فقير ، فعلى الغني أن يتعفف عن
مال اليتيم قانعاً بما رزقه الله ، مشفقاً على اليتيم ، مبقياً على ماله ، وأما
الفقير فيتناول من مال اليتيم أجره مقدراً بالعدل والأمانة (٤) .

(١) سورة النور ٦٠

(٢) الكشف ١٩/٢

(٣) سورة النساء ٦

(٤) الكشف ١٩٠/١

٣ - الأنفة - من طلب الطعام أو المال مع شدة الفقر والحاجة ، قال تعالى : «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» (١) .

والمراد أولئك الذين قصرُوا أنفسهم على الجهاد فلا يستطيعون كسباً ، وقيل هم أصحاب الصفة (٢) ، فمن كان عنده فضل أنام به إذا أمسى .

وقد كان الجاهل بحالهم يظنهم مستغنين بسبب تعففهم عن السؤال ، ولكن الذى ينظر اليهم يرى وجوههم مصفرة ومناظرهم رثة ، ولم يكن أحد منهم يسأل الناس على الإطلاق ، أو كان بعضهم يسأل فى تلطف وتعميـض لا إلحاف فيه ولا إلحاح .

مظاهرها

بلغ عليه الصلاة والسلام أعلى الدرجات فى جميع ضروب العفة وأنواعها ، فقد كان المثل الأعلى فى الفضائل كلها ، والعفة موصولة ببعضها كالإمانة والعدل والقناعة والإيثار والزهد :

١ - أما عفته عن الفاحشة فإنها من البديهيـات التى لا تحتاج إلى تفصيل . وقد عصم الله نبيه من الفاحشة منذ طفولته : فلم يزل قط .

(١) سورة البقرة ٢٧٣ أحصروا : حبسوا أنفسهم على الجهاد . ضربا فى الأرض : سافرا سيماهم : علامتهم من الجهد والتواضع

(٢) كانوا نحو أربع مئة رجل من مهاجرى قريش لم يكن لهم مساكن فى المدينة ولا عشاير فكانوا فى صفة المسجد وهى سقيفة ، يتعلمون القرآن بالليل ؛ ويرضخون النوى بالنهار ، وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله .

ولم يَهُمُّ بفاحشة قط . حتى إن يده لم تمس يد امرأة إلا إذا كانت زوجة أو ذات محرم أو ملك يمين (١) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته ، فإني قد قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ؟ فقال : أفعل ، فخرجت أريد ذلك . حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالدفوف والزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان بين فلان تزوج بفلانة بنت فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله على أذني ، فنمت ، فما أيقظني إلا مَسُّ الشمس . ثم جئت صاحبي فقال : ما فعلت ؟ قلت : ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر .

ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك فقال : أفعل ، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت حين دخلت مكة تلك الليلة ، فجلست فضرب الله على أذني ، فوالله ما أيقظني إلا مَسُّ الشمس .

فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر ، ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته (٢) .

وقد سن للمسلمين أدب الطريق ، فنهاهم عن الجلوس في عرض المارة ، فإنه لا مندوحة من أن تمر نسوة يستحيين من تطلع الأنظار إليهن ،

(١) الاحياء وهامشه ٣١٥/٢

(٢) تاريخ الطبري ١٩٦/٢

أو تمر بعض نساء يبدو منهن - عن غير قصد - شيء من زينتهن ، فإن اضطروا إلى الجلوس بقارعة الطريق كان عليهم أن يلتزموا آدابه ، ومنها أن يَغْضُوا أَبْصَارَهُمْ ، فلا يعلقوها بهذه أو بتلك .

قال عليه الصلاة والسلام : لا تجلسوا على ظهر الطريق ، فإن أبيتم فغضوا الأبصار ، وردوا السلام ، واهدوا الضال ، وأعينوا الضعيف (١) .

وهو في هذا النهي يعمل بما أمر به القرآن الكريم ، وبما تهدي إليه التجارب والنظر السليم ، فإن النظرة كثيرا ما تجر شرورا ، قال تعالى : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ، أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (٢)

(١) تيسير الوصول ٢٦٣/٢ والبيان والتبيين ٢١/٢

(٢) سورة النور ٣٠-٣١ ، أزكى لهم : أظهر . الزينة : ما تزينت به المرأة ، فما كان ظاهرا منه كالخاتم والكحل والخضاب فلا بأس بآيائه للأجانب ؛ وما خفي كالسوار والخلخال والوشاح والقرط فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين ؛ وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في التصون والتستر ، لأن هذه الزينة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء وهي اللراع والساق والمعدن والعنق والرأس والصدر والأذن .

إلا ما ظهر منها : إلا ما جرت العادة بظهوره من الزينة الظاهرة لأن سترها فيه حرج ، فإن المرأة لا تجد بدا من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها في الشهادة والمحكمة والمشي في الطريق ، وإلى ظهور قدميها في المشي .

ليضربن بخمورهن على جيوبهن : كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدرهن وما حواليتها فأمرهن الله أن يسدن خمرهن على النحر والصدر حتى يغطيها .

أو نساكنهن : من في صحبتهن وخدمتهن من النساء والحرائر =

٢ - وكان الرسول عفيف اللسان حتى في أشد حالات الخصام ،
لم يعرف البذاء والسباب سبيلا إلى شفتيه ، فإنه بعد فتح مكة توجه
إلى الطائف ومعه أبو بكر وابنا سعيد بن العاص ، فمر أبو بكر بقبر فقال :
لن هذا القبر ؟ قالوا : قبر سعيد بن العاص ، فقال أبو بكر : لعن الله
صاحب هذا القبر ، فإنه كان يحارب الله ورسوله .

فغضب ابنه عمرو بن سعيد ، وقال يا رسول الله ، هذا قبر رجل كان
أطعم للطعام وأضرب للهام^(١) من أبي قحافة^(٢) .

فقال أبو بكر : يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : اكفف عن أبي بكر يا عمرو .

فانصرف عمرو ، ثم أقبل النبي على أبي بكر فقال : يا أبا بكر إذا
ذكرتم الكفار فعمموا فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء . فكف
المسلمون عن ذلك^(٣) .

وقد نهى عن سب قتلى بدر من المشركين فقال : لا تسبوا هؤلاء ،
فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون ، وتؤذون الأحياء ، ألا إن البذاء
لؤم^(٤) .

= أو ما ملكت إيمانهم : المراد الإماء لأن عبد المرأة بمنزلة الأجنبية منها . الإرية : الحاجة ،
وهم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة بهم إلى النساء لأنهم بله أو شيوخ
صلحاء . الطفل الذين لم يظهروا : الأطفال الذين لا يعرفون ما العورة ولا يميزون بينها وبين
غيرها . ولا يضربن بأرجلهن : لا يضربن الأرض بأرجلهن أو لا يضربن رجلا بأخرى لتزن
خلاخلهن فيسترعين الانتظار (الكشف ٩٠/٢)

(١) الهام : الرعوس .

(٢) أبو قحافة : والد أبي بكر .

(٣) الأحياء ١٠٧/٣ .

(٤) الأحياء ١٠٤/٣ .

وسأله أعرابي أن يوصيه ، فقال : عليك بتقوى الله ، وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه ، يكن وبالاً عليه وأجره لك ، ولا تسببن شيئاً (١) .

ولما رحل عن ثقيف قال له أحد أصحابه : يا رسول الله ادع عليهم ، فقال : اللهم اهد ثقيفاً وآت بهم (٢) ، وكذلك فعل لما سئل الدعاء على دؤس (٣) .

وسأله بعض أصحابه أن يدعو على قريش بعد غزوة أحد ، فقال : إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعناً ، اللهم اغفر لقوى فإنهم لا يعلمون . فلم يشأ أن يدعو عليهم بالهلاك مع أنهم أعداؤه . وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له .

ولقد اقتصر من الدعاء على المشركين في غزوة الأحزاب بقوله : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اللهم اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم (٤) .

وهذا أعف ما يمكن أن يوجه إلى قوم معتدين جمعوا جموعهم وقدموا إلى المدينة للقضاء على الرسول وعلى المسلمين ، معتمدين على كثرة عددهم ووفرة سلاحهم ومالأة اليهود المقيمين بالمدينة ونفاقهم ، على حين أن المسلمين قليل عددهم ، متخوفون من غدر اليهود بهم .

(١) الاحياء ١٠٥/٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ١٣٠/٤ .

(٣) فتح المبدي ٣١٥/٢ .

(٤) فتح المبدي ٣١٥/٢ واللؤلؤ والرجان ٢٦٤/٢ .

فدعاء الرسول على أعدائه بالهزيمة في هذا المأزق هو الأمر الطبيعي الذي لا تملى الضرورة غيره ، وإن هزيمتهم لأقرب إلى اجتذابهم للإسلام من انتصارهم ، فهم إذا انتصروا طغوا وبغوا واستكبروا استكباراً .

على أنه لم يدع عليهم بالهلاك المدمر أو بالإبادة القاضية ، وكان يستطيع أن يدعو بذلك .

٣ - وقد ضربت للناس أعلى مثل في أمانة اليد وعزة النفس ، كما بتبين من أمانته وزهده وإيثاره وعدله ، مع أن أموال النوى والغنائم كانت في قبضة يده ، ومع أن له نصيباً معلوماً من هذه ومن تلك ، ولكنه كان يقبض منها أقل قدر يقوته ويقوت أهله ولم يتجاوز القدر الموقوف عليه ، حتى لقد أمسك مرة وبرّة من أحد إبل الغنائم وقال : لا يحل لى من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس ، والخمس مردود فيكم .

وقد جاءته دنائير فقسمها على الناس ، وبقيت منها ستة أودعها عند بعض نسائه ، ولكنه أرق ليلته ولم يستطع أن ينام حتى قام فقسمها ، وقال : الآن استرحت .

كان رسول الله نزيه النفس عفيف اليد ، بل إنه سما بعفته عن الابتهاج بأن يمتلك ما لم يمتلكه أحد ، فهو القائل : ما يسرنى أن لى أحدًا ذهباً يبيت عندى منه دينار إلا ديناراً أرصده لدينى .

نواج النبي من زينب بنت جحش

في هذا المقام مقام الحديث عن عفة النبي صلى الله عليه وسلم يجدر بي أن أعرض لزوجاته من السيدة زينب بنت عمته ، ليتبين وجه الحق ، ولتتضح الحكمة الإلهية في هذا الزواج .

والحق أن عفة النبي أسمى من أن تدنو إليها شبهة ، لكن بعض القصاص من ذوي الفغلة خلطوا في هذا الزواج تخليطاً ياباه الواقع ، وتنفر منه الحقيقة ، ثم جاء بعض أعداء الإسلام من المستشرقين فتلقفوا هذا التخليط . واعتمدوا عليه ، محاولين أن يثيروا غباراً حول عفة رسول الله ، كأنهم لا يعلمون أن غبارهم لن يتجاوز أقدامهم ، فمن أين له أن يبلغ الجوزاء ؟

وحسبنا أن نذكر من أباطيل القصاص أن النبي جاء إلى بيت زيد ابن حارثة زوج زينب ، فلم يجده ، وعرضت عليه زينب أن يدخل فأتى وانصرف راجعاً يتكلم بكلام لم تفهم منه سوى قوله : سبحان الله العظيم ، سبحان مصرف القلوب .

فلما جاء زيد أخبرته بما كان ، فمشى إلى رسول الله فقال له : بلغني يا رسول الله أنك جئت منزلي ، فهلاً دخلت لعل زينب أعجبتك فأفارقها . فقال النبي : أمسك عليك زوجك ، واتق الله .

لكن زيدا عجز عن إمساكها ، ففارقها ، فتزوجها النبي بعد أن استوفت عدتها .

وفي خبر آخر أن النبي أتى بيت زيد ، فرأى زينب جالسة وسط حجرتها

تسحق طيباً ، فلما نظر إليها قال : سبحان خالق النور ، تبارك الله أحسن الخالقين ، فرجع ، فجاء زيد فأنخبرته الخبر ، فقال لها : لعلك وقعت في قلب رسول الله ، فهل لك أن أطلقك حتى يتزوجك ؟ فقالت : أخشى أن تطلقني ولا يتزوجني . فجاء إلى رسول الله ، فقال له : أريد أن أطلق زينب ، فأجابته بقوله : أمسك عليك زوجك واتق الله .

وهذا الخبر وأمثاله مما يجب صيانة النبي عنه (١) .

١ - أما الحقيقة فإنها تبطل هذا الزعم ، وتنقض ذلك الوهم ، لأن النبي كان قد أعتق مولاه زيد بن حارثة حينما آثر البقاء مع محمد مولى له على أن يعود مع أبيه ويتحرر من الرق ، وزاد النبي على عتقه أن تبناه وقربه إلى نفسه وأكرمه وأحسن تربيته ، ثم أراد أن يرفع من قدره فزوجه شريفة من قريش هي زينب بنت عمته ، ليكافئه مكافأة مضاعفة على إيثار البقاء معه .

وكانت زينب مزهوبة بشرف نسبها ، وكانت لا تفتأ تفخر على زيد وتعجفوه وتسمعه ما يؤذيه ، حتى إنها كما قالوا تمنعت عليه أن يلامسها ملامسة الزوج لزوجته ، فجاء يوماً إلى رسول الله فقال : إن زينب قد اشتد علي لسانها ، فأريد أن أطلقها ، فقال له الرسول : أمسك عليك زوجك واتق الله في أمرها ، ولا تطلقها .

وكان النبي يعلم حينئذ من الوحي أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه سيتزوجها من بعده ، لكنه لم يبح بهذا لزيد ولا لغيره ، خشية من لوم الناس ، أو حياء من قولهم إن محمداً تزوج امرأة ابنه .

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٢٥/٢٢ الألويس

على أن هذا الزواج كان تشريعاً إلهياً حكماً يبطل ما جرى عليه العرب من تحريم زوجة المتبنى كما يحرمون زوجة الإبن ، وكان زواج النبي ﷺ من زينب هو القدوة العملية الى حل ما حرموه على أنفسهم مما لا حرمة فيه . ولقد عاتب الله تعالى نبيه على خشيته من الناس ، وإخفائه في نفسه ما يعلمه من الوحي ، لأن الله وحده هو الحقيق بأن يخشاه في كل شأن من شئونه ، فيفعل ما أباحه له وأذن له فيه ، وكان الأولى في تلك الحالة أن يصمت أو أن يفرض الأمر إلى زيد . .

وهذا هو معنى قوله تعالى : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » : فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها ، لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً (١) . .

٢ - لم يبق منفذ لآية شبهة في هذا الزواج الذي كان بأمر من الله تعالى ، ليحل للناس ما حرموه على أنفسهم ، وليشرع لهم قانوناً جديداً يلغى ما وضعوه . !

وإن الآية القرآنية الكريمة لتتطرق بالمخبر كله في جلاء لا لبس فيه ، وتكشف عن الغرض من هذا الزواج كشفاً ينقض ما حاكه القصاص ، وضعفه المستشرقون المعادون للإسلام ، فلا مندوحة لمنصف سواء أكان مسلماً أم غير مسلم أن يجنح إلى تصديق أسطورة يكذبها كتاب الله ،

(١) سورة الأحزاب ٣٧ - انعم الله عليه . المراد نعمة الإسلام انعمت عليه : المراد المتق والرعاية والتبني ، تخفي في نفسك ما الله مبديه : تكتم ما اوحى اليك من طلاق زينب وزواجك منها . حرج : منها ما ضيق وضجر : ادعيائهم اولادهم من التبني .

ويدحضها ما عرف عن النبي من العفة والزهد والحياء وكرم الصحبة وطيب العشرة والغيرة والتقوى والخلق العظيم .

٣ - ولقد كان على القصاص ومتابعيهم من المستشرقين أن يسألوا أنفسهم هذه الأسئلة .

هل كان النبي يجهل زينب ويخفى عليه جمالها ، وهي بنت عمته ، وهو الذي خطبها لزيد ؟

وهل كان النبي وهو الذي يحمل أعباء الرسالة العظمى خلى البال ليأسره جمال النساء ؟

ولماذا زوج زيدا من زينب ولم يتزوجها هو ، مع أنه أو أراد ذلك لكان أيسر عليه ؟

وأيهما كان أولى بمكانته أن يتزوج زينب ابتداء أم أن يخلف عليها مولاه ؟

وهل من المعقول أن يتخرج من هذا الزواج الذي أوحى به الله إليه وأمره به خشية من الناس ، وهو لا يتخرج أن يقول الناس إنه أعجب بعجمال زوجة مولاه فخلفه عليها ؟

لكن القصاص لا يتحققون ، ولكن أعداء الإسلام سراع إلى تصيد ما يشفق حنقهم ، وإنها لا تغمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

حُضه على العفة

حرص رسول الله على تكوين المجتمع الفاضل ، فأمر المسلمين بالعفة في كثير من أحاديثه ، كقوله :

- ١ - إن الله تعالى يحب الفقير المُتَعَفِّفَ أبا العيال (١) .
- ٢ - إن الله يحب الحيي الحليم المتعفف ، ويبغض البذِيَّ السَّالِّ المُلْحِفَ (٢) .
- ٣ - اليد العليا خير من اليد السفلى (٣) .
- ٤ - لَأَن يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ مِنْ أَن يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيهِ أَوْ يَمْنَعَهُ (٤) .
- ٥ - ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ ولكن الغنى غنى النفس (٥) .
- ٦ - مَنْ سَأَلَ مِنْ غَيْرِ فَقْرٍ فَكَأَنَّمَا يَأْكُلُ الْجَمْرَ (٦) .
- ٧ - عَلَيْكُمْ بِالْقَنَاعَةِ فَإِنِ الْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ (٧) .
- ٨ - سَأَلَ نَاسٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَسُولَ اللَّهِ فَأَعْطَاهُمْ ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ، حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ : مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أُدْخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُ يُعِغَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يَغْنِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرَ وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ (٨) .
- ٩ - قَالَ حَكِيمُ بْنُ حَزَامٍ : سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ قَالَ : يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَصِيرَةٌ حُلُوهٌ ، فَمَنْ أَخَذَهُ بَسَخَاوَةِ نَفْسٍ بَوْرَكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ

(١) كنز العمال ٨٠/٢ والاحياء ١٦٧/٤ .
 (٢) الكشف ١٢٦/١ .
 (٣) اللؤلؤ والمرجان ٢٤٦/١ .
 (٤) اللؤلؤ والمرجان ٢٥٠/١ .
 (٥) اللؤلؤ والمرجان ٢٥١/١ .
 (٦) الجامع الصغير ٣٧٣/٢ .
 (٧) الجامع الصغير ٩٤/٢ .
 (٨) اللؤلؤ والمرجان ٢٥٥/١ .

يُبارَكُ له فيه ، وكان الذى يأكل ولا يشبع . اليد العليا خير من اليد السفلى (١) .

١٠ - أتى أعرابي إلى النبي فقال : يا رسول الله عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، فقال : إذا صليت فصل صلاة مُودِّع ، ولا تحدثنَّ بحديث تعتذر منه غدا ، واجمع اليأس مما في أيدي الناس (٢) .

١١ - عز المؤمن استغناؤه عن الناس (٣) .

١٢ - إياكم والفُحْشُ فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحُّش .

١٣ - ألا إن البذاءة لؤم (٤) .

١٤ - ليس المؤمن بالطَّعَّان ولا اللَّعَّان ولا الفاحش ولا البذيء .

١٥ - معاشر الشباب ، عليكم بالبيعة ، فمن لم يستطع فعله بالصوم ، فالصوم وجاء (٥) .

١٦ - من تزوج فقد أحرز شطر دينه ، فليتق الله في الشطر الثاني .

١٧ - النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن تركها خوفاً من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيماناً يجد حلاوته في قلبه (٦) .

١٨ - بلغ النبي أن رجلاً قال لأحد الصحابة : إن فتح الله عليكم

(١) البخاري في باب الوصايا ومسلم في الزكاة يريد أن ما أخذ من الأموال بطريق غير مشروع مديم البركة ، كالمال الذي أخذ حياء من المستول .

(٢) الاحياء ٢٠٦/٢ .

(٣) الاحياء ٢١٠/٢ .

(٤) الاحياء ١٠٤/٣ - ١٠٥ .

(٥) الباءة : الزواج وجاء : المراد وقاية من الزنا .

(٦) الاحياء ٨٧/٣ .

الطائف فسل النبي أن يهب لك نادية بنت غَيْلان بن سَلَمَة ، فإنها
إذا قامت تشنت ، وإذا تكلمت تغنت الخ .

فقال عليه الصلاة والسلام : لقد غَلَّغَت النظرَ يا عدوَّ الله^(١) .

١٩ - ذكر من السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة في ظله يوم
لا ظل إلا ظله : ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني
أخاف الله^(٢) .

(١) الجازات النبوية ١٠٢ ، غلغلت النظر : أدخلته وعمقته .

(٢) صحيح مسلم ١٢١/٧

الفصل السابع

الصدق

ما الصدق ؟

لا أريد أن تتشعب بنا السبل إلى متاحات الفروض والاحتمالات ، بل أؤثر أن يكون الصدق هو قول الحق الصراح ، والإخبار بالواقع الذى يعلمه المتكلم ولا يعلم سواه .

وحسب الصدق من العظمة والعلاء أن الله سبحانه وتعالى وصف به وعده فى قوله : « أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عنهم أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ، وَنَتَجَاوَزُ عن سِيِّئَاتِهِمْ فى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَعَدَ الصُّدُوقِ الذى كانوا يُوعِدُونَ » (١) وفى قوله : « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته » (٢) ووصف به ذاته العلية فى قوله : « ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » (٣) وفى قوله : « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً » (٤) .

ووصف به النبى فى قوله : « ولما رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » (٥) .

(١) سورة الاحقاف ١٦

(٢) سورة الانعام ١١٥

(٣) سورة الانعام ١٤٦

(٤) سورة النساء ٨٧

(٥) سورة الاحزاب ٢٢

ووعده الصادقين ثوابه ، وأنذر الكاذبين عقابه ، فقال : « لِيَسْأَلَ
الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ^(١) » ، وقال :
« لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفوراً رَحِيماً ^(٢) » ، وقال سبحانه : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ
عَلَى اللَّهِ ، وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ^(٣) » .
وواسى النبي عليه الصلاة والسلام حينما كذبه قومه بأن الأمم
السابقة كذبت رسلها « وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ، وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ
لِلْكَافِرِينَ ، ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ^(٤) » .

مظاهره

(١) اعتراف مخالطيه

أَجْمَعَ الَّذِينَ عَرَفُوا النَّبِيَّ وَخَالَطُوهُ مِنْذُ صَبَاهٍ عَلَى أَنَّهُ صَادِقٌ آمِينَ ،
لَمْ يَسْمَعُوا مِنْ فَمِهِ أَكْذُوبَةً قَطْ . ، وَلَمْ يَشْكُوا فِي خَبَرٍ مِنْ أَخْبَارِهِ ،
أَوْ يَسْتَرْيِبُوا فِي قَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِهِ .

١ - فالسيدة خديجة لم تجد ما تهدي به رَوْعُهُ حين آتَاهَا خَائِفاً
بعد أن نزل عليه الملك يقول « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ^(٥) » خبيراً من
قولها له : أَبَشِّرْ ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، ووالله إنك لتصلُ الرَّحِمَ ،

(١) سورة الأحزاب ٨

(٢) سورة الأحزاب ٢٤

(٣) سورة الزمر ٣٢

(٤) سورة الحج ٤٢ - ٤٤ نكير : انكارى عليهم واهلاكى لهم

(٥) سورة العلق ١

وتَصَدَّقُ الْحَدِيثَ ، وَتَوَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَقْرَى الضَّعِيفَ ،
وَتَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ (١) .

٢ - وقريش أعلنت أنه صادق حينما جمعها ليصدع بالدعوة جهرة ،
وصعد الصفا فقال : يا صباحاه ، فاجتمعوا إليه ، فقالوا : مالك ؟ قال :
أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تَصَدِّقُونَنِي ؟
قالوا : بلى ، ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب
تدديد . فقال أبو لهب : تَبَّأُكَ ، أَلَهَذَا جَمَعْتُنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى :
« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَبُّصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ » (٢) .

٣ - على أنهم وإن كذبوه في دعوى النبوة لم يجروا أحد منهم على
وصفه بالكذب في سواها ، فقد قال أبو جهل للنبي إننا لا نكذبك ،
وما أنت فينا بمكذب ، ولكن نكذب بما جئت به ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى
« فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » (٣) .

ولقي الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ أَبَا جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ : يَا أَبَا الْحَكَمِ أَيْسَ
هَذَا غَيْرِي وَغَيْرِكَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا ، أَخْبِرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ صَادِقٍ أَمْ كَاذِبٍ ؟
فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَاللَّهِ إِنْ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ ، وَمَا كَذَبَ قَطُّ (٤) .

٤ - ثم تأمرت قريش على أن تشيع في الوافدين إلى مكة أن محمدا
ساحر ، فردها عن هذه الفرية غدو من ألد أعدائه هو النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ ،

(١) تاريخ الطبري ٢/٢٠٥ الكل : الضعيف . تقرأ : تطعم وتكرم

(٢) سورة المسد ١-٢ تبَّتْ : هلكت وخسرت

(٣) سورة الانعام ٣٣

(٤) الشفا ١/١٠٥

إذ قال لهم : قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثًا ، فكان أرضاكم فيكم ،
وكان أصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه
الشيبَ ، وجاءكم بما جاءكم ، قلم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر .

٥ - ولما سأل هرقل إمبراطور الروم أباً سفيان في ركب من قريش
بعد صراح الحديبية : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟
قال : لا ، فقال : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله (١) .

٦ - جاء في وصف علي بن أبي طالب لرسول الله أنه كان أصدق الناس
لهجة .

وجاء في حديث ابن عمر أن رسول الله كان يعرف في وجهه غضبه
ورضاه (٢) .

فكان لا يقول المنكر ، ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق ،
ويعرض عن تكلم بغير جميل .

وكان أحسن الناس رِضا ، إذا سُرَّ رضى ، فإن وعظ وعظ بجد ،
وإن غضب - وليس يغضب إلا لله - لم يقم بغضبه شيء حتى ينتصر له .
ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها (٣) .

(١) فتح المبدى ٣٣/١ وصحيح مسلم ١٠٤/١٢ و تاريخ الطبرى ٨٦/٣ وسنن أبى داود فى فضل الوفاء
أن رسول الله شكر لعلمته بن علانة صنيعة لأنه قال خيرا أمام هرقل ونهى حسان بن ثابت
عن رواية شعر فيه هجاء له (كنز العمال ١٥٢/٢)

(٢) الاحياء ٣٣٦/٢

(٣) الاحياء وهامشه ٣٢٦/٢ .

(٢) الرسالة

لقد صدق رسول الله في تبليغه عن ربه ، لكن قريشاً التي وثقت بمحمد واطمأنت إلى صدقه في صلاتها به ومخالطتها له ، ناقضت نفسها ، فكذبت نبوته ، وأنكرت رسالته .

١ - فلو أن الذين كذبوه احتكموا إلى ثقتهم به وتجاربهم معه لعلموا أن الذي يصدقهم الأحاديث والأقوال لا يستطيع أن يكذب على الله . ولو أنهم كشفوا عن قلوبهم ما ران عليها من حُجب العناد والضلال والحرص على منافع الدنيا وشهواتها لأيقنوا أن النبي يدعوهم إلى الحق والخير والارتفاع عن وهاد الوثنية والشرك إلى أوج التوحيد الخالص الذي تقتضيه الفطرة الصحيحة والعقل السليم .

لكنهم عموما عن هذا كله ، وعموا عن البينات الدالة على صدق الرسول ، ولم يتبصروا في قوله تعالى : « ولو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ^(١) » لأنه لو كان مدعياً للنبوة ما نفى عن نفسه الكذب بهذا التصوير المرعب الذي لا يتفق ومكانة المدعى الكاذب .

٢ - على أن النبي - وهم يعلمون أنه أُمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يجلس إلى معلم يتلقى عنه - قد جاءهم بكتاب من عند الله ، فيه تشريع جديد ، وفيه أخبار صحيحة عن الماضين ، وفيه أخبار بأُمور ستقع وقد وقعت فعلا ، فمن أين جاء النبي بهذا الكتاب ، وهو كما قال تعالى :

(١) سورة الحاقة ٤٤-٤٧ الوتين : عرق متصل بالقلب اذا انقطع مات صاحبه .

« وما كُنت تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ^(١) » .

من أين جاء النبي بالقرآن وقد عاش فيهم أربعين سنة لم يحدثهم فيها بنسبة ولا رسالة « قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَتَمَدَّ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ^(٢) .

٣ - وقد كانت تقع أحداث جسام يتطلع فيها النبي إلى الهداية ، ويتشوّف إلى الحكم الفاصل ، فينتظر وهو ملهوف حتى ينزل عليه الوحي بالقضاء الحاسم .

ويكفي أن أُشير هنا إلى قصة الإفك التي نسجها بعض المنافقين حول زوجته السيدة عائشة ، وأبطأ الوحي ، والمسلمون في قلق ، والنبي في قلق ، والنبي نفسه حائر لا يقول إلا أنه لا يعلم عنها إلا الخير ، ثم بعد شهر كامل نزل الوحي بتبرئتها مما افتروا عليها ^(٣) .

قلو أن النبي كاذب لسارع منذ اليوم الأول إلى تبرئة زوجته وحماية عرضه ، ولكان من السهل عليه أن ينسب إلى السماء ما يدعيه ، ليكف المتخرسون عن أراجيفهم ، وليطمئن المسلمون إلى براءة زوجة نبيهم وهي أم من أمهاتهم .

وليس يصح أن ينسى أحد أن هذا المقام لا يحتمل الصبر والانتظار ، لأن الفريئة مصوبة إلى أعز ما يتصل بالإنسان الحر وهو العرض ،

(١) سورة العنكبوت ٤٨ ارتاب : شك

(٢) سورة يونس ١٦

(٣) سورة النور

ولأن هذا العرض موصول بالإسلام صلة ترفعه أو تضعه ، فهو عرض النبي نفسه ، وعرض صديقه أبي بكر ، وعرض إحدى أمهات المسلمين .

ولا يصح أن يتغافل أحد في هذا المأزق أن النبي عربي من أشرف قبيلة في العرب ، والعرب أصحاب غيرة على أعراضهم ، وصيانة لنسائهم لم يكن لها بين الأمم نظير ومثال .

٤ - وكثيرا ما كانت تعرض مشكلة يتلمس المسلمون عند النبي حلاً لها ، فينتظر الحل الذي يوحى إليه ، لأنه صادق لا يبلغ عن ربه إلا ما أوحى ، كما حدث إذ جاءت امرأة تشكو زوجها لأنها بعد أن ولدت له أولادا جعلها عليه كأمه ، فحرّمها على نفسه^(١) ، وقالت للنبي إن لي صبية صغاراً إن تركتهم له ضاعوا ، وإن أخذتهم منه جاعوا .

فقال لها النبي : ليس عندي في أمرك شيء ، فقالت : أشكو إلى الله فاقضى ووجدي ، فنزلت الآيات^(٢) تبطل الظهار الذي كان العرب يمارسونه قبل الإسلام .

٥ - على أن الوحي كان ينزل أحياناً بما لم يكن النبي يتوقعه ، فيأذن له في شيء لا يقبل عليه ، كتحريمه بعض الطعام على نفسه^(٣) . أو يعاتبه في عمل عمله ، كإذنه لبعض المسلمين الذين استأذنوه في أن يتخلفوا عن غزوة تبوك ، معتردين بالسفر البعيد أو بالمرض ، وهم في الحقيقة كاذبون ، قال تعالى : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً

(١) كان العرب في الجاهلية يعرفون الظهار وهو أن يقول الزوج لزوجته أنت على كظهر أمي يريد تحريمها أبداً .

(٢) سورة المجادلة .

(٣) سورة التحريم .

لَا تُبْعُوكَ ، وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ، لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (١) .

ومثل إعراضه عن عبد الله بن شريح الشهير بابن أم مكتوم ، إذ جاء إلى النبي وعنده جماعة من أشراف قريش يدعوه إلى الإسلام فقال ، يا رسول الله ، أقرئني وعلمني مما علمك الله ، وكرر هذا وهو لا يرى أن النبي مشغول بهؤلاء ، فكره النبي مقاطعته له ، وقطب ، فنزل قوله تعالى : « عبس وتولى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى » ، وما يُثْرِيكَ لَعَلَّه يَزْكِي أَوْ يَذْكُرُ فتنفَعُهُ الذِّكْرَى ، أَمَا مِنْ اسْتَفْنَى فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وما عليك ألا يَزْكِي ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (٢) .

٦ - والعجب العجيب أن الله تعالى تحداهم أَنْ يَأْتُوا ولو بسورة من مثل القرآن ، وكان التحدي صارخا ، وكانوا ذوى بلاغة وبيان ، فعجزوا عجزا فاضحا ، ولكنهم حاولوا أَنْ يستروا خزيهم فاتهموا النبي بأنه شاعر . ربأنه كاهن ، وبأنه ساحر ، ولم يسألوا أنفسهم لِمَ قَدَّرَ هو على ما يعجزون عنه وفيهم الشعراء والكهان والسحرة ؟ أو لعلهم سألوا أنفسهم ولكن العناد أملى لهم في الغي والضلال .

وشيء آخر أنهم بأذواقهم ومقدرتهم على وزن الكلام وتمييز بعضه من بعض كانوا يجادلون فرقا كبيرا بين القرآن وكلام النبي ، فالقرآن الذى أعجزهم هو القمة العليا فى البلاغة ، ولكن كلام النبي على كثرة

(١) سورة التوبة ٤٢-٤٤ عرضا : متاما من الدنيا

(٢) سورة عبس ١-١٠ ، عبس : قطب ، يزكى : يتطهر من الاثم ، يذكر : يتعظ ، تصدى : تقبل عليه

رسائله وخطبه وأحاديثه لم يصل إلى هذه القمة ، ولم يدعِ النبي نفسه ، ولم يدعِ أحد من المسلمين لكلامه أنه على درجة من درجات الإعجاز .
فأني له أن يكذب عليهم فيفتعل كلاماً معجزاً ينسبه إلى الله ، وهو لا يستطيع أن يحاكي هذا الكلام ؟

٧ - ثم إن لنا أن نسأل عن السبب الذي كانوا يظنون أنه يدفع النبي إلى الكذب ؟

لقد احتمل في دعوته أفدح المخاطر ، وأقصى الشدائد ، وصبر على ما لا يطاق ثلاثة وعشرين عاماً ، لم ينعم فيها براحة ولا أمن ولا اطمئنان ثم كان معه عشرات الألوف من أتباعه يتعرضون لفقد الأرواح والأموال وللقلق الدائم على الحياة ، وهو لم يعجن من وراء دعواه ما يجنيه أصحاب الدعاوى من رغد وثرأ وأبهة وساطان .

فلو أنه كان كاذباً لآثر على دعواه الرضا بما عرضه عليه قومه من المال والملك حينما يئسوا من تراجعهم عن الدعوة إلى الإسلام الذي يسفه عقولهم ، ويلغى أديانهم ، ويبطل كثيراً من عاداتهم ومعتقداتهم ، ويهدد مصالحهم الشخصية بالزوال .

ولو لم يكن صادقاً لأقام نفسه ملكاً على الجزيرة العربية بعد أن دانت له ، وبعد أن وافته القبائل لتعلن إسلامها ، وتدين له بالولاء . ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وقد كان ميسوراً عليه .

بل آثر أن يقضى حياته زاهداً مبغضاً لمظاهر الجاه والسلطان .

٨ - على أن زعماء قريش الذين تولوا معارضة الدعوة حيناً من الدهر لم يلبثوا أن آمنوا بها ، وأُشْرِبَتْها نفوسهم ، وكافحوا دونها بدمائهم

وَأَمْوَالِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ أَيقَنُوا أَنَّ مُحَمَّدًا الَّذِي لَمْ يَكْذِبْ عَلَيْهِمْ قَطُّ . لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ قَطُّ . ، وَلَيْسَ بِصَاحِبِ بَهْتَانٍ وَلَا طَالِبِ مَالٍ أَوْ جَاهٍ .

تَوْرِيَّتُهُ وَكُنْيَاتُهُ

هَلْ يَتَطَلَّبُ أَحَدٌ مِنْ رَجُلٍ مِثْلِهِ أَنْ يَكْشِفَ لِأَعْدَائِهِ عَنْ خُطْطِهِ وَنَوَائِيهِ؟

وَلَوْ أَنَّ تَطَلُّبَ أَحَدٍ ذَلِكَ لِيَكُونَنَّ مِثْلًا لَغَفْلَةِ الْخُرْقِ ، وَحِمَاقَةِ الْبُلْهِ ، وَسَخَافَةِ الْأَدْعِيَاءِ .

فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلرَّجُلِ الْصَادِقِ أَحْدَاثٌ يَعْتَصِمُ فِيهَا بِالْكَتْمَانِ ، وَتَمَرُّ بِهِ أَحْوَالٌ يُسْأَلُ فِيهَا فَيَنْصَرِفُ عَنِ الْجَوَابِ ، أَوْ يَقُولُ مَقَالَ الْحَازِمِ الَّذِي يَزِنُ مَا يَصِحُّ أَنْ يَقَالَ .

فَمَاذَا كَانَ يَفْعَلُ رَسُولُ اللَّهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ ؟

كَانَ يَسْتَخْدِمُ التَّوْرِيَّةَ أَوْ الْكُنْيَاةَ فَيَجِدُ مَنْدُوحَةً مِنَ الصَّدَقِ الضَّارِ وَمِنَ الْكَذِبِ الَّذِي لَا يَلِيْقُ بِهِ وَلَا يَرْضَاهُ .

فَإِذَا تَوَجَّهَ إِلَى سَفَرٍ وَرَى بَغْيَهُ ، حَتَّى لَا يَنْتَهِيَ الْخَبِيرُ إِلَى أَعْدَائِهِ ، فَيَتَصَدَّقُونَ لَهُ (١) .

وَإِذَا خَرَجَ فِي غَزْوَةٍ كَتَبَ عَنْهَا ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا يَرِيدُ غَيْرَ الْوَجْهِ الَّذِي إِلَيْهِ يَقْصِدُ ، إِلَّا غَزْوَةَ تَبُوكَ ، فَإِنَّهُ بَيْنَهَا لِلنَّاسِ ، لِبَعْدِ الشَّقَةِ ، وَشِدَّةِ الزَّمَانِ ، وَكَثْرَةِ الْعَدُوِّ الَّذِي يَقْصِدُ لَهُ ، ائْتَاهِبِ النَّاسُ (٢) .

(١) الاحياء ٣٣١/٤

(٢) سيرة ابن مشام ١٥٩/٤

وفي طريقه إلى بدر وقف على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ لا أخبركما حتى نخبراني ممن أنتم ، فقال رسول الله : إذا أخبرتنا أخبرناك ، فلما أخبرهم الرجل بما يعلم ، وفرغ من خبره ، قال الرجل : ممن أنتم ؟ فقال رسول الله : نحن من ماء ، فجعل الرجل يقول : من ماء ؟ من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ (١) .

حُضه على الصدق

للرسول كثير من الأحاديث في الأمر بالصدق وتزيينه ، وفي النهي عن الكذب وتقبيحه ، منها قوله :

١ - عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة . ، وإن الرجل ليُصدَّق حتى يكون صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً (٢) .

٢ - آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أُوْتِمِن خان (٣) .

٣ - البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما ، وبيعهما ، وإن كنما مُحِقَّتْ بركة بيعهما (٤) .

٤ - تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة ، فإن فيه النجاة ، واجتنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة (٥) .

(١) سيرة ابن هشام ٢٦٨/٢
(٢) فتح المبدى ٣٠٩/٣ وكنز العمال ٧٢/٢
(٣) فتح المبدى ٦٤/١
(٤) اللؤلؤ والمرجان ١٥٦/٢
(٥) كنز العمال ٧٢/٢

- ٥ - إن الكذب باب من أبواب النفاق (١) .
- ٦ - من حلف على يمين بائثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان (٢) .
- ٧ - قال عبد الله بن عامر : جاء رسول الله إلى بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله تعال حتى أعطيك ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمر ، فقال : أما إنك لو لم تفعل لي كتبتي عليك كذبة (٣) .
- ٨ - أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر (٤) .
- ٩ - سألت امرأة رسول الله فقالت : إن لي ضرة ، وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضرارها بذلك ، فهل على شيء فيه ؟ فقال : المتشيع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور (٥) .
- ١٠ - ما أملت تاجر صدوق .
- ١١ - لا تزال أمتي صالحاً أمرها ما لم تر الأمانة مغنماً والصدق مغرماً (٦) .
- ١٢ - ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو أنمى خيراً (٧) .

(١) (٢) الاحياء ١١٥/٣-١١٧

(٣) تيسير الوصول ٢٥٦/٣

(٤) فتح المبدى ٦٥/١

(٥) تيسير الوصول ٢٥٦/٣ والاحياء ١٢١/٣ المتشيع : المباهم

(٦) البيان والتبيين ٢٠/٢

(٧) الاحياء ٣٣٠/٤

- ١٣ - لا يحل الكذب إلا في ثلاث : يحدث الرجل امرأته ليرضيها ،
والكذب في الحرب ، وفي الإصلاح بين الناس^(١) .
- ١٤ - ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال :
الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وجلس وكان متكئاً فقال : ألا وقول
الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت^(٢) .
- ١٥ - كبرتُ خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مُصدِّق ،
وأنت له به كاذب^(٣) .

(١) فتح الباري ١١٩/٦

(٢) فتح البدي ٢٦٢/٢ قول الزور : الكذب . ليته سكت : شفقة عليه وكرهية
يرعجه أو لما حصل لهم من الرعب والخوف

(٣) الجامع الصغير ١٥٩/٢

الفصل الثامن

الأمانة

حقيقتها

للأمانة معنيان خاص وعام .

أما الخاص فهو أن يرد الشخص المال أو المتاع أو غيرهما إلى من ائتمنه عليه ، لأنه حفيظ. على هذا الشيء ، راعٍ له ، ليس من حقه أن يتصرف فيه ، فإذا ما استرده صاحبه سارع برده إليه .

وأما العام فيتسع لأكثر من هذا ، فيشمل كتمان السر ، وإخلاص المشورة للمستشير ، وصدق التبليغ فيما كلف الشخص أن يبلغه . فالذي يستودعك سرا واثق بك ، مطمئن إلى كتمانك ، فأنت على سره أمين .

والذي يستشيرك يفضي إليك بما في نفسه ، ويتوقع أن تبدى له رأيك صريحا وإن خالفه ، فإن فعلت فأنت أمين .
والذي يكلفك تبليغ خبر إلى آخر ، قد اختارك للتبليغ عنه ، فإذا ما أديت الرسالة صحيحة فأنت أمين .

وهكذا ترتبط الأمانة في معناها الخاص وفي معناها العام بعدة فضائل كالصدق والصبر والشجاعة والعفة والوفاء والعدل .

وقد أمر الله تعالى برد الأمانة ، وامتحها ، وعقب على هذا الأمر بالتخويف من الخيانة ، لأنه سبحانه يسمع ما يقال ، ويرى ما يفعل ، « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ^(١) » .

وقال في التّداين : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ^(٢) » .

وذكر في النّاجين من عذاب جهنم « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ^(٣) » .

مظاهرها

أمانة الرسول كفضائله كلها شاملة كاملة متعددة المظاهر :

١ - وليس من شك في أنّ مظهرها العظيم هو نهوضه بتبليغ الرسالة التي ائتمنه الله عليها ، وكلفه أن يقوم بها ، فبلغها للناس أعظم ما يكون التبليغ ، وقام بأدائها أعظم ما يكون القيام ، واحتمل في سبيلها أشق ما يحتمله بشر .

٢ - وقد عرف العرب أمانة الرسول قبل بعثته ، فكانوا يسمونه الأمين ^(٤) ، ولهذا رحبوا بحكمه فيما كان بينهم من نزاع وارتضوا ما قضى به .

(١) سورة النساء ٥٨

(٢) سورة البقرة ٢٨٢-٢٨٣

(٣) سورة المعارج ٣٢

(٤) تاريخ الطبري ٢ / ٢٥١

ذلك أنه لما بلغ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة ،
وجزأت العمل ، فكان جانب الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين
الركن الأسود والركن اليماني لبني معزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ،
وكان ظهر الكعبة لبني جُمَح وسَهْم ، وكانت ناحية الحجر لبني عبد الدار
ابن قصي ولبني أسد بن العُزَي بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لُؤَي وهو
الخطيم .

وكان رسول الله وعمه العباس فيمن يحملون الأحجار من أشراف
قريش .

ولما انتهوا من هدمها جمعوا الحجارة لبنائها ، ثم بنوها حتى بلغ
البنيان موضع الركن - الحجر الأسود - فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد
أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى كادوا يتقاتلون ، فقربت بنو عبد
الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت
وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم ، فُسِمُوا لَعَنَةُ الدم ، فمكثت قريش على ذلك
أربع ليال أو خمساً ، ثم أشار أحدهم بأن يحكموا بينهم أول من يدخل
من باب المسجد ، فرضوا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله ، فلما رآوه
قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما أخبروه الخبر ، قال :
آتوني ثوباً ، فأتوه به ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ،
ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا ،
حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه . وكان ذلك
قبل الهجرة بثمان عشرة سنة^(١) .

(١) سيرة ابن هشام ٢٠٤/١-٢١١ وتاريخ الطبري ٢٠١/٢ ونور البقعة ٢١

وهذا أرضى القبائل كلها ، وحسم نزاعها ، وأشركها في الشرف الذى كانت تتنافس عليه ، لأن البيت محجهم جميعاً ، ولأنه أول بيت أقيم للعبادة « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً (١) » .

كانت أمانة النبي هى التى طمأننت قريشاً إلى فصاه فما سنها ، وهى التى جنبتها القتال الذى كان يوشك أن تشتعل ناره .

وكان استقلاله بوضع الحجر فى مكانه إيذاناً بأنه صاحب الرسالة الخالدة التى تعيد الناس إلى صحة العقيدة . وصواب الدين ، وتردهم إلى الحنيفية السمحة التى دعا إليها إبراهيم عليه السلام .

٣ - جاء رجل إلى النبي يسأله ، فقال : اجلس سيرزقك الله .

ثم جاء آخر ثم ثالث ، فقال لهم : اجلسوا . فجاء رابع بأربع أواق ، وقال : يا رسول الله إن هذه صدقة .

فدعا الرسول الرجل الأول فأعطاه أوقية ، ودعا الثانى فأعطاه أوقية ، ودعا الثالث فأعطاه أوقية ، وبقيت معه أوقية واحدة ، فعرض بها القوم ، فما قام أحد .

فلما كان الليل وضعها تحت رأسه ، فجعل لا يأخذه النوم ، فيرجع ويصلى ، فقالت له السيدة عائشة : يا رسول الله ، هل بك ثىء ؟ قال : لا قالت : فجاءك أمر من الله ؟ قال : لا . قالت : إنك صنعت الميأة شيئاً لم تكن تفعله .

(١) سورة آل عمران ٩٦-٩٧ .

فأخرج الأوقية ، وقال : هذه التي فعلت بي ما ترين ، إني خشيت أن يحدث أمر من الله ولم أمضها .

٤ - كان رسول الله إذا أصاب غنيمة أمر بلالا فنادي ثلاثاً في الناس ، فيجيئون بغنائمهم ، فيقسمه ويخمسهُ ، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنا أصبنا من الغنيمة ، فقال : أسمعت بلالا ينادي ثلاثاً ؟ قال : نعم ، قال : فما منعك أن تأتي به ؟ فاعتذر إليه ، فقال النبي : لن أقبله منك حتى تكون أنت الذي توافيني به يوم القيامة (١) .

٥ - استعمل رسول الله عاملاً - ابن اللثبية - على الصدقة ، فجاء العامل حين فرغ من عمله فقال : يا رسول الله هذا لكم ، وهذا أهدي إلي ، فقال له : أفلا قعدت في بيت أبيك وأهلك ، فنظرت أيهدى إليك أم لا . ثم قام عشية بعد الصلاة فقال : أما بعد ، فما بال العامل نستعمله فيأتيينا فيقول : هذا من عملكم ، وهذا أهدي إلي ؟ أفلا قعد في بيت أبيه وأمه ، فنظر هل يهدى له أم لا ؟

فوالذي نفس محمد بيده لا يغُلُّ أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، إن كان بعيراً جاء له رغاء ، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار ، وإن كانت شاة جاء بها تبعر (٢) .

٦ - قال جابر بن عبد الله : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد ضحى ، فقال : صل ركعتين ، وكان لي عليه دين فقضاني وزادني (٣) .

(١) مسند أحمد ٢٠١/١١
(٢) فتح الباري ٢٨٥/٣ ، ١٤١/٢١ وصحيح مسلم ٢١٩/١٢ ، تبر : تصحيح .
(٣) فتح البدي ٢٢٩/٢ قضاء ثمن الجمل الذي اشتراه منه وزاده قيراطا .

- ٧ - أتى رجل إلى النبي يتقاضاه ، فأغلظ ، فهمَّ به أصحابه وأرادوا أن يؤذوه ، فقال رسول الله : دعوه ، فإن أصحاب الحق مقالاً (١) .
- ثم قال : أعطوه سنناً مثل سنه (٢) ، قالوا : يا رسول الله لا نجد إلا أمثلاً من سنه ، فقال : أعطوه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء (٣) .
- ٨ - مر على كومة من الطعام فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللاً ، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا .
- ٩ - بعث عبد الله بن رباح إلى خيبر ليخبر ما على نخلها من ثمر . فجمع له اليهود حلياً من حلي نسايتهم ، فقالوا : هذا لك ، وخفف عنا ، وتساهل في التقدير . فقال عبد الله : يا معشر يهود ، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلي ، ولكن ذلك لا يحملني على أن أحيي (٤) عليكم ، فأما ما عرضتم على من الرشوة فإنها سُحَّتْ ، وإننا لا نأكلها . فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض .

حُضِّه عَلَى الْأَمَانَةِ

قال عليه الصلاة والسلام :

- ١ - العارية مُؤَدَّة ، والمِنْحَةُ (٥) مردودة ، والدَّيْن مَقْضِيٌّ ، والزَّعِيم (٦) غارم (٧) .

-
- (١) له صولة في الطلب وقوة في الحجة .
 (٢) جملاً سنه مثل الذي له .
 (٣) فتح المبدى ٢٠٩/٢ .
 (٤) أحيي : أجور .
 (٥) المنحة : الشاة أو الناقة تعطيتها غيرك ليشرَب لبنها ثم يردّها إذا انتطع لبنها .
 (٦) الزعيم : الضامن .
 (٧) كنز العمال ١٥/٢ وتيسير الوصول ٣١/١

- فقال رجل : فعهد الله ؟ قال : عهد الله أحق ما أدى .
- ٢ - أَدَّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تَخُنْ من خانتك (١) .
- ٣ - من انتهب فليس منا (٢) .
- ٤ - من ظَلَمَ قَيْدَ شِبْرٍ من الأرض طَوْفَهُ من سَبْعِ أَرْضِينَ (٣) .
- ٥ - كلکم راع وكلکم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ، وهى مسئولة عن رعيته ، والخادم راع في مال سيده ، وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته فكلکم راع ، وكلکم مسئول عن رعيته (٤) .
- ٦ - لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا صلاة له (٥) .
- ٧ - أيما رجل أصاب مالا من غير حِلِّهِ ، وأنفق منه لم يبارك له فيه ، وإن تصدق لم يقبل منه ، وما بقى فزاده إلى النار ، إن الخبيث لا يُكْفَرُ الخبيث ، ولكن الطيب يكفر الطيب (٦) .
- ٨ - لن تزال أمتى على الفطرة ما لم يتخذوا الأمانة مَغْنَمًا والزكاة مَغْرَمًا (٧) .
- ٩ - من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله (٨) .
- ١٠ - لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت (٩) .
- ١١ - أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة

(١) ال (٧) كنز العمال ١٥/٢ وتيسير الوصول ٣١/١

(٨) فتح المبدى ٢٢٨/٢ والجامع الصغير ٢٤٢/٢

(٩) . الجازات النبوية ٨٩ .

منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا أوْثمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر (١) .

١٢ - قال أبي بن كعب : وجدت صُرة فيها مئة دينار ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : عَرَّفْها حَوْلًا فعرفتها ، فلم أجد من يعرفها . ثم أتيتها فقال عرفها حولا ، فعرفتها فلم أجد من يعرفها ، ثم أتيتها ثانياً فقال : احفظ . وعامها وعددها ووكاءها ، فإن جاء صاحبها ، وإلا فاستمتع بها (٢) .

١٣ - إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها (٣) .

١٤ - إني لَأَنْتَقِلِبُ إلى أهلي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ ساقطة على فراشي ، فأرفعها لأكلها ، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها (٤) .

١٥ - إن أطيّب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا أوْثمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يظروا ، وإذا كان عليهم لم يمتطلوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا (٥) .

١٦ - أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة : وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة في طعمة (٦) .

(١) فتح المبدى ٦٥/١

(٢) فتح المبدى ٢٣٥/٢ هذه هي اللفظة وهي كل مال ضائع لا يعرف مالكة وأكثر ما تطلق على غير الحيوان ، لأن الحيوان يقال له ضالة ، الوكاء : ما يشد على رأس العرة والكيس وإنما أمره بذلك ليعرف صدق مديها ، ولئلا تختلط بماله

(٣) الجامع الصغير ٢٥٠/١

(٤) فتح المبدى ٢٣٤/٢

(٥) الجامع الصغير ٣٢٠/١

(٦) مسند أحمد ١٨٢/١٠

الفصل التاسع

الصبر

حقيقته

العلماء مختلفون في تعريف هذه الفضيلة اختلافاً كبيراً ، وهذا عرض وجيز لتعريفهم ، ثم تعقيب عليه بما أراه .

١ - فهو كما قال الغزالي الصبر على الأذى ، واحتمال الجفاء ، ومن شكا من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه ، فإن حسن الخلق احتمال الأذى^(١) .

وقال في موضع آخر إن الصبر ثباتُ باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهو ضربان :

بدني كتحمل المشاق في الأعمال والعبادات ، وهو محمود إذا وافق الشرع .

وضرب آخر هو الصبر النفسى عن مشتبهيات الطبع ومقتضيات الهوى .

فإن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة .

وإن كان على احتمال مكروه في مصيبة سمي صبراً ، وضده الجزع والهلع .

(١) الاحياء ٦١/٣

وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ، وضده البطر .
وإن كان في حرب سمي شجاعة ، وضده الجبن .
وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلما ، وضده التذمر .
وإن كان في نائبة من نوائب الدهر سمي سعة الصدر ، وضده الضجر والتبرم .
وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر .
وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا ، وضده الحرص .
وإن كان على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ، وضده الشره .
فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر ، ولذلك لما سئل النبي عن الإيمان مرة قال : « هو الصبر » ، لأنه أكثر أعماله وأعزها ، كما قال : « الحج عرفة (١) » .

ويتبين من هذا أن الإمام الغزالي قصر الصبر على بعض ما تدل عليه الكلمة من صبر على الأذى واحتمال المكروه ، ثم توسع في دلالتها توسعا شمل كثيرا من الفضائل كالعفة والشجاعة والعلم وكتمان السر والزهد والقناعة .

والحقيقة أن بعض الفضائل متشابكة متداخلة كالصبر والعلم ، وبعضها أوسع نطاقا من بعض ، كالعدل فإنه يشمل الأمانة ، وكالعفة فإنها أشمل من القناعة ، ولكن هذا لا يقتضي أن ندمج فضيلة في أخرى . فنجعل العفة والشجاعة والزهد وكتمان السر صبرا ، لأن هذا الإدماج

(١) الاحياء ٥٨/٤

يفقد بعض الفضائل كيائها واستقلالها وإيحاءها الخاص ؛ وليس من الصواب أن نتكلف فنحشد عدة فضائل في فضيلة ، أو نحشد الفضائل كلها في فضيلة واحدة .

٢ - وقال بُولُزِن الألمانى : الصبر هو احتمال الآلام بدون أن تذهب بنفس الشخص ، وهو نوعان : نوع يرجع إلى الاحتمال ، ونوع يرجع إلى الفاعلية .

فالأول احتمال الآلام من غير تدمير ولا معارضة .

والثانى قوة فى الخاطر ، بحيث يجد الشخص من نفسه قدرة على النهوض والإقدام على العمل مرة ثانية بعد انكسار أو خسارة أو نحوهما (١) والذى ألاحظه أن الشق الأول من التعريف ينطبق على الصبر ، أما الشق الثانى فإنه يتصل بقوة العزيمة ، وصلابة الإرادة ، وتجدد الأمل ، وهذا ليس صبرا بل هو من ثمرات الصبر .

٣ - أما التعريف الذى أختاره للصبر فإننى أستنبطه من القرآن الكريم .

وذلك أن الذى يتعقب كلمة الصبر فى كتاب الله يجدها ذات دلالات ، لا تتعدى الثبات والجلد واحتمال المكاره فى غير ما قلق أو خور أو جزع .

وهذه الدلالات هى :

١ - الصبر على القيام بما فرض الله من عبادات وطاعات ، وهو يمثل

(١) الاخلاق ١٠١ عبد الرحمن زغلول

الإذعان لأمر الله ، والمقدرة على كبح الهوى ، والتغلب على الإغراء
بالعصيان أو التهاون .

ب - الصبر في حماية الدين والوطن ، وفي الكدح لكسب الرزق ،
والكد في مجالي الإنتاج ، والجد في العمل .

وهو يبعث الأمل ، ويجدد النشاط ، ويشمذ العزم .

ج - الصبر على احتمال الأذى في الدعوة إلى الحق ، وفي الكشف عن
الضلال ، وفي تبصرة الناس بالخير .

وهو المصباح الذي يهدي البشر إلى معارج الكمال .

د - الصبر في تقبل قضاء الله بتسليم وإذعان ، حين فقد الأعزاء ،
وموت الأحباء ، ونزول الأمراض ، وحدث النكبات .

وفي هذا الصبر تماسك وجلد ، وبعد عن الجزع الذي يضحخم الكوارث
ويضعف القوى ويستدعي السخط .

وهذا هو الذي يفهم من الآيات الكريمة ، سواء أكانت خطاباً للنبي
عليه الصلاة والسلام ، أم خبراً عن غيره ، أم توجيهاً للمسلمين .

قال تعالى : «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ»^(١) ، فقد
ثبتوا صابرين على المكاره ، مثل نوح إذ كان قومه يضربونه حتى يُغشى
عليه وإبراهيم إذ ألقى في النار ، ويعقوب إذ فقد ابنه يوسف وفقد
بصره ، وآيوب إذ صبر على الضر^(٢) .

وقال سبحانه : «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ، وَلَا تُكِنُّ كَصَابِحِ الْخَوْتِ إِذْ

(١) سورة الاحقاف ٣٥

(٢) الكشاف ٢/٣٧٥

نادى وهو مَكْظُومٌ^(١) ، أى لا تكن مثل يونس إذ نادى فى بطن الحوت وهو مملوءٌ غيظاً ، لأنك لو ضجرت كضجره ابتليت ببلائه .

وقال تعالى : «واصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا^(٢)»
أى اصبر على أذى الكفار ودعواهم الباطلة ، وقد كان هذا قبل الأمر بقتالهم .

وقال سبحانه : «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ، فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ، وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ عَآثِمًا أَوْ كَفُورًا^(٣)» .

أى فانتظر فى ثبات حكم ربك المتعلق بحكمته وتعليقه الأمور بالمصالح ، وتوقيعه الأحداث بعلمه وتدبيره ، ولا تجزع من تأخر نصر الله لك على أعدائك من أهل مكة ، ولا تطع أحدا منهم ضعفاً أو قلقاً أو ضجراً من إمهال الظفر .

وقال تعالى : «وإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ^(٤)» .

فهنا أمر بالعدل فى الشار ، وترجيح للصبر على الأذى ، وإيثار لاحتمال الألم من ترك العقوبة على السيئة بمثلها .

وقال تعالى : «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا . وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا^(٥)» .

-
- (١) سورة القلم ٤٨ مكظوم : مملوء غماً فى بطن الحوت
(٢) سورة المزمل ١٠ هجراً جميلاً : لاجزع فيه
(٣) سورة الانسان ٢٣-٢٤
(٤) سورة النحل ١٢٧
(٥) سورة الانعام ٣٥

وقال تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » (١) .

فاحتمال الخوف والجوع ونقص المال وفقدان الأنفس صبر . والمحمود في هذه الحالات الاسترجاع ، لأنه دليل التسليم والإذعان ، ولهذا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته ، وأحسن عقوبته ، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه .

وذكر تعالى من الأبرار « وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ » (٢) وهم الثابتون في الفقر والشدة وفي المرض والزمانة ، وفي ميادين الجهاد . وقال تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » (٣) .

وقال سبحانه : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ ، وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » (٤) ، والمراد بعلمه سبحانه ما يتعلق العلم به من جهاد وصبر على الجلال .

وقال تعالى : « لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (٥) .

-
- (١) سورة البقرة ١٥٥-١٥٧
 (٢) سورة البقرة ١٧٧ البأساء : شدة الفقر . الضراء : المرض . حين البأس : شدة القتال في سبيل الله
 (٣) سورة محمد ٢١
 (٤) سورة آل عمران ١٤٢
 (٥) سورة آل عمران ١٨٦

والمراد بالبلاء في الأموال حدوث آفات لها ، وإنفاقها في سبيل الخير ،
والمراد بالبلاء في الأنفس القتل والأسر والجراح والمخاوف ، وأما الأذى
الكثير فهو ما ينشأ عن طعن أعدائهم في الإسلام ، وصددهم من أرادوا
الإيمان ، وتسفيههم من آمنوا ، وهجاء المشركين واليهود للنبي والمسلمين .
واحتمال هذا كله صبر وقوة عزيمة .

٤ - وقد تردد الصبر في نيف وسبعين موضعاً من القرآن الكريم ،
وصف الله فيها الصابرين بعدة أوصاف ، ووعدهم بدرجات عالية من
الثواب والخير والتأييد ، مثل قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ^(١) » .

وقوله سبحانه : « وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ^(٢) » .

وقوله تعالى : « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ^(٣) » .

وقوله سبحانه : « إِنَّمَا يُؤِتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(٤) » .

وقوله تعالى : « وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ^(٥) » .

وقوله سبحانه : « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ،
وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ^(٦) » .

(١) سورة السجدة ٢٤

(٢) سورة النحل ٩٦

(٣) سورة القصص ٥٤

(٤) سورة الزمر ١٠

(٥) سورة الأنفال ٤٦

(٦) سورة الأنفال ٦٥ .

مظاهره

قضى رسول الله ثلاثاً وعشرين سنة يدعو إلى التوحيد الخالص عبدة الأوثان واليهود والنصارى ، دعوة قوية لا يخفُّ صوتها ، ولا ينقطع صداها ، وهم يجدون في هذه الدعوة تسفيهاً لعقولهم ولاهتهم ، وتقويضاً لسلطانهم ونفوذهم ونظمهم ، فيحشدون قواهم لوأدها أو لتعويق انتشارها ؛ فلا يزداد الرسول إلا حماسة لدعوته وإصراراً عليها ، وكلما أمعنوا في إيذائهم له تعالى على الأذى ، فاحتمله في ثبات وجلد وصبر ، ثم أذن الله له في الجهاد فجاهد حتى كتب الله لدينه النصر ، فصار أعداء الأُمس أصدقاء اليوم ، وأقبل المشركون على دين الله أفواجا يحملون شعاره ، ويرفعون مناره ، ويفدون به أغلى ما يُفتدى به عزيز .

١ - لقد صبر الرسول على جراح الألسنة ، وإنها لأليمة في مجتمع يحرص على الثناء وحسن الأُخْدُوثة. أيما جرح ، وينفر من المذمة والهجاء أيما نفور ، لأن الألسنة تقوم فيه مقام الصحف والإذاعة ووسائل الإعلام في المجتمع المعاصر ، حتى لقد كان بعض السَّراة يغدق على الشعراء استدرارا لمذائحهم واتقاء لهجائهم .

وكان رسول الله في مطلع الدعوة أشد ما يكون شوقاً إلى أن يصدقه قومه ، ليرفعهم من الضلالة إلى الهدى ، ومن العمَاية إلى الرشاد ، وكان موسوماً بينهم بالعقل والحكمة والصدق والأمانة والعفة ، لم يسمعوا منه كذبة قط . ، ولم يتناقلوا عنه نقيصة قط .

ولكنهم عاندوا الحق ، واستكبروا أن يتخلوا عما ألفوا عليه آباءهم ، فجرتهم الخصومة الحمقاء إلى أن يعمدوا إلى الافتراء ، فإذا هم يتهمون الرسول

بأنه حالم يهذى بما تراءى له في المنام ، وإذا هم يصوبون إليه تهمة باطلة يعلمون أنه منها براء ، فينسبون إليه الكذب والادعاء ، وإذا هم يلصقون به ما تعارفوا عليه في شعرائهم من تخيل ومبالغة ومهارة في التأثير والاستهواء ، ثم يتمادون في السفه فيتهمونه بالجنون وهو سيد العقلاء . قال تعالى : « بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، بَلْ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ، فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (١) » .

وقال تعالى : « ويقولون أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٢) » .
وقال تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (٣) » .
أي ننتظر به حوادث الدهر فنتخلص منه بموت أو بحادث مهلك .
وقال سبحانه : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٤) » .
وقد نفى عنه الخالق سبحانه أراجيفهم بقوله : « وما هو يقول شاعر ، تَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ، وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٥) » .
وبقوله : « فَذَكِّرْ ، فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٦) » .
وبقوله : « ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٧) » .
٢ - وكثيرا ما آذوه بأفعال قبيحة مصدرها الحنق والطيش والسفه والاستهانة ، يريدون أن يصدوه عن دين الله ، ويريدون أن يوتسوه

(١) سورة الانبياء ٥

(٢) سورة الصافات ٣٦

(٣) سورة الطور ٣٠ المنون : الهلاك والموت

(٤) سورة الحجر ٦

(٥) سورة الحاقة ٤١-٤٢

(٦) سورة الطور ٣٩

(٧) سورة القلم ١-٣

من نجاح دعوته ، وأن يفضوا أتباعه من حوله ، فكان يتلقى قبائحهم بالصبر الذي يشق طريقه إلى النصر ، وبالجلد الذي يغلب بحكمته جهلهم ، ويفوت عليهم أغراضهم ، إذ كان هذا الصبر العظيم دليلاً على أن الرسول صادق مبلغ عن ربه ، وإلا ما احتمل هذا العدوان ، وهو لا يطلب مُلكاً ، ولا يبتغى جاهاً ، ولا يتطلع إلى مال ، فجعل الناس يقبلون على الإسلام فرادى وجماعات ، وجعلوا يتحملون أذى المشركين في شجاعة وثبات ، وهم يودون أن يفتدوا رسول الله مما يحتمل من عدوان وإعنات .

وهذه بعض صور من صبر الرسول على الإيذاء بالأعمال :

١ - قال ابن مسعود: كنا مع رسول الله في المسجد وهو يصلي ، فقال أبو جهل ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بني فلان ، فيلقيه على علي محمد وهو ساجد

فقام عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ ، وجاء بذلك الفرث ، فألقاه على النبي وهو ساجد ، ولم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على حماية النبي أو على رمي القدر بعيداً عنه ، لأنهم كانوا حينئذ ضعافاً . ولم يزل الرسول ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته ، فرمت القدر بعيداً عنه .

ب - كان عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ جارا لرسول الله ، وكان يؤذيه كما يؤذيه نجاره الآخرعه أبو لهب وامراته أم جميل بنت حرب بن أمية ، وقد صنع عقبة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم الرسول ، فقال الرسول : والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله ، فتشهد ، فبلغ ذلك أبا بن خلف الجمحي ، وكان صديقاً لعقبة ، فقال : يا عقبة ،

ما شيء بلغني عنك؟ قال: لا شيء، دخل منزلي رجل شريف،
فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له، فاستحييت أن يخرج
من بيتي ولم يطعم، فشهدت له.
قال أبي: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ عنقه،
وتبزق في وجهه، وتلطم عينه.

فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فوطئ عنقه وهو
ساجد عند الكعبة، حتى كادت عيناه تبرزان، فأنزل الله فيه
قوله: «وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ
مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا، لَقَدْ
أَضَلَّنِي مِنَ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا» (١)

ح - قال أبو جهل - عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي -:
يا معشر قريش، إن محمدا قد أتى ما ترون من عيب آلهتكم،
وتسفيه أحلامكم، وسب آبائكم، وإني أعاهد الله لأجلسن
له غدا بالحجر، فإذا سجد في صلاته شذخت به رأسه، فأسلموني
عند ذلك أو امنعوني.

فلما أصبح حمل حجرا ضخما، وجلس ينتظر رسول الله،
وأقبل الرسول إلى صلاته، وقريش في ناديتهم ينتظرون ما يفعل
أبو جهل، فلما سجد الرسول أقبل أبو جهل نحوه بالحجر،
حتى إذا دنا منه ارتد مذعورا ممتقع اللون، وألقى الحجر من يده،
فقام إليه رجال من النادی يسألونه: ما بك يا أبا الحكم؟

(١) سورة الفرقان ٢٧-٢٩

قال : دنوت منه لأرْضُخْ رأسه بالحجر ، فعَرَصَ لى فحل من الإبل ما رأيت مثله قط . ، همَّ بى لياكُنّى .

د - كان نفر من جيران رسول الله يؤذونه ، فيطرح عليه أحدهم رِجَمَ الشاة وهو يصلى ، ويطرح الآخر رحم الشاة في قِدره إذا نُصِبَتْ له ، حتى اتخذ الرسول حجراً يستتر به منهم إذا صلى ، وكان إذا ما طرحوا عليه الأذى يحمله على عود ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : يا بنى عبد مناف ، أى جوارٍ هذا ، ثم يلقيه في الطريق (١) .

هـ - انتهزت قريش وفاة السيدة خديجة - وكانت للرسول مصدر حنان ونَجَى نفس وخير معين - ووفاة عمه أبى طالب - وكان له عضدا وحامياً ونصيراً - وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، فأمعنت فى الأذى ، وطمعت فيما لم تكن تطمع فيه وأبو طالب حى ، فاعترضه سفيه من قريش ، فحشا على رأسه ترابا ، فدخل الرسول على بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل التراب عنه وهى تبكى ، وهو يقول لها : لا تبكى يا بنية ، فإن الله مانعٌ أباك . (٢)

و - لما مات أبو طالب واشتدت قريش فى إيذاء النبی خرج إلى الطائف ، فعمد إلى نفر من ثَقِيف هم يومئذ سادتها ، فجلس إليهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، واستنصرهم على من خالفوه من قومه ،

(١) سيرة ابن هشام ٥٧/٢

(٢) سيرة ابن هشام ٥٨/٢

فقال له أحدهم : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ وقال الآخر :
أَنْزِعْ أَسْتَارَ الكعبة وأرميها إن كان الله قد أرسلك ، وقال
الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما
تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، واثن : كنت
تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك .

فقام الرسول من عندهم بائساً من ثقيف ، وقال لهم :
أما وقد فعلتم ما فعلتم فاكموا غنى ، لأنه خشي أن يعلم قومه
بما حدث له فيزدادوا جرأة عليه ، ولكنهم لم يستجيبوا له ،
وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونهم ويصيحون به ،
حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى بستان ، فاستظل
بكرمة فيه .

فلما اطمأن قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ،
وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ،
وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهنني ^(١) - أم إلى
عدو ملكته أمري ؟

إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي
أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ،
وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ،
أو يحل علي سخطك .

لك العُتي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ^(٢) .

(١) يتجهنني : يلتقاني بوجه كربه
(٢) سيرة ابن هشام ٦١/٢

٣ - ثم هاجر النبي من مكة إلى المدينة ، فتعقبوه ، وتتابعته محاربتهم له ، وكثيرا ما جمعوا جموعهم من قبائل شتى ، للقضاء على المجتمع المثالي بالمدينة ولقد غدر يهود المدينة بعهدهم مع رسول الله ، فانضموا إلى المشركين تارة ، وحرصوهم على حربه تارة ، وأعماهم الحق فزعموا لمشركي قريش أن لوثنية خير من دين محمد .

وكانت الحروب بين المسلمين وأعدائهم متصلة متلاحقة ، فلا يكاد المسلمون يتخففون من سلاحهم حتى ينذرهم الأعداء بحرب ، فيسارع المسلمون إلى حمل السلاح ، ولا يكادون يطمئنون إلى معاهدة أو هدنة حتى يفاجئهم خصومهم بالغدر ونقض العهد ، فيعجلون إلى سيوفهم ورماحهم . ولقد انتصر النبي في بدر والخندق وغيرهما ، ولكنه فقد كثيرا من خلصائه وأحبابه ، فصبر .

وانحرفت ريح النصر عن المسلمين في غزوة أحد ، وجرح النبي ، وكُسِرَتْ رِباعيته (١) ، وشُجَّ في وجهه ، وجرحت شفته ، وسال الدم على وجهه ، ورأى عمه الحبيب حمزة قتيلا مبقور البطن ، فصبر . ولم يؤثر عنه في تلك الموقعة المشيرة أنه دعا على قومه دعوة مُبيرة ، بل كان يمسح دمه وهو يقول : كيف يفلح قوم خَضَبُوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم (٢) ؟ وأثر عنه في مأزق آخر أو في يوم أُحُد أنه كان يقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (٣) .

(١) الرباعية : السن التي بين الناب والثنية

(٢) سيرة ابن هشام ٨٤/٣ وفتح البدي ٣٢٧/٢ وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٢٥/٢

(٣) الاحياء ٦١/٣ واللؤلؤ والمرجان ٢٦٤/٢

٤ - وقد كان الصبر شيمته وهو يفقد فلذات كبده^١ وأغلى ثره وبُضْعاً من نفسه ، فإنه فقد قبل البيعة طفليه القاسم وعبد الله - الملقب بالطاهر والطيب - ، ثم فقد بعد البيعة كريماته زينب ورقية وأم كلثوم بعد أن تزوجن:

ثم رزقه الله بإبراهيم ، بعد شوق طويل إلى الولد ، ففرح به أعظم الفرح ، ووجد فيه عوضاً عما فقد ، وأمل أن يبقيه الله ، ليسعد به في شيخوخته ، وليكون له عقيلاً وذكرى ، ولكن إبراهيم لم يبلغ ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر حتى مرض ، فلما كان في الاجتضار أخبر النبي . فاعتمد على عبد الرحمن بن عوف لشدة ألمه ، ومشى حتى رأى إبراهيم في حجر أمه وهو يصعد آخر أنفاسه ، فوضعه في حجره والحزن يعتصر قلبه العظيم ، وقال : إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً . ثم صمت . وبكى .

فلما أيقن أن إبراهيم قد ودع الحياة سال الدمع من عينيه وهو يقول : يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق ، وأن آخراً سيلحق بأولنا لحزننا عليك أشد من هذا .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال : يا بن عوف ، إنها رحمة . ثم أتبعها عبد الرحمن بأخرى ، فقال النبي : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون (١) .

كان النبي في الستين من عمره وهو يشيع ابنه الحبيب ، شاعرا

(١) اللؤلؤ والمرجان ١٣٢/٣ ومصحح مسلم ٧٥/١٥

بفداحة الخطب ، لكنه راض بقضاء الله ، صابرا لما أراد ، حتى إنه قال
للجبل الذي أودع فيه حبيبه : يا جبل لو كان بك مثل ما بي لهدك ،
ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون .

ولما رأى المسلمون حزن النبي حاولوا أن يواسوه ، فقال لهم : ما عن
الحزن نُهيئتُ ، وإنما نُهيئتُ عن رفع الصوت بالبكاء ، وإن ما ترون بي أثرُ
ما في القلب من محبة ورحمة ، ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره عليه رحمة ،
وإنما يرحم الله من عباده الرحماء (١) .

حضه على الصبر

لقد علم النبي المسلمين الصبر عملا ، وعلمهم الصبر إرشادا وقولا ،
فحضرهم على الصبر ، وحبه إليهم ، ونفرهم من الجزع ، وبغضه لهم .
وله في هذا أحاديث كثيرة ، منها قوله :

١ - ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى إنا لله
وإنا إليه راجعون ، اللهم أوجرنى في مصيبتى ، وأعقبني خيرا منها ، إلا
فعل الله به ذلك (٢) .

٢ - ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات (٣) عنه خطاياها كما يحات
ورق الشجر (٤) .

٣ - في الصبر على ما تكره خير كثير (٤) .

٤ - أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس (٥) .

(١) الاحياء ٦٤/٤

(٢) (٥) الاحياء ٥٤/٤-٦٣ وكنز العمال ٥٧/٢ حات : ساقط

٥ - دخل رسول الله ﷺ على جماعة من صحابته ، فقال : أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله . قال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة (١) .

٦ - أتى بعض المسلمين رسول الله ﷺ وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة ، فشكوا إليه فقالوا : يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمراً لونه ، ثم قال : إن من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيُحفر له في الأرض حفيرة ، ويُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل فرقتين ، ما يَصْرِفُهُ ذلك عن دينه (٢) .

٧ - إن الله تعالى قال : إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيهِ (٣) فصبر عوضته منهما الجنة .

٨ - الصبر نصف الإيمان (٤) .

٩ - الصبر من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد (٥) .

١٠ - نعم صلاح المؤمن الصبر والدعاء (٦) .

١١ - ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية (٧) .

(١) الاحياء ٦٣/٥٤/٤ وكنز العمال ٥٧/٢

(٢) الاحياء ١١٤/٤

(٣) المراد فقد عينه

(٤) فتح المبدى ٢٨٣/٢٨٢/٣ وكنز العمال ٥٦/٢

(٥) كنز العمال ٥٦/٢

(٧) فتح المبدى ٣٥/٢ وصحيح مسلم ١٠٩/٢

الفصل العاشر

الحلم

ما الحلم

لعل خير معين لنا على تعريف الحلم أن نتعرف الغريزة التي إذا ما تغلب الحلم عليها كان فضيلة .

فما هذه الغريزة؟ إنها الغضب الذي يدعو إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، أو إلى التشنئ والانتقام بعد حدوثها ، فلا تسكن هذه الغريزة ولا ترضى إلا بالثأر والانتقام .

وقد قسم الغزالي الناس في غريزة الغضب إلى ثلاث درجات (١) ، هي درجة التفريط. حينما تضعف هذه الغريزة أو تَمَحَّى ، وهم الذين يقال فيهم لا حَمِيَّةَ لهم ، وهذه حالة مذمومة ، ولذا قال الإمام الشافعي : من استَغْضِبَ فلم يغضب فهو حمار ، وهؤلاء المفرطون لا يأنفون مما يجب أن يأنف منه الحر ، كالمذلة والتعرض للحُرْم .

والدرجة الأخرى درجة الإفراط ، وهي أن تتغلب غريزة الغضب حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، فلا يبقى للمرء بصيرة ونظر وفكرة

(١) الاحياء ١٤٤/٣

واختيار ، وهذه الحالة مردودة إلى أمور غريزية فطرية ، وإلى أمور اعتيادية ، كأن يخالط. قوماً يتبجحون بطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة .

وهذا الإفراط مذموم ، لأنه يُعْمِي صاحبه وَيُصِمُّهُ عن كل موعظة ، وَيُسْلِسُ قياده لهواه لا لعقله ، وينطقه بقبيح من الكلام ، ويدفعه إلى العدوان بالضرب أو القتل ، فإن عجز عن هذا فربما عاد على نفسه بالإهانة أو كسر ما أمامه ، ويبدو هذا الغضب الثائر متغير اللون ، مرتعد الأطراف ، مضطرب الحركات ، محمرّ العينين ، ولو أنه رأى صورته في حال غضبه لسكن غضبه حياء من قبحها .

وأما الدرجة المحمودة فهي الاعتدال ، وهو الغضب التابع للإشارة العقل والدين ، لأنه ينبعث حيث تجب الحمية ، وينطق حيث يحسن الحلم .

لهذا وصف الله سبحانه وتعالى أصحاب النبي بالشدة والحمية ، فقال : « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ^(١) » . وقال للنبي : « جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ^(٢) » ، وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية والغضب :

١ - فالحلم في رأى أرسطو وسط- بين سرعة الغضب والبلادة ، وليس الغضب مذموماً إذا كان خاضعاً للعقل ؛ أما المذموم فهو الغضب على من لا يستحق الغضب ، أو الغضب لأسباب لا تستدعيه ، أو على وجه أكثر مما ينبغى ، أو بأسرع مما ينبغى ، أو الغضب زمناً أطول مما يليق ^(٣) .

(١) سورة الفتح ٢٩ .
(٢) سورة التوبة ٧٣ .
(٣) علم الاخلاق ٣٥/٢

وهو عند الغزالي انكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، وفي رأيه أنه يبدأ بالتحلم^(١) ، أو بكظم الغيظ ، وليس يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من حاج غيظه فجأهده مجاهدة شديدة ، فإذا تعود ذلك مدة صار الحلم خلقاً له ، فلا يهيج غيظه ، وإن حاج لم يتعب في كظمه^(٢) ، والحلم الطبيعي دلالة على كمال العقل وسيطرته على قوة الغضب^(٣) . وعرفه صمويل سميلز بأنه ضرب من ضروب الشجاعة ، مقصور على الإنسان ، لأن الشجاعة بإطلاقها العام يتصف بها الإنسان والحيوان ، ولهذا عرف شكسبير الإنسان بأنه مخلوق يتدبر عواقب الأمور^(٤) .

وَأدمج بعض الدارسين الحلم في فضيلة أخرى هي ضبط النفس : بل سموا الحلم ضبط النفس ، وقالوا إنه ليس من المغالاة أن نعتد ضبط النفس أصل كل فضيلة ، لأنه الواقى من الانحراف إلى الرذيلة والخضوع للأهواء ، ومن تجاوز الحد والظلم والغرور ، ولهذا لم يثن الإنجيل على القوى الفانح ، بل أثنى على القوى الذى يكبح جماح نفسه ، ويسيطر على فكره وقوله وعمله .

٢ - لكننا لانستطيع أن نتبين الحلم تبيناً دقيقاً من تعريف أرسطو ، لأن الوسط غير محدد ، وغير معلوم ، وصالح لأن يكون في بعض الأحيان وفي نظر بعض الناس أقرب قليلاً أو كثيراً إلى الغضب أو إلى البلادة .

(١) التحلم : تكلف الحلم .

(٢) الاحياء ١٥٤/٣

(٣) الاحياء ١٥٣/٢

(٤) الاخلاق ٨٩/٢ صمويل سميلز .

وخير من تعريف أرسطو تعريف الغزالي ، لأنه يؤسس الحلم على زوال الغضب ، وعلى سيطرة العقل .

أما تعريف سميلز فإنه مرن عام لا يُعَيِّنُ الحلم ، ولا يُمَيِّزُهُ ، ومثله في هذا تسمية الحلم بضبط النفس .

على أن الحلم ليس تفريطاً في الغضب ، ولا إفراطاً ولا اعتدالاً ، وإن كان الحلم موصولاً بغريزة الغضب ومتعلقاً بها واقتداراً عليها ، لأن الحلم يناقِ الإفراط والتفريط والاعتدال ، فالإفراط هُيَاج ، والتفريط انكسار وهران ، وهما رذيلتان ، أما الاعتدال فإنه غضب محمود ، ولكنه ليس حلماً ، وليس الحلم منه .

٣ - فهل نستطيع أن نعرف الحلم بأنه تحمل الأذى مع القدرة على رده بمثله ؟

وذلك أن الذي لا يتحمل الأذى فيغضب سواء أ تجاوز الحد أم اعتدل ، لا يسمى حليماً .

والذي يحتمل الأذى وهو غير قدير على مقابله بالمثل ضعيف عاجز يسمى صابراً ولا يسمى حليماً .

والذي يحتمل ضرور القضاء ونكبات الدهر في النفس أو في المال صابر لا حليم ، لأنها مما يجب عليه أن يخضع له في إذعان وتسليم .

بين الحلم والصبر :

١ - قد تتداخل هاتان الفضيلتان ، حتى لثلبس كل منهما بالأخرى ، وتدل عليها .

وكثيرا ما نجد في كتب الأخلاق هذا التعابر والاشتباك ، سواء في ذلك كتب القدماء وكتب المحدثين ، فليس في أحدها تمييز قاطع أو تفريق حاسم . .

والحق أن الحلم والصبر متقاربان كما ذكر القاضي عياض^(١) ولهذا صلح أحدهما لأن يدل على الآخر في قوله تعالى : « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »^(٢) .

فإن احتمال هذا الأذى صبر أو حلم .

وقوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ »^(٣) .

فإن ترك العقوبة هنا صبر أو حلم .

وقوله تعالى : « وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا »^(٤) .

وهما متداخلان في قول الرسول : - لما قسم ما لا فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فاحمرت وجنتا الرسول - يرحم الله أخى موسى ، لقد أؤذى بأكبر من هذا فصبر .

٢ - لكنهما مع هذا الالتباس يختلفان :

فالحلم كف النفس عن الشر أو مقابلة الأذى بمثله ، أما الصبر فهو احتمال المكروه . كفقْد عزيز ، أو مرض عضال ، أو كارثة ، أو ضياع مال .

(١) الشفا ٨٠/١
(٢) سورة آل عمران ١٨٦
(٣) سورة النحل ١٢٦
(٤) سورة الزمل ١٠

والحلم منوط بالقدرة على العقوبة أو الانتقام ، على حين أن الصبر موصول بما لا طاقة به للإنسان .

والحلم نقيض الغضب ، والغضب مظهر من مظاهر الثورة وعدم الاحتمال المقرون بالتحدي ، أما الصبر فنقيض الجزع ، والجزع سمة دالة على الضعف وعدم الاحتمال المقرون بالاستسلام والعجز عن التحدي .

مظاهره

كان الرسول عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى في الحلم ، لأن الله أدبه فأحسن تأديبه ، وأمره بقوله : « خُذِ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ، فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » (١) وبقوله : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (٢) .

ففي الأمر الأول أمرٌ بالحلم وبالاستعاذة بالله عند الغضب والنزوع إلى الانتقام .

وفي الأمر الثاني مساواة بين كظم الغيظ والبذل في سبيل الله والعفو عن الناس .

فإذا علمنا أن كظم الغيظ أقل شأناً من الحلم تبينت فضيلة الحلم ، لأن كظم الغيظ تحلُّمٌ وتكْلُفٌ للحلم ، ولا يحتاج إلى كظم غيظه إلا من

(١) سورة الاعراف ١٩٩-٢٠١

(٢) سورة آل عمران ١٣٣-١٣٤

هاج غيظه ، فهو يجاهده ، فإذا تعود هذه المجاهدة صار الكظم عادة ، فلا يشور غيظه ، وإن ثار سهل عليه قمعه والسيطرة على جيشاته .

وكان عليه الصلاة والسلام القدوة في سعة الصدر وسماحة النفس التي تليق بمكانته ورسالته ، فهو صاحب دعوة جديدة يعاندها أكثر الناس ، وفيهم الأفوياء والضعفاء ، والحمقى والعقلاء ، والأقارب والبعداء ، وفيهم الذين يسألون أو يجادلون ليتبينوا ، والذين لا يريدون من الجدل إلا اللجاج والعناد ، والحلم في كل حال من هذه الحالات هو القوة النفسية التي لا تغنى قوة غذاءها .

وهو عليه الصلاة والسلام المعلم الأول ، مبلغاً عن ربه ، ومفضلاً وموضحاً ومطبقاً لما أوحى إليه ، يذهب إليه هذا فيسأله ، ويلقاه ذاك فيستزيده ، ويجلس إليه آخر فيستغنيه ، ويحار أناس في حكم فيستوضحونه ويحزب الأمر آخرين فيسرعون إليه يلتمسون عنده الرأي الذي يجهلونه : ومن بين هؤلاء كبار وشباب ، ورجال ونساء ، وذوو كياسة ولباقة . وأصحاب غلظة وجفاء ، ومسلمون أشربت قلوبهم الإيمان ، ومسلمون حديثو عهد بالإسلام ، وأذكياء تكفيهم الوجازة ، وآخرون يعوزهم الذكاء ولا يغنيهم إلا التفصيل ، فلا بد من صدر رحيب يتسع لهؤلاء . ولا بد من حلم يسرع ما قد يبادر مقصوداً أو غير مقصود ، ولا بد من ضبط النفس عند الضيق والغضب وما ينجم عنهما من آثار .

كان الحلم من شمائل المصطفى ، وكان من الوسائل التي جذبت إليه النفوس ، وألفت حوله القلوب ، وصدق الله العظيم في قوله : «فِيمَا

رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا. الْقَلْبَ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (١) .

أما مظاهر هذا الحلم فكثيرة ، منها :

١ - بعد أن انتصر النبي على بنِي الْمُصْطَلِقِ تنازع بعض الأنصار وبعض المهاجرين ، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ الخَزْرَجِيُّ : قد نافرنا المهاجرون وكاثرونا في بلادنا ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، فسمع بذلك رسول الله وعنده عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : مر به عَبَّادُ بْنُ بَشْرٍ فليقتله ، فقال الرسول : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أَدِّنْ بِالرَّحِيلِ ، وذلك في ساعة لم يكن الرسول يرتحل فيها ، فارتحل الناس فاما ساروا قال له أُسَيْدُ بْنُ حُصَيْرٍ : يا نبي الله ، والله لقد رُحَّتْ في ساعة منكراً ما كنت تروح في مثلها ، فقال له الرسول : أو ما بلغك ما قال صاحبكم [قال : وأَيُّ صاحب [قال : عبد الله بن أُبَيٍّ . قال : وما قال [قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ . قال : فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً .

ثم مشى رسول الله بالناس يومهم حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل بهم ، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الْأَرْضِ فوقعوا نياماً .

وإنما فعل بهم ذلك ليشغلهم عن الحديث الذي كان بالأمس .
ثم عرض ابنه على النبي أنه إن كان لا بد من قتله فليقتله ابنه ، فقال
له رسول الله : بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا (١) .

لقد كان الرسول هنا في حل من أن يغضب ، وكان في حل من أن
يعاقب عبد الله بن أبي على الفتنة التي يوقد نارها ، لكنه حلم عليه ،
فأبى أن يرضى بقتله ، وأبى أن يتوعده بالطرد من المدينة ، ورفض أن
يقتله ابنه ، وزاد على هذا كله أنه وعد بأن يترفق به ويحسن صحبته ،
وبهذا ضرب المثل العظيم في حلم العظيم .

على أنه عمد إلى أنجع وسيلة لإطفاء غضب القوم ، فشغلهم عن
الفتنة التي بدرت بالسير المتصل يوماً وليلة وبعض يوم ، ثم آذهم
بالنزول ، فلم تكد جنوبهم تمس الأرض حتى استغرقوا في النوم .

٢ - قتل وحشي مولى جبير بن مطعم حمزة بن عبد المطلب في موقعة
أحد ، فلما فتح رسول الله مكة هرب إلى الطائف ، فلما خرج وفد الطائف
إلى رسول الله ليسلموا ضاقت عليه السبل ، قال : فقلت ألحق بالشام
أو اليمن أو ببعض البلاد ، فوالله إني لفي ذلك من همى إذ قال لي
رجل : ويحك ، إنه والله ما يقتل أحدا من الناس دخل في دينه ، وتشهد
بشهادته .

فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم
المدينة ، فلم يرعه إلا أنى قائم على رأسه أتشهد بشهادة الحق ، فلما
رأني قال : أوحشي [قلت : نعم يا رسول الله ، قال اقعد فحدثني كيف

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٠٤ .

قتلت حمزة ، فحدثته ، فلما فرغت من حديثي قال : ويحك ، غيَّب عني وجهك ، فلا أرينك ، فكنت أتنكب رسول الله حيث كان لئلا يراني ، حتى قبضه الله تعالى (١) .

أي كظم للغيط. فريد ، بل أي حلم عظيم هذا الذي يلتقي به رسول الله قاتل عمه الأثير ، وصديقه النصير ، وشريكه في الجهاد ، وأخيه من الرضاع ، وإنه لمغيظ. من قاتله ، وقدير على الثأر منه وإن يكن من الأحرار الأقوياء ، فكيف وهو عبد أعتقه سيده منذ قتل حمزة ، فصار بغير حام ولا نصير . .

وإن كل مسلم ليتلهف على قتله ، ويود لو أن الرسول أذن له فنال وحده هذا الشرف الذي يشفى به غيط. نبيه ، ويثأر لبطل من أبطال الإسلام.

٣ - جاءه أعرابي يطلب شيئاً ، فأعطاه ، ثم قال له : هل أحسنت إليك [قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت .

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا .

ثم قام ودخل منزله . وأرسل إلي الأعرابي ، وزاده شيئاً ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال له النبي : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال الأعرابي : نعم .

(١) سيرة ابن هشام ٧٦/٣ .

فلما كان الغداة أو العشي جاء ، فقال النبي : إن هذا الأعْرَابِي قال ما قال ، فزدناه ، فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟

قال الأعْرَابِي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال الرسول : إن مثلى ومثل هذا الأعْرَابِي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فاتَّبَعَهَا النَّاسُ ، فلم يزيدها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ لها من قُمَامِ الأرض ، فردها هَوْنًا هَوْنًا حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رَحْلُها ، واستوى عليها (١) .

أَرَأَيْتَ إلى رسول الله كيف يحلم على من أعطاه فجحد عطاءه .

أَرَأَيْتَ إليه كيف يعطيه ثانية فيسمع رضاه ودعائه ؟

ثم أَرَأَيْتَ إليه وهو يحرص على أن يمحو من نفوس أصحابه غضبتهم على هذا الأعْرَابِي ، حتى لا ينزل به أجدهم عقوبة على جلافته ونكرانه الجميل ؟

٤ - أتى شاب إلى النبي فقال : يا نبي الله أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي : قربه ، اذُنْ ، فدنا حتى جلس بين يديه .

فقال له النبي : أتُحِبُّه لأُمِّك ؟ قال الشاب : لا ، جعلنى الله فداك ؟

قال النبي : كذلك الناس لا يحبونه لأُمهاتهم . أتُحِبُّه لابنتك ؟

قال الشاب : لا ، جعلنى الله فداك ، فقال النبي : كذلك الناس

لا يحبونه لبناتهم . أتُحِبُّه لأُخْتِكَ ؟ حتى ذكر العمة والمخالة ، وهو يقول

(١) الاحياء ٢/٢٣٦

في كل واحدة : لا ، جعلني الله فداك ، والنبي يقول : كذلك الناس لا يحبونه .

ثم وضع رسول الله يده على صدر الشاب ، وقال : اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحسن فرجه ، فلم يكن شئ أبغض إليه من الزنا (١) .

ها هنا تتجلى حكمة المعلم الأول والملاذ العظيم ، فإنه لم ينهر الشاب ، ولم يجبهه بتسفيه أو تأنيب ، بل فسح له صدره ، وجعل يضرب له الأمثال ، ليتبصر قبح الزنا وشناعته ، ثم عطف عليه عطف الأب الودود ، ودعا له بالبر من دائه الذي كان يظن أنه لا فكاك منه ولا شفاء .

٥ - طلب منه أصحابه في موقعة أُحد أن يدعو على المشركين الذين شجّوا وجهه ، وكسروا رباعيته حتى سال الدم على وجهه ، فقال : إني لم أبعث كعائناً ، ولكني بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (٢) .

لقد كان ذلك اليوم عصيباً : فالمسلمون لم ينتصروا ، وكثير من عظمائهم قتلوا وجرحوا ، والنبي نفسه لم يسلم من الأذى ، ولكنه لم يرتض أن يدعو الله لبييد قومه ، لأنه صبور حلیم ، ما زال عظيم الرجاء في أن تنقذ إليهم عقولهم ، فيهدوا إلى دين الله .

٦ - حَدَّثَ أَنَسُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَمْشِي يَوْمًا وَأَنَا مَعَهُ ، فَادْرَكَهُ أَعْرَابِي ، فَجَذَبَهُ جَذْبًا شَدِيدًا ، وَكَانَ عَلَى النَّبِيِّ بُرْدٌ نَجْرَانِي غَاطِظُ الْعَاشِيَةِ ،

(١) الاحياء ٢٩٣/٢

(٢) التلؤؤ والمرجان ٢٦٤/٢ .

فنظرت إلي عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية ادراجه من شدة جذبه .

وقال الأعرابي : يا محمد ، احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك .

فسكت النبي ، ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويُقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي ؟

قال الأعرابي : لا . قال الرسول : ولم ؟ قال الأعرابي : لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة .

فضحك رسول الله ، ثم أمر أن يحمل للأعرابي على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر (١) .

فقد جلم النبي على أعرابي تتناول يده ويتناول لسانه ، ويستجدي في فظاظة لا تطاق ، ثم أعطاه ما أراد ، ولعله أخذ أكثر مما أراد .

٧ - جاءه زيد بن سَعْنَة قبل إسلامه يتقاضاه ديناً عليه ، فجذب ثوبه عن منكبيه ، وأخذ بمجامع ثيابه ، وأغلظ له . فانتهره عمر ، وشدد له في القول ، والنبي صلى الله عليه وسلم يبتسم ، وقال : أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر ، تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضي . ثم قال : لقد بقي من أجله ثلاث (٢) . وأمر عمر أن يقضيه ماله ، ويزيده عشرين صاعاً ، لأنه رَوَّعه .

فكان هذا سبب إسلام زيد (٣) .

(١) فتح المبدى ٢/٢٣٩ ونور اليقين ٣٩٠ والاحياء ٣/٦١ .
(٢) أى أن موعد الاداء لم يحن ، فقد بقيت ثلاث ليال .
(٣) التسفا ١/٨٤ .

٨ - قعم رسول الله قسمة ، فقال بعض الأعراب من المسلمين :
هذه قسمة ما أريد بها وجه الله .

فلما أخبر النبي بذلك احمرت وجنتاه ، وقال : يرحم الله أخى موسى ،
لقد أودى بأكثر من هذا فصبر (١) .

غضب الحليم :

لكن من الأحداث ما لا يسعه الصدر الرحيب ، ولا يطيقه الحليم ،
فلا بد من غضب ، غير أن هذا الغضب هو اللائق بالعظيم .

لقد كان الرسول صاحب رسالة ، ومبلغ دين ، وحامى حقيقة ، فمن
حقه أن يحلم على ما يصيبه هو فى سبيل دعوته ، ولكنه لا يستطيع أن
يحلم على ما يصيب الدعوة نفسها .

وكيف يحلم على السفهاء الذين يتجرأون على الإسلام ، ويسخرون
بالوحدانية والبعث ، ويعتدون على الخير والحق ؟

هنا كان رسول الله يغضب ، ولم يكن له بد من أن يغضب ، لأن
غضبه - كما قال على بن أبى طالب - لم يكن للدنيا ، فإذا أغضبه الحق
لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء ، حتى ينتصر الحق (٢) ، وكما
قالت السيدة عائشة : ما انتقم رسول الله لنفسه إلا أن تنتهك حرمة
الله ، فينتقم الله بها (٣) .

(١) الاحياء ٦٢/٤

(٢) الاحياء ١٤٨/٣

(٣) فتح المبدى ٦٠/٣ وصحيح مسلم ٨٤/١٥ ، ينتقم الله بها : أى بسبب حرمة الله .

لكن غضب الرسول لائق برسائلته وبعظمته ، فهو غضب لا يتجاوز حد الاعتدال بحال من الأحوال .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص : يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا ؟ فقبال : أكتب ، فوالذى بعثنى بالحق نبياً ما يخرج منه إلا حق ، وأشار إلى لسانه .

فلم يقل إني لا أغضب ، بل قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق (١) .
وكان إذا سمع ما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ، ولكنه لا يقول إلا حقاً (٢) .

وكان مع غضبه للحق وبالحق يحاول ما استطاع أن يخفف من حدته ، وأن يُقَصِّرَ من مدته ، وأن يجعل السيطرة لعزيمته ، وذلك بأن يغير من الوضع الذى هو فيه ، لينقل نفسه من حال إلى حال . قال أبو هريرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب وهو قائم جالس ، وإذا غضب وهو جالس اضطجع ، فيذهب غضبه (٣) .

وكان شديد الخشية من أن يكون غضبه قد أغراه مرة بمجاوزة الحد ، وهذا بين في قوله : اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ، فأبما مسلم سببته أو لعنته أو ضربته ، فاجعلها منى صلاة عليه وزكاة تقربه بها إليك يوم القيامة (٤) .

(١) الاحياء ١٤٨/٣

(٢) الاحياء ٤٩/٣

(٣) الاحياء ١٥١/٣

(٤) الاحياء ١٤٨/٣

الإشادة بحلمه

حسب رسول الله من كمال الشيم وعلاء الأخلاق أَنَّ الله تعالى وصفه بقوله : «وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (١) .

وحسبه قوله تعالى : «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفُتُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (٢) .

لهذا قال على بن أبي طالب : كان رسول الله أوسع الناس صدرا (٣) .
وجاء في قصة إسلام زيد بن سَعْنَةَ - من أحبار اليهود - قوله لعمر ابن الخطاب : كل علامات النبوة قد عرفتُها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما فيه : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، فقد اختبرتهما (٤) .

حضه على الحلم

كانت أحاديث رسول الله التي تحض على الحلم مظهرًا قوياً من حلمه العملي .

١ - فكان إذا غضبت السيدة عائشة أخذ بأنفها ، وقال : يا عُوَيْشُ ، قولى : اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبى ، وأذهب غيظ. قلبى ، وأجرنى من مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ (٥) .

(١) سورة القلم ٤

(٢) سورة آل عمران ١٥٩

(٣) الاحياء ٢/٣٣٧

(٤) هاشم الاحياء ٢/٣١٥

(٥) الاحياء ٣/١٥١

- ٢ - وقال : إن الغضب جمرة توقد في القلب ، ألم تروا إلى انتفاخ
أوداج الغضببان وحمرة عينيه (١) ؟
- فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً ، فإن كان قائماً فليجلس ، وإن
كان جالساً فليقم ، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ،
فإن النار لا يطفئها إلا الماء (٢) .
- ٣ - إن الرجل ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم (٣) .
- ٤ - ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها
ابتغاء وجه الله (٤) .
- ٥ - ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له ولداً ،
ويجعلون له أنداداً ، وهو مع ذلك يعافيهم ويرزقهم (٥) . !
- ٦ - من كف غضبه كف الله عنه عذابه (٦) .
- ٧ - قال رجل لرسول الله : يا رسول الله مُرّني بعمل وأقلل : قال :
لا تغضب ، ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب (٧) .
- ٨ - قال لأصحابه : ما تعدون الصرعة فيكم ؟ قلنا : الذي يصرع
الرجال ؟
- قال : ليس ذلك ، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب (٨) .
- ٩ - ثلاث من كن فيه استوجب الثواب ، واستكمل الإيمان : خلق

(١) إلى (٢) الاحياء ١٥١/٣
(٣) إلى (٥) كنز العمال ٢٨/٢
(٦) الاحياء ١٥٢/٢ .
(٧) فتح المبدى ٣١٠/٣ والاحياء ١٤٣/٣
(٨) فتح المبدى ٣١٠/٣ والاحياء ١٤٣/٣ وكنز العمال ١٠٦/٢

يعيش به في الناس ، ودرع يحجزه عن محارم الله ، وحلم يرد به جهل الجاهل (١) .

١٠ - إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه (٢) .

١١ - إن بني آدم خلّقوا على طبقات شتى ، فمنهم بطيء الغضب سريع النية ، ومنهم سريع الغضب سريع النية ، فتلک بتلك ، ومنهم سريع الغضب بطيء النية ، ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع النية ، وشرهم السريع الغضب البطيء النية (٣) .

١٢ - ابتغوا الرفعة عند الله . قالوا : وما هي يا رسول الله ؟

قال : تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعلم عن جهل عليك (٤) .

١٣ - ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله عز وجل ، وحلم يكف به السفية ، وخلق يعيش به في الناس (٥) .

١٤ - من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً (٦) .

(١) الى (٣) الاحياء ١٥٦/٣

(٤) ، (٥) الاحياء ١٥٤/٣

(٦) الجامع الصغير ٣٩٥/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العفو

حقيقته

العفو الصريح والمغفرة والتجاوز عن الإساءة ، في غير كراهية للمسيء
أو حقد عليه أو إصرار على الانتقام فيما بعد ، مع القدرة على العقوبة
أو الثأر .

فليس من العفو التسامح الموقوت الذي يَحْتَجُّ صاحبه السيئة في
نفسه لينتقم في وقت آخر .

وليس من العفو المغفرة المدخولة التي تخفى وراءها بَغْضَةٌ للمسيء .

وليس من العفو الصريح الناشئ عن عجز أو ضعف .

وقد سمي الله تعالى نفسه عَفُوًّا في آيات كثيرة من كتابه الكريم .

قال تعالى : « إِنْ تَبَدَّلُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوا أَوْ تَعَفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا
قَلِيلًا » (١) .

وقال سبحانه : « أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٢) .

(١) سورة النساء ١٤٩

(٢) سورة النور ٢٢

وقال تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (١) » .

وأمر الله تعالى بالعفو وأثنى عليه في كثير من الآيات .
قال تعالى : « وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا ، وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) » .

وقال سبحانه : « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلْيَعْفُوا ، وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) » .

وقال تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٤) » .

وقال تعالى : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٥) »

مظاهره

كان القرآن الكريم ينبوع الأدب النبوي ، فكان عليه الصلاة والسلام قريب الصفح ، كثير العفو ، وكان عفوه عن مقدرة وعن سماحة نفس .

(١) سورة الرعد ٦

(٢) سورة البقرة ١٠٦

(٣) سورة النور ٢٢ لا يأتل : لا يقسم

(٤) سورة آل عمران ١٣٣-١٣٤

(٥) سورة الشورى ٤٣ .

قالت السيدة عائشة : ما رأيت رسول الله منتصرا من مظلمة ظلمها قط . ما لم تنتهك محارم الله ، فإذا انتهك شيء من محارم الله كان أشدهم في ذلك غضباً (١) .

فهو يعنوا عما يصيبه هو ، لأن العفو هنا فضيلة ، ولكنه لا يعفو عما يمس الدين ويتصل بحقوق الله ، لأن هذا تهاون في رعاية حق الله . ولهذا العفو مصادر عدة ، منها .

١ - في موقعة أحد وعَدَ جُبَيْر بن مطعم عبده وحشياً أن يطلقه حراً إن قتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي ثأراً بعمه طُعَيْمَة بن عدى الذى قتل يوم بدر .

وكان وحشى مشهوراً بإصابة الهدف ، وكانت هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان قد خرجت مع مشركى قريش لتحريضهم ، وكان حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث قد قتلوا أَعْزَاءَهَا يوم بدر (٢) ، فجعلت تشعل حفيظة وحشى ، واستطاع أن يصيب حمزة .

كان مقتل حمزة فاجعة ، فحزن عليه رسول الله أشد الحزن ، فهو عمه ، وهو ظهيره الذى ناصره منذ كان فى مكة ، وهو أخوه من الرضاع ، وهو إلى هذا بطل من أبطال المسلمين الأفاضل ، ولهذا قال رسول الله وهو واقف أمام جثة عمه الحبيب : ما وقفت موقفاً قط . أغیظ . إلى من هذا .

وقد أطلق جبير عبده حراً ، فأقام بمكة ، فلما فتحها رسول الله هرب وحشى إلى الطائف ، ثم أسلم أهل الطائف فضاقت الأرض بوحشى ،

(١) الاحياء ١٥٨/٣ وصحيح مسلم ٨٣/١٥
(٢) أبوها متبة بن ربيعة وأخوها الوليد وعمها شيبة (تاريخ الطبرى ٢٧٠/٢)

فأشار عليه بعضهم أن يتجه إلى رسول الله فيعلن إسلامه ، فإنه لا يقتل أحدا دخل في دينه .

قدم وحشى على رسول الله ، وأعلن إسلامه ، فنظر إليه الرسول وقال : وحشى [قال : نعم يا رسول الله ، قال : أقعد فحدثني كيف قتلت حمزة ، فحدثه ، فلم يزد بعد أن سمع الحديث على أن قال : ويحك ، غيب عني وجهك ، فلا أرينك (١) .

أرأيت إلى هذا العفو العظيم عن الجرم الأليم بعد أن أمكن القصاص ؟ لكن وحشياً وقد أسلم وحسن إسلامه لم يستطع أن يتخلص من الفزع الذى يلاحقه من أطيايف جريمته ، فلما كانت حروب المرتدين أيام أبي بكر خرج لقتال مسيلمة ، وقص خبره في قوله : أخذت حربى التى قتلت بها حمزة ، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة قائماً في يده السيف ، فتهيأت له ، وتهيأ له من الناحية الأخرى رجل من الأنصار ، فهزرت حربى ، ودفعتها فوقعت فيه ، وشد عليه الأنصارى فضربه بالسيف ، فما أعلم أينما قتله ، فإذا كنت قد قتلته فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم - يريد حمزة - وقد قتلت شبر الناس ، يعنى مسيلمة .

٢ - في غزوة خيبر أهدت زينب بنت الحارث زوجة سلام ابن مشكم أحد زعماء اليهود شاة مشوية إلى الرسول ، وقد سألت : أى عضو من الشاة أحب إليه ؟ فقليل لها : الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، وجاءت بها ، فلما وضعتهابين يديه تناول الذراع ، فلاك منها مضغة ، فلم يسغها ، ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها

(١) سيرة ابن هشام ١٠٢/٣ .

كما أخذ رسول الله ، فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله فلفظها ، وقال : إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم ، ثم دعا بها ، فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقبلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر . فتجاوز عنها رسول الله ، ومات بشر من أكلته (١) .

وما من شك في أن المرأة كاذبة في تعليلها ، فقد كانت تريد بالنبي سوءاً ، ولكنه تجاوز عن جريمتها الدنيئة عفواً منه وسماحة نفس .

٣ - كان سهيل بن عمرو من أشد خطباء قريش معاندة للإسلام ودعاية ضد النبي ، وكان من أفحشهم لساناً وأبلغهم بياناً ، فلما وقع أسيراً في بدر قال عمر بن الخطاب لرسول الله : دعني أنزع ثنيتيه ليدلج لسانه ، فلا يقوم خطيباً أبداً .

فقال عليه الصلاة والسلام : لا أمثل به ، فيمثل الله بي وإن كنت نبياً .

٤ - قال له بعض المسلمين بعد غزوة أحد - وقد شجَّ وجهه وكسرت رباعيته - لو دعوت عليهم ؟ فقال : إني لم أبعث لعناً ، ولكن بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون (٢) .

فلم يقتصصر على السكوت ، بل عفا عنهم ، ثم أشفق عليهم ورحمهم ، ودعا لهم بالهداية ، لأنهم قومه ، ولأنهم لا يعلمون .

٥ - لما أجمع الرسول المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٥٢ والشفا ١/٨٣ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان ٢/٢٦٤ والشفا ١/٨٢ .

كتاباً إلى قريش يخبرهم بعزم الرسول على السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جُعلاً على أن تبغته قريشاً ، ولكن حيلتها أخفقت ، فاستُخرج الكتابُ منها ، فدعا الرسول حاطباً وسأله : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، أما إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرتُ ولا بدلتُ ، ولكني كنت امرأاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة ، ولي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليه .

فقال عمر : دعني فلاضرب عنقه ، فإنه قد نافق .

فقال رسول الله : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم (١) .

٦ - دخل مكة فاتحاً بعد أن آذاه أهلها ، ونكلوا بالمسلمين ، وقتلوا في المعارك أحبابه وأولياءه وأنصاره ، وبعد أن حاصروهم في الشعب ، فلما قال لأهل مكة : ما تقولون وما تظنون ؟ قالوا : نقول : أخ كريم وابن عم رحيم ، فقال صلى الله عليه وسلم : أقول كما قال أخي يوسف : « لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » (٢) ، فتفرقوا كأنما نشروا من القبور ، فدخلوا في الإسلام (٣) .

٧ - لم يؤخذ عبد الله بن أبي وأشباهه من المنافقين بأعمالهم وأقوالهم ، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم : لا ، لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه (٤) .

(١) سيرة ابن هشام ٤٠/٤

(٢) سورة يوسف ٩٢

(٣) الاحياء ١٥٨/٢

(٤) الشفا ٨٣/١

٨ - قال أنس : هبط ثمانون رجلا من التنعيم وقت صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ، فأخذوا فأعتقهم (١) ، فأنزل الله تعالى «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢)» .

٩ - قال سَدَمَةُ بن الْأَكْوَع : خرجت من المدينة قبيل الفجر ، وكانت لِقَاح رسول الله (٣) - عشرون لقحة أى ناقة - تَرَعَى بذي قَرَد (٤) ، فلقيني غلام ، فقال لى : أخذت لِقَاح رسول الله ، فصرخت ثلاث صرخات لأسمع ما بين لابتي المدينة . (٥)

ثم ذهب أثر العدو ، واستنفذت منهم اللقاح ، وأخذت ثلاثين بردة .

ثم لحقني النبي في خمس مئة أو سبع مئة ، فقلت : يا نبي الله ، قد منعت القوم الماء وهم عطاش ، فابعث إليهم الساعة .
فقال : يا ابن الأكوع ملكت فأسجع (٦) .

١٠ - بعث النبي فرساناً قبل نجد ، فجاءوا برجل من حنيفة اسمه ثَمَامَةُ بن أَثَال ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبي فقال : ما عندك يا ثَمَامَةُ [فقال : عندي خير يا محمد ، إن تقتلني تقتل رجلاً ذا دم (٧)] وإن تُنْعِمَ تنعم علي شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت .

-
- (١) الشفا ٨٥/١
(٢) سورة الفتح ٢٤
(٣) اللقاح : جمع لقحة وهي الناقة ، وكان عددها عشرين .
(٤) ماء على نحو بريد مما يلي غطفان
(٥) ما بين حريتها المحيطتين بها .
(٦) فتح المبدى ١٣٠/٣ ، أسجع : أحسن وتسامح .
(٧) مطالب بدم فلا عيب في قتله .

فتركه النبي حتى كان بعد الغد ، فقال : ما عندك يا ثمامة [قال :
عندى ما قلت لك .

فقال : أطلقوا ثمامة ، فانطلق إلى ماء قريب من المسجد ، فاغتسل ،
ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا
رسول الله . يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ،
أصبح وجهك أحب الوجوه إلى .

والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب
الدين إلى .

والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إلى .
وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فماذا ترى ؟
فبشره رسول الله ، وأمره أن يعتمر .

فلما قدم مكة قال قائل : صَبَّوْتَ ، قال : لا والله ولكن أسلمت مع
محمد رسول الله ، ولن تأتيناكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها
رسول الله (١) .

١١ - كان الرسول عائدا من غزوة ذات الرقاع ، فنام ، فانسل رجل
والمسلمون في غيرة ، حتى قام على رأس رسول الله بالسيوف ، وقال :
من يمنعك مني ؟ فقال الرسول : الله . فسقط السيف من يد الرجل ، فأخذه
رسول الله وقال : من يمنعك مني ؟ فقال الرجل : كن خير آخذ . فقال
الرسول : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فقال الرجل :
لا ، غير أنى لا أقاتلك ، ولا أكون معك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك .

(١) فتح المبدي ١٥٠/٣

فخلى الرسول سبيله .

فجاء الرجل أهله فقال : جئتم من عند خير الناس (١) .

١٢ - كان يعطى الناس يوم خيبر فضة ، فقال له رجل : يا رسول الله ، اعدل . فقال له : ويحك ، فمن يعدل إذا لم أعدل [فقد خبت إذا وخسرت . إن كنت لا أعدل . فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق .

فقال الرسول : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابي (٢) .

١٣ - قدم وفد هوازن على رسول الله وقد أسلموا - وكان معه من سبيهم ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الإبل والشاء عدد كثير . فقالوا : يا رسول الله ، إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاد ما لم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك .

وقام رجل من هوازن من بنى سعد بن بكر فقال : يا رسول الله إنما فى الحظائر - الأماكن التى كان السبي بها - عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك - يريد أن حاضنته من بنى سعد بن بكر من هوازن ، وكانت مرضعاً له - ولو أنا أرضعنا الحارث بن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وفضله ، وأنت خير المكفولين .

فقال رسول الله : أبناؤكم ونسأؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

فقالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نسائنا وأبنائنا ، فهو أحب إلينا .

(١) الاحياء ٢٣٥/٢ وفتح البارى ١٢٧/٣

(٢) الاحياء ٣٣٥/٢

فقال لهم : أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكُم عند ذلك وأسأل لكم .

فلما صلى الظهر بالمسلمين قام وفد هوازن فتكلموا بالذي أمرهم به ، فقال الرسول : أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو اكم . فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله (١) .

حُضه على العفو

- للنبي عليه الصلاة والسلام حض كثير متنوع على العفو ، كقوله :
- ١ - إن الله عَفُوٌّ يُحِبُّ العَفْوَ (٢) .
 - ٢ - من عفا عند القدرة عفا الله عنه يوم العُسرة (٣) .
 - ٣ - ما عفا رجل عن مظلّمة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها عزا يوم القيامة (٤) .
 - ٤ - قال لعتبة بن عامر : ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك (٥) .
 - ٥ - ثلاث من كن فيه آواه الله في كَنَفه ، ونشر عليه رحمته ، وأدخله جنته : من إذا أُعْطِيَ شكر ، وإذا قَدَرَ غفر ، وإذا غضب فُتِر (٦) .

(١) سيرة ابن هشام ١٣١/٤
 (٢) الجامع الصغير ١٧٦/١ وكنز العمال ٧٧/٢
 (٣) كنز العمال ٧٧/٢
 (٤) و (٥) الاحياء ١٥٨/٣
 (٦) الجامع الصغير ٢٣٧/١

الفصل التاسع عشر

الرحمة

ما الرحمة

الرحمة مشتقة من الرُّحْم أو الرُّحْم وهو القرابة وأسبابها ، وأصلها جميعاً الرُّحْم وهو بيت الولد .

وهي والعطف والحنان والرفق والشفقة واللين . كلمات متحدة المعاني أو متقاربة جد التقارب ، ونقيضها القسوة والشدة والفظاظة والحدة .

والرحمة من صفات الله سبحانه ، فهو القائل : « إِنَّ رَحِمَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ^(١) » و « وَمَنْ يَّقْنُظْ مِنْ رَحِمَتِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ^(٢) » . و « فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٣) » . و « وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ^(٤) »

والرحيم من أسمائه الحسنی ، قال تعالى : « فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ^(٥) » وقال سبحانه : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ^(٦) » وقال تعالى :

-
- | | |
|-----|--------------------------|
| (١) | سورة الاعراف ٥٦ |
| (٢) | سورة الحجر ٥٦ يقنط : يئس |
| (٣) | سورة البقرة ٦٤ |
| (٤) | سورة الكهف ٥٨ |
| (٥) | سورة البقرة ٣٧ |
| (٦) | سورة البقرة ١٤٣ |

«اعلمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»^(١) وقال تعالى :
«أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»^(٢) .

وهى من أخلاق النبي فطرة وتربية إلهية وتوجيهاً من القرآن الكريم ، قال تعالى : «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ»^(٣) .

وقد تردد وصف النبي بالرحمة في كتاب الله ، مثل قوله تعالى «فبما رحمة من الله لِنْتِ لَهُمْ . وَאוْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا . الْقَلْبِ لَا نَفُوسُوا مِنْ حَوْلِكَ»^(٤) ، وقوله سبحانه : «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عزيزٌ عليه ما عَنَتُمْ ، حريصٌ عليكم ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»^(٥) ، وقوله تعالى : «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»^(٦) .

لهذا أنس المسلمون إلى رسول الله من رجال ونساء كما يأنس الأطفال إلى الأمهات والآباء ، وكان أنسهم منبعثاً عن حب وإجلال واطمئنان إلى سماحة نفسه ورحمته .

فقد استأذن عمر بن الخطاب على النبي ، وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه وأصواتهن عالية ، فلما استأذن عمر أسرع كل منهن إلى حجابها ، فدخل عمر ورسول الله يضحك ، فقال عمر : مم تضحك يا رسول الله ؟ قال عجبْتُ لهؤلاء لما سمعت صوتك تبادرن الحجاب ، فقال عمر : أنت كنت أحق أن يهينك يا رسول الله ، ثم أقبل عليهن عمر فقال : يا عدوات أنفسهن أتهيننى ولا تهين رسول الله ؟ قلن : نعم ، أنت

-
- | | |
|-----|-------------------|
| (١) | سورة المائدة ٩٨ |
| (٢) | سورة النور ٢٢ |
| (٣) | سورة الحجر ٨٨ |
| (٤) | سورة آل عمران ١٥٩ |
| (٥) | سورة التوبة ١٢٨ |
| (٦) | سورة الانبياء ١٠٧ |

أَغْلَظَ وَأَفْظَ. من رسول الله. فقال صلى الله عليه وسلم : إِيهَا يَا بَنَ الْخَطَابِ ،
والذى نفسى بيده ما لِقَيْكَ الشَّيْطَانُ قَطْ. سالِكَاً فَجْأً إِلَّا سالِكَاً فَجْأً غَيْرَ
فَجْجَكَ (١) .

مظاهره

تعددت مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم وتنوعت . فوسعت المسلمين .
وغير المسلمين ، واتسعت للأصدقاء والأعداء ، وشملت الأحرار والأرقاء ،
وامتدت إلى الكبار وإلى الصغار ، واستوعبت الأناسى والحيوان .

(١) بالمسلمين

١ - أتاه سبى ، فشكت إليه فاطمة ما تلقى من مشقة فى خدمة بيتها .
وظلبت منه خادماً من السبى يكفيها مؤنة بيتها ، فأمرها أن تستعين
بالتسبيح والتكبير والتحميد ، وقال : لا أعطيك خادماً ، وأدعُ أهل
الصفّة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيعهم -
السبى - وأنفق عليهم - على أهل الصفّة - أثمانهم (٢) .

فاقتضت رحمته بفقراء المهاجرين المنقطعين للعبادة وتعلم القرآن
فى الصفّة (٣) ، أن يؤثروهم على ابنته ، فلا يستجيب لرغبتها أن يعطيها
خادماً من السبى يعاونها على العمل الشاق بدارها ، وأعلمها فى صراحة أن
يبيع واحد من السبى لإنفاق ثمنه على فقراء الصفّة خير من إعطائها إياه ،
ونصح لها أن تستعين على جهد العمل بالتكبير والتسبيح والتحميد .

(١) الاحياء ٤٥/٣

(٢) شرح الزرقانى ٣٠٢/٤

(٣) الصفّة : سقيفة المسجد ، وكان عددهم نحو أربع مائه ، وكانوا يخرجون فى كل سريّة
بعثها رسول الله .

٢ - هاجر رجل إلى رسول الله من اليمن ، وأراد الجهاد ، فقال له الرسول : هل باليمن أبواك؟ قال : نعم . قال : هل أذننا لك ؟ قال الرجل : لا ، فقال الرسول : فارجع إلى أبويك . فاستأذنها ، فإن فعلا فجاهد ، وإلا فبرهما ما استطعت ، فإن ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد .

٣ - جاء آخر إليه ليستشير في الجهاد ، فقال : ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها .

٤ - وقدم عليه رجل يطلب البيعة على الهجرة ، وقال : ما جئتك حتى أبكيك والدي ، فقال ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما (١) .

إن هذه الرحمة لتسمو إلى أعلى درجات العنان والشفقة بالآباء والأمهات ، لأن الرسول لم يأذن بالجهاد في سبيل الله إلا بعد أن يستأذن الابن والديه ، ولم يبائع على الهجرة من أبكى والديه بالعزم على الهجرة ، وأمره أن يعود إليهما فيضحكهما كما أبكاهما .

٥ - شكوا إليه رجل أنه يتأخر عن صلاة الصبح مع الجماعة ، لأن فلاناً يطيل بالناس . فغضب رسول الله ، وقال : إن منكم منفرين ، فأيكم ما صلى بالناس فليتجاوز - فليخفف - فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة (٢) .

٦ - وقال صلى الله عليه وسلم : إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول

(١) مسند أحمد ٤٦/١٠ و ٧٢ والاحياء ١٩٥/٢

(٢) فتح المبدى ٢٥٥/١

فيها ، فأسمع بكاء الصبي ، فاتجوز - أخفف - في صلاتي ، كراهية أن أشق على أمه (١) .

٧ - لم يكن النبي يكثر دخول بيت بالمدينة غير بيت أم سليم إلا على أزواجه ، فقيل له : لم تخص أم سليم ؟ فقال : إني أرحمها ، قتل أخوها معي (٢) .

٨ - قال عبد الله بن مسعود : إني لأذكر أول رجل قطع النبي يده ، أتى بسارق فقطعه ، فكانت أسف وجهه (٣) ، فقالوا : يا رسول الله ، كائنك كرهت قطعه ، فقال : وما يمنعني ، لا تكونوا عوناً للشياطين على أخيكم .

فقالوا : ألا عفوت عنه ؟ فقال : إنه ينبغي للسلطان إذا انتهى إليه حد أن يقيمه ، إن الله عفو يحب العفو ، وقرأ قوله تعالى (٤) : «وَلْيَغْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) . »

٩ - كانت بركة بنت ثعلبة - وهي أم أيمن - مولاة لعبد الله ابن عبد المطلب ، أو لآمنة بنت وهب ، فصارت للنبي ميراثاً ، وكانت تحضنه وتخدمه .

أعتقها النبي فتزوجها عبيد الحبشي ، فولدت له أيمن ، ثم تزوجها زيد بن حارثة ، فولدت له أمامة .

(١) فتح المبدى ١٠٢/١ ، ٢٥٦

(٢) فتح المبدى ٣٠٣/٢ كانت أم سليم خالته من الرضاع أو النسب . أما أخوها فهو حرام بن ملحان قتل يوم بدر معونة في مسكر النبي ولم يشهد النبي بشر معونة .

(٣) سفي عليه رمد لشدة تغيره

(٤) الاحياء ١٧٧/٢

(٥) سورة النور ٢٢

كان رسول الله يزورها . ثم كان يزورها أبو بكر وعمر في منزلها
كما كان رسول الله يفعل . وكان رسول الله يقول : أم أيمن أمي بعد أمي . (١)

وكان يقول : أم أيمن بقتية من أهل بيتي :

ولما مات عنها زوجها عُبِيد قال النبي : من سره أن يتزوج امرأة
من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن « فأسرع زيد بن حارثة فاتخذها زوجة له .
١٠ - رأى شيخا يُهادى بين ابنيه . فقال : ما بال هذا ؟ قالوا : نذر
أن يمشى إلى الكعبة . قال : إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنى : وأمره
أن يركب . (٢) .

١١ - لما علم أن بعض المسلمين يصوم الدهر كله . ويقوم الليل كله ،
نهاه . (٣) .

(٢) بالمشرّكين

١ - لما أسلم ثُمَامَة بن أثال أقسم لأهل مكة أنه لن يرسل إليهم جبة
جِنَطة من اليمامة حتى يأذن رسول الله .

ثم عاد إلى اليمامة ، فمنع قومه أن يحملوا إلى مكة شيئاً ، فكتبوا
إلى النبي . يقولون إنك تأمر بصلة الرحم . فكتب إلى ثُمَامَة أن يعلى بين
قومه وبين الحمل إلى أهل مكة (٤) .

يا للخلق العظيم الذي يجب أن يقتدى به البشر ؟
أهذا حلم على حماقة قريش ؟

(١) الاستيعاب ١٧٩٣ ، ١٩٢٥ وزاد الماد ٢٦/١
(٢) اللؤلؤ والمرجان ١٩٥/٢
(٣) الاحياء ٨٣/٣
(٤) فتح المبدى ١٥١/٣

أهذا عفو القادر على الانتقام ؟

أهذا صبر على أذى الأعداء ؟

أهذه رحمة بالمشركين الذين آذوا النبي ومن معه ، وأخرجوهم من وطنهم مكة ؟ !

إن عمل النبي هنا يجمع هذه الفضائل كلها ، فهو لم يأمر ثمامة بأن يمنع القمح عن مشركى مكة ، لكن إسلام ثمامة هو الذى دفعه إلى أن يعاقب قريشاً بما يستطيع أن يعاقبها به ، جزاء لها على بغيها ومجارتها للمسلمين وتحرشها الدائم بهم .

وقد كان من حق ثمامة أن يفعل ذلك ، لأن قريشاً مع المسلمين فى حرب متصلة ، ولأن قريشاً استباححت لنفسها من قبل أن تقاطع المسلمين ، وأن تحصرهم فى شعب بنى هاشم بمكة ، وأن تتعاهد على تجويعهم ومقاطعتهم ، وهى ما تزال جادة فى إنزال الأضرار بهم ما وجدت الأضرار سبيلاً .

لكن رحمة النبي كانت أعلى من الخصومة ، وأرفع من العداوة ، وأعظم من مقابلة التجويع بمثل ، فإنه لم يكذب يقرأ كتاب قريش حتى أرسل إلى ثمامة أن يخل بينها وبين حنطة اليمامة ، وهو يعلم أن تجويع قريش يضعفها أشد الضعف ، ويقيه شروها ، ولعله أن يعجل بسعيها إلى اعتناق الإسلام

فهل لبعض الدول المعاصرة التى تدعى العلم والتقدم والحضارة آذان تسمع ؟

هل لها عقول تعى ؟

هل لها بقايا من الضمائر تتقبل التربية والعلاج ؟
أما آن لها أن تعلم أن علمها زائف ، وأن تقدمها تأخر ، وأن حضارتها
همجية

إنها تتخذ القمح والمال والدواء والسلاح وغيرها حبال لاقتناص
المحتاجين ، وأغلالاً في رقاب الطالبين ، ووسائل لإغراء المتطلعين .
ثم تقترف أخطأ أنواع الخسة ، فتضاعف الجريمة ، إذ تحتجز
قمحها وغيره لا عن خصومها فحسب ، بل عن الذين يتأبون على الخضوع
الذليل ، والتبعية المهنية .

٢ - حينما اتجه الرسول إلى مكة فاتحاً لقيه أبو سفيان بن الحارث
ابن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فالتمسا الدخول عليه ،
فكلمته فيهما أم سلمة قائلة : ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، فقال :
لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمي فهتك عرضي ، وأما ابن عمتي وصهرتي
فهو الذي قال بمكة ما قال .

فلما علما بذلك وكان مع أبي سفيان ابن صغير له قال : والله ليأذنن لي
أو لأخذن ابنتي هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً .
فلم يلبث رسول الله حين سمع بذلك أن رَقَّ لهما ، ثم أذن ، فدخلا
عليه ، فأسلما (١) .

٣ - لما رجل عن ثقيف قال له رجل من أصحابه : يا رسول الله ادع
عليهم ، فقال : اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم (٢) .

(١) سيرة ابن هشام ٤٣/٤
(٢) سيرة ابن هشام ١٣٠/٤

٤ - مَرَّ في غزوة حُنَيْنٍ بامرأة قتلها خالد بن الوليد ، والناس مزدحمون حولها ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد ، فقال رسول الله ليعرض معه : أدرك خالدًا ، فقل له إن رسول الله ينهك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً^(١) .

وكان فيهم بُهَيْل بن عمرو ، وكان فيمن يعرض على النبي ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعني أنزع ثِيَّتِي ، ليخرج لساني ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً . فقال رسول الله : لا أمثل به فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً ، عسى أن يقوم مقاماً لا تدمه^(٢) .

٥ - قال لأصحابه عند توزيع الأسرى في غزوة بدر : استوصوا بالأسارى خيراً^(٣) .

٦ - وقال بعد الغزوة : إني قد عرفت أن رجالاً أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحدا منهم فلا يقتله .

٧ - وكان الأسير من مشركي قريش يُطْلَقُ بِفِدْيَةٍ يقدمها من المال ، ولكن النبي أعفى منها الفقراء مثل أبي عَزَّة عمر بن عبد الله ، إذ كان فقيراً وأباً لبنا ، فاعتذر عن الفدية بفقره ، فأطلقه رسول الله .

وقبل من الفقراء الذين يعرفون القراءة والكتابة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة^(٤) .

(١) سيرة ابن هشام ١٠٠/٤ المسيف : العبد أو الاجير المحترق

(٢) السيرة ٣٠٤/٢ وتاريخ الطبري ٢٨٩/٢

(٣) تاريخ الطبري ٢٨٧/٢ وسيرة ابن هشام ٢٩٩/٢

(٤) الكامل للمبرد ٢١٢/١ والسيرة الحلبية ٢٥٤/٢ ومسند الامام احمد ٢٤٧/١ وامتناع

الاسماء ١٠١/١

٨ - كلمت الرسول جارية من السبايا ، فقال لها : من أنت ؟ قالت :
أنا بنت حاتم الجواد .

فقال : ارحموا عزيز قوم ذل . ارحموا عالماً ضاع بين جهال (١) .
٩ - قالت أسماء بنت أبي بكر : قدمت على أمي - وكان أبو بكر
طلقها في الجاهلية ، فهي مشركة - بهدية من سمن وزبيب وقَرظ . فأبیت
أن أدخلها إلى بيتي : وأن أقبل هديتها . وأرسلت إلى أختي عائشة
لتسأل رسول الله . فقال عليه الصلاة والسلام : لتُدْخِلَها ، وتقبل
هديتها . وأنزل الله سبحانه « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم
في الدين ولم يُخْرِجُوكم من دياركم أن تبرؤهم وتُقْسِطُوا إليهم إن الله
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ . وَأَخْرَجُوكُم
مِنْ دِيَارِكُمْ ، وظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ . وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ (٢) » .

الحق أن هذه الرحمة بالآباء والأمهات لتسمو إلى أعلى درجات العنان
والشفقة ، لأن رسول الله لم يشأ أن يحرم الأم المشركة عطف ابنتها
عليها ، ولم يأذن بالجهاد في سبيل الله إلا لمن أذن له أبواه .

١٠ - في غزوة حُنين ساق بعض المسلمين الشيعة بنت الحارث
بن عبد العزى - أخت رسول الله من الرضاعة إلى الرسول . فعَنُفُوا عليها في
السَّيَاق ، فقالت لهم : اعلّموا أنني أخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم
يصدّقوها ، حتى أتوا بها إلى رسول الله . فقالت يا رسول الله . إني

(١) البياض والتبيين ٢٨/٢ -

(٢) طبقات ابن سعد ١٨٢/٨ وسير اعلام النبلاء ٢٠٨/٢ والاستيعاب ٩٠٥ ، ١٧٨١ وفتح
المبدي ٢٥٩/٢ والاحياء ١٩٢/٢ .

أُخْتِكَ مِنَ الرِّضَاعَةِ . قَالَ : وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : عَضَّةٌ مِنْكَ فِي ظَهْرِي ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ الْعَلَامَةَ : فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ ، فَاجْلَسَهَا عَلَيْهِ وَخَيْرَهَا ، وَقَالَ : إِنْ أَحْبَبْتَ فَعِنْدِي مُحَبَّةٌ مَكْرَمَةٌ . وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أُمْتَعَكَ وَتَرْجِعِي إِلَى قَوْمِكَ فَعَلْتُ . فَقَالَتْ : بَلْ تَمْتَعْنِي وَتَرُدَّنِي إِلَى قَوْمِي . فَأَعْطَاهَا ثَلَاثَةَ أَعْبَدٍ وَجَارِيَةٍ ، وَرَدَّهَا إِلَى قَوْمِهَا .

فَلَمَّا عَادَتْ إِلَى أَهْلِهَا كَلَمَتْهَا النِّسْوَةُ فِي بَعْجَادٍ (١) ، فَرَجَعَتْ إِلَى النَّبِيِّ وَطَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَهَبَ لَهَا بَعْجَادًا وَيَعْفُو عَنْهُ . فَاسْتَجَابَ لَهَا . وَأَمَرَ لَهَا بِبَعِيرٍ أَوْ بِعَيْرَيْنِ . وَسَأَلَهَا عَمَّنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلِهَا .

ثُمَّ قَارَبَهَا بَعْدَ ذَلِكَ : وَمَنْحَهَا نَعْمًا وَشَاءَ لَهَا وَلَمَّا بَقِيَ مِنْ أَهْلِهَا (٢) .
١١ - قِيلَ لَهُ وَهُوَ يَقَاتِلُ أَعْدَاءَهُ : أَوْ لَعْنَتُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ :
إِنَّمَا بَعَثْتُ رَحْمَةً . وَلَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا .

وَكَانَ إِذَا سُئِلَ أَنْ يَدْعُو عَلَى أَحَدٍ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ عَدَلَ عَنِ الدَّعَاءِ عَلَيْهِ إِلَى الدَّعَاءِ لَهُ .

قَالُوا لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ دَوَّسًا عَصَتْ وَأَبَيْتَ فَادْعُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ :
اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ (٣) .

وَمَا ضَرْبُ أَحَدٍ بِيَدِهِ قَطُّ . إِلَّا أَنْ يَضْرِبَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
وَمَا انْتَقَمَ مِنْ شَيْءٍ صَنَعَ إِلَيْهِ قَطُّ . إِلَّا أَنْ تَنْتَهَكَ حَرَمَةَ اللَّهِ .

(١) هُوَ مِنْ بَنِي سَعْدٍ ، وَكَانَ قَدْ ارْتَكَبَ جَرِيمَةً شَنِيعَةً إِذْ أَنَاهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ فَاتَّخَذَهُ بَعْجَادٍ فَقَطَعَهُ عَضْوًا ثُمَّ أَحْرَقَهُ بِالنَّارِ ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةُ حَتَّيْنِ هَرَبَ ، فَغَبِضَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ .

(٢) سِيرَةُ أَبِي هَتَامٍ ١٠٠/٤ وَكِتَابُ الْمَغَازِي ٩١٤

(٣) فَتْحُ الْمُبْدَى ٣١٥/٢ وَالْأَحْيَاءُ ٣٢١/٢

وما خَيْرَ بينَ أمرين قط - إلا اختار أيسرهما ، إلا أن يكون فيه إثم
أو قطيعة رحم (١) .

(٣) بالأطفال

١ - كان يداعب الأطفال ، ويجلسهم في حجره ، وكان يَصِفُ
عبد الله وعبيد الله وغيرهما من أولاد عمه العباس ، ويقول : من سبق
إليَّ فله كذا ، فيستبقون إليه ، فيقعّدون على صدره ، فيقبلهم ، ويأتمزهم (٢)
٢ - لما قتل جعفر بن أبي طالب في غزوة مُوتَةَ حزن النبي ، وأسرع
إلى دار جعفر ، فدخل على زوجته أسماء بنت عُمَيْس ، فوجدها قد
عجنت عجيناها ، وغسلت بنيها ، ونظفتهم ودهنتهم ، فقال لها :
اثنيني ببني جعفر .

فلما أُنْتَه بهم تشمّمهم وذَرَفَتْ عيناها ، فقالت أسماء في لهفة وقد
أدركت ما أصابها : يا رسول الله ، بلأني أنت وأُمي ، ما يبكيك؟ أبلغك
عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال : نعم ، أُصيبوا هذا اليوم ، وانهمر الدمع
من عينيهِ .

فجعلت أسماء تصيح ، حتى اجتمع النساءُ إليها .

وخرج النبي إلى أهله ، فقال : لا تغفلوا عن آل جعفر ، واصنعوا
لهم طعاماً ، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم (٣) .

٣ - رأى ابنة مولاة زيد مقبلة ، فربّت على كفيها ، وبكى ،

(١) الأخيلاء ٢/٣٢١

(٢) السيرة الحلبية ٣/٣٧٧

(٣) سيرة ابن هشام ٤/٢٢

فدهش بعض الصحابة من بكاء رسول الله على شهداء مؤتة ، فكان رده على دهشتهم : إن هذه عبرات الصديق على صديقه الذى فقده .

٤ - أبصرة الأقرع بن حابس يقبل الحسن ، فقال إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال رسول الله : أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ، من لا يرحم لا يرحم (١) .

٥ - كان يوثى بالصبي الصغير ، ليدعو له بالبركة ، وليسميه ، فيأخذه فيضعه فى حجره ، فرمى بال الصبي فيصيح به بعض من يراه ، فيقول النبي : لا تزرعوا (٢) الصبي بوله ، فيدعه حتى يقضى بوله ، ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ، ويسر أهله به ، لئلا يروا أنه تأذى ببوله فإذا انصرفوا غسل ثوبه بيده (٣) .

٦ - عن أم خالد بنت خالد بن سعيد الأموية قالت : أتيت رسول الله مع أبي وعلى قميص أصفر ، فقال رسول الله سنه سنه (٤) فذهبت ألعب بخاتم النبوة ، فذهرنى أبي ، فقال رسول الله : دعها ، ثم قال : أبلى وأخلقى ثم أبلى وأخلقى (٥) .

٧ - عن أنس : كان رسول الله يخالطنا ، حتى كان يقول لأخ لى صغير : يا أبا عُمير ما فعل النغير (٦) .

(١) فتح المبدى ٣٠٢/٣ وتيسير الوصول ٥٠/١ وصحيح مسلم ٧٦/١٥

(٢) لاتزرعوا : لاتقطعوا

(٣) الاحياء ١٧٢/٢

(٤) سنه سنه : حسن حسن بالحشية

(٥) فتح المبدى ٣٢٢/٢

(٦) فتح المبدى ٣١١/٢ يخالطنا بالملاطفة وطلاقة الوجه والمزح . وأخوه كان من أمه وهو ابن أبى طلحة زيد بن سهيل الانصارى كان له طائر مات فحزن عليه . النغير : مصغر نقر وهو طائر كالمصنور محمر المنقار يسميه أهل المدينة البلبل .

٨ - كان يصلى وهو يحمل على عنقه أو على عاتقه أمّامة بنت زينب ابنته . وهى لأبى العاص بن الربيع بن عبد شمس ، فإذا سجد وضعها . وإذا قام حملها^(١) .

٩ - أطال رسول الله سجدة فى صلاته ، فقال له أحد الصحابة :

يا رسول الله : إنك سجدت سجدة أطلتها . حتى ظننا أنه قد حدث أمر . أو أنه يوحى إليك .

فقال : كل ذلك لم يكن . ولكن ابنى ارتحلنى . فكرهت أن أعجله حتى يقتضى حاجته .

وكان هذا الإبن هو الحسن أو الحسين^(٢) .

١٠ - مر ببسيت فاطمة فسمع حسينا يبكى . فقال لفاطمة : ألم تعلمي أن بكائه يؤذنى .

١١ - كان يحمل الحسين على عاتقه ويقول : اللهم إني أحبه فأحبه .

١٢ - تعثر الحسن والنبي على المنبر ، فنزل فحمله ، وقرأ قوله تعالى : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » .

١٣ - كان يلعب زينب بنت أم سلمة ويقول : يا زوينب يا زوينب مرارا^(٣) .

١٤ - كان يزور الأنصار . ويسلم على صبيانهم : ويسبح على رؤوسهم^(٤)

(١) فتح المبدى ٢١٩/١

(٢) بسير الوصول الى جامع الاسود ٨٥/٣ والاحياء ١٩٤/٢ .

(٣) كنز العمال ٢٧/٤

(٤) كنز العمال ٣٠/٤

(٤) بالأزقاء

- ١ - بعث أنس بن مالك لقضاء حاجة فابطاً عليه . فتبعه فوجده في فتية يلعبون فقال له : يا أنيس اذهب إلى حيث أمرتك (١) .
- ٢ - أرسل وصيفة في قضاء عمل . فابطت عليه . فقال لها : لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك .

٣ - عن أبي ذر : ساءت رجلا فغيرته بأمة . فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر أعيرته بأمة ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية . إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس : ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فإن كلفتموهم فأعينوهم (٢) .

٤ - خرج أبو ذر الغفارى إلى الناس يوماً ومعه غلامه يرتدى حلة مثل حلته ، فسئل فى ذلك . فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هم إخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل . وليلبسه مما يلبس . ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم .

٥ - أوصى بهم فى آخر خطبة له . وجاء فى وصيته قوله : فما أحببتهم فأأسكوهم . وما كرهتهم فبيعوا . ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ، ولو شاء للملكهم إياكم (٣) .

(١) صحيح مسلم ٧١/١٥

(٢) فتح المبدى ٦٢/١

(٣) الاحياء ١٩٥/٢

(٥) بالحيوان

١ - أكل يوماً رطباً في يمينه ، فحفظ. النوى في يساره ، فمرت شاة ، فأشار إليها بالنوى ، فجعلت تأكل من كفه اليسرى ، وهو يأكل بيمينه ، حتى فرغ ، وانصرفت الشاة .

وكان يأكل لحم الطير الذى يصاد ، ولكنه لم يكن يتبعه ولا يصيده ، بل يحب أن يصاد له ، ويؤتى به فيأكله (١) .

٢ - خرج ذات يوم فإذا هو ببأى بكر وعمر ، فقال : ما أخرجكما هذه الساعة ؟ قال كل منهما : أخرجنا الجوع ، قال : وأنا والذى نفسى بيده أخرجنى الذى أخرجكما .

ثم أتى بهما رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس في بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً ، فقال لها رسول الله : أين فلان ؟ قالت : ذهب يستعذب لنا الماء .

ولم يلبث الأنصارى أن جاء ، فنظر إلى رسول الله وصاحبيه فقال الحمد لله ، ما أحد اليوم أكرم أضيفاً منى ، فانطلق بهم إلى بستانه فجاءهم بعنق فيه بُسر^(٢) وتمر ورطب ، فقال كلوا . وأخذ المديّة ، فقال له رسول الله : إياك والحلّوب .

فذبح لهم ، فأكلوا من الشاة ومن العنق ، وشربوا (٣) .

فلماذا نهاه عن ذبح الشاة الحلوب ؟

(١) الاحياء ٢/٢٢٨

(٢) العنق : الكباسة (السبابة) . البسر : التمر قبل اوطابه .

(٣) شرح الزرقانى ٣١٧/٤ وكنز العمال ٣٠/٤

أشفق على أهله ، لأنهم ينتفعون بلبنها ، أو لأن صغارها في حاجة إلى هذا اللبن ، على حين أن كرم الضيافة من الممكن أن يتحقق بذبح غيرها .

٣ - في مسيره من المدينة إلى مكة عام الفتح رأى على ماء في الطريق كلبة تهر على أولادها وهن حولها يرضعنها ، فأمر رجلا من أصحابه أن يقوم حذاءها حتى لا يعرض أحد من الجيش لها ولا لجرائها (١) .

وقد كان من المتوقع في حالة الزحف ألا يعبأ بالكلبة ولا بجرائها ، وكان من المتوقع ألا يكلف أحدا بحراستها وحمايتها وإبعاد الفزع عنها .

لكن رحمة الرسول كانت فوق المتوقع ، لأن أخلاقه الكريمة فوق ما يتوقع الناس .

٤ - رأى حمارا قد وُسم في وجهه ، فأنكر ذلك ، ونهى عن وسم الحيوان في وجهه ، وعن ضربه على وجهه (٢) .

٥ - قال جُنادة بن جراد العيلاني الأسدي : بعثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم . بإبل قد وسمتها في أنفها ، فقال : ما وجدت فيها عضوا تسمه إلا في الوجه ؟ أما إن أمامك القصاص . فقلت : أمرها إليك يا رسول الله ، فقال : اتنى بشئ ليس عليه وسم ، فأتيته ، فوضعت الميسم في العنق ، فلم يزل يقول : آخر آخر ، حتى بلغت الفخذ ، فقال : سِم على بركة الله ، فوسمتها في أفخاذها (٣) .

٦ - كانت السيدة عائشة مع رسول الله في سفر على بعير صعب ،

(١) كتاب المغازي ٨٠٤

(٢) تيسير الوصول ٣/٣٩٠

(٣) كنز العمال ٤٦/٥ والاستيعاب ٢٥١/١

فجعلت تُصَرِّفه يميناً وشمالاً ، فقال لها : يا عائشة عليك بالرفق ، فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه . ولا يُنزع من شيء إلا شانه (١) .

٧ - سافر معه بعض أصحابه . فرأوا حمرة معها فرخان لها . فأخذوهما فجاءت تُعرَّش ، فلما رآها رسول الله قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا إليها ولدها (٢)

٨ - كثيراً ما أوصى برحمة الحيوان والإشفاق عليه ، كقوله :

(١) إذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حقها من المنازل . ولا تكونوا عليها شياطين (٣) .

(ب) لعن الله من مثَّل بالحيوان (٤) .

• (ح) أما بلغكم أني لعنت من وشم البهيمة في وجهها أو ضربها في وجهها؟ (٥) .

(د) نهى عن التحريش بين البهائم (٦) .

(هـ) نهى عن خصاء الخيل والبهائم (٧) .

(و) اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة (٨) .

(ز) إن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يُطيف ببشر قد أدلَّع لسانه من العطش ، فنزعت له موقها : فغفر لها به (٩) .

(ح) دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض (١٠) .

(١) الاحياء ١٦١/٣

(٢) تيسير الوصول ٥٢/٢ حمرة بضم الحاء وتشديد الميم نوع من الطير كالعصفور تعرض : ترفرف وترضى جناحيها وتدنو من الارض .

(٣) الى (٨) كنز العمال ١٥/٥

(٩) و (١٠) تيسير الوصول ٥٢/٢ أدلَّع لسانه : أخرجه من شدة العطش . الموق : الخف . خشاش الأرض : هوامها وحشراتنا

(ط) بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش . فنزل بئرا ، فشرب منها . ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى . فملاّ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، ثم رقي فسقى الكلب : فشكر الله له ، فغفر له . قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا ؟ قال : فى كل كبد رطبة أجر^(١) .

حضه على الرحمة

كثيرا ما أمر رسول الله بالرحمة . وكثيرا ما نهى عن القسوة ، وهو فى أمره وفى نهيه يضرب الأمثال للناس لعلهم يعقاون .

وقد سبقت عدة أحاديث فى الرحمة بالحيوان . وهذه طائفة أخرى :

١ - من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ^(٢) .

٢ - من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف حق كبيرنا فليس منا^(٣) .

٣ - خاب عبد وخسر لم يجعل الله تعالى فى قلبه رحمة للبشر^(٤) .

٤ - خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يُحَسِّنُ إليه . وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يُسَاءُ إليه . أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا . وأشار بإصبعيه^(٥) .

(١) فتح المبدى ٢٢٤/٢ الكبد الرطبة : المراد كل ذى روح .

(٢) فتح المبدى ٣٠٢/٢

(٣) كنز العمال ٢٤/٢ والجامع الصغير ٢٩٧/٢

(٤) كنز العمال ٢٤/٢

(٥) كنز العمال ٣٥/٢

- ٥ - إن الله يحب الرفق في الأمر كله (١) .
- ٦ - من سره أن يُنْسأ له في أثره ، ويوسَّع عليه في رزقه فليصِلْ رحمه (٢) .
- ٧ - أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح (٣) .
- ٨ - إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رَحِمُهُ وصلها (٤) .
- ٩ - كان آخر ما أوصى به رسول الله أن قال : اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تَأْكُلُونَ ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أَحْبَبْتُمْ فَأَمْسِكُوا ، وما كَرِهْتُمْ فَبِيعُوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، فإن الله ملككم إياهم ، ولو شاء لَمَلَكَهُمْ إياكم .
- ١٠ - جاء رجل إلى رسول الله فقال : يا رسول الله كم تغفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله ، ثم قال : اعف عنه في كل يوم سبعين مرة (٥) .
- ١١ - إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فيجلسه ، وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناول له لقمة (٦) .
- ١٢ - اتقوا الله في الضعيفين : المملوك والمرأة (٧) .
- ١٣ - إن الله كتب عليكم الإحسان على كل شيء ، فإذا قاتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليُجِدْ أحدكم شفرته ، وليُرخِ ذبيحته (٨) .

(١) فتح المبدى ٣٠٥/٣
(٢) إلى (٤) الاحياء ١٨٤/٢ - ١٩٢ الكاشح : المعادى
(٥) و (٦) الاحياء ١٩٦/٢
(٧) البيان والتبيين ٣٠/٢
(٨) الجامع الصغير ١٧٧/١

١٤ - من ضرب مملوكه ظالماً أُقيدَ منه يوم القيامة (١) .

١٥ - من ضرب غلاماً له حداً لم يأتِه ، أو لطمه ، فإن كفارته أن يُعْتِقَه (٢) .

١٦ - من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة (٣) .

١٧ - كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه ، ومن وصيته قوله :
اغزوا ولا تَغْلُوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا .

وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الاسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبو أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تُخَيِّرُوا ذمتكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

(١) و (٢) الجامع الصغير ٣٨١/٢

(٣) الجامع الصغير ٣٧١/٢

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا
تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب
الحكم الله فيهم أم لا (١) .

(١) صحيح مسلم ٣٧/١٢

الفصل الثالث عشر

إِيشَارَ السَّلَامِ

النبي بصبره وحلمه ورحمته وعفوه وحيائه وكرمه داعية إلى السلام ،
وموثر للوئام على الخصام .

وهو بتربيته القرآنية رسول سلام ومحبة ما وجد سبيلا إلى سلام ومحبة ،
فإن لم تكن من الحرب مندوحة فليقابل القوة بالقوة .
فما حكم القرآن الكريم في هذا وذاك ؟

(١) السلام في القرآن

يؤثر القرآن الكريم السلم على الحرب ما كان في الطاقة إيشار ،
فإذا لم يكن بد من الحرب لسلامة العقيدة والحياة والوطن فالحرب
شر لا مندوحة عنها :

١ - ذلك بأن القرآن يدعو إلى المثل الأعلى في جميع الصلات
والمعاملات ، فإن لم ينجح المثل الأعلى كان من الحتم التمشي مع الواقع
ومجاراة الأحداث .

وقد دعا القرآن الكريم إلى السلام فلم يستجب خصوم الإسلام ،
وأبوا إلا الحرب . وصبر النبي على أذاهم ، فلم يزدادوا إلا عتوا وفسادا

في الأرض ، فلم يبق للنبي إلا أن يلجأ إلى القوة المادية والنفسية ، لأن القرآن كما يدعو إلى المسألة والأناة يدعو إلى إعداد القوى لحماية النفس والدين من بغى الأعداء .

٢ - والقرآن يسمى الجنة دار السلام « لهم دارُ السلام عند ربهم (١) » ويجعل التحية فيه سلاماً « تحيتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاماً وأعدَّ لهم أجراً كَرِماً » (٢) « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (٣) ، ويصف المؤمنين المتقين بالمسألة « وعبادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا » (٤) على أن السلام من أسماء الله : « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ » (٥) .

والسلام تحية المسلمين كلما التقوا فرادى وجماعات ، وهم يقوون في تشهدهم في كل يوم مرات : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وينختمون كل صلاة بالسلام .

٣ - وإذا كانت الحرب في طبائع البشر فإن غاية ما تطمح إليه الإنسانية الراقية أن تضيق نطاقها ، وأن ترعى فيها حرمة الناس رعاية كاملة .

والإسلام هو الذي يكفل ذلك ويرعاه ، فإن النبي لم يخارب إلا ليصد الاعتداء ، ولم يستل سيفه إلا عند اليأس من مسالة الأعداء .

-
- | | |
|-----|------------------|
| (١) | سورة الأنعام ١٢٧ |
| (٢) | سورة الأحزاب ٤٤ |
| (٣) | سورة النحل ٣٢ |
| (٤) | سورة الفرقان ٦٣ |
| (٥) | سورة الحشر ٢٣ |

والنبي لم يحارب إلا من حاربوه « وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (١) و « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ » (٢) .

ولم يعاد إلا من عادوه « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُم الظَّالِمُونَ » (٣) .

ولم يتجاوز النبي في حروبه حد الدفاع المشروع والإرهاب الوازع إلى الانتقام الحائق المبيد « فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » (٤) .

وكان النبي يرحب بالسلم إذا ما جنح الأعداء إلى سلم قال تعالى : « فَإِنْ اعْتَذَلُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا » (٥) وقال سبحانه : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِصُورِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٦) .

(١) سورة البقرة ١٩٠

(٢) سورة الحج ٣٩

(٣) سورة الممتحنة ٨-٩ تقسطوا إليهم : تعاملوهم بالحسنى والعدل

(٤) سورة البقرة ١٩٤

(٥) سورة النساء ٩٠

(٦) سورة الانفال ٦١-٦٣

ثم إنه كان رحيماً بأعدائه ، لم يمثل بقتلهم ، ولم يعذب عمرانهم ، ولم يجبر أحداً منهم على نبذ دينه واعتناق الإسلام .

(٢) القوة الحربية في القرآن

من السهل على من يتبصر في القوانين التي سنّها القرآن الكريم للحرب ، ويدرس الحروب الإسلامية في عهد النبي وخلفائه الراشدين ، أن يعلم أن الحرب شر لا مفر منه ، لأنها في طبائع الناس ، وأن يوقن بأن القرآن شرع للحرب أسمى النظم وأعظمها سماحة ، في بواعث الحرب ومقدماتها ، وفي سيرها والتحامها ، وفي الغاية منها ، وفي نتائجها وآثارها (١) .

وإذا كان القرآن الكريم قد حض على السلم ، فإنه حض على القوة ، لأن الحق الذي لا تسنده القوة مضيع مهضوم .

١ - حض على الاستعداد الحربي لصد الأعداء وإرهابهم ، قال تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » (٢) .

وهذه الدعوة على صراحتها ووضوحها بعيدة عن التحرش بالآخرين ، لأن الآية في معرض الأمر بالتقوى والاستعداد للدفاع تعلن أن الغرض من إعداد القوة هو تخويف الخصوم حتى لا يطمعوا في المسلمين ، والمراد بالأعداء هم الذين يقاومون الإسلام ، ويعوقون نشره ، ويعذبون أهله ،

(١) راجع سماحة الإسلام ١٦٩-١٨٨ أحمد الحوفي

(٢) سورة الأنفال ٦٠ رباط الخيل : أعدادها وتجهيزها للجهاد

ويعادون المسلمين ، ويتطلعون إلى القضاء عليهم أو الاستيلاء على بلدهم ، كما كان يحدث من قريش ومن اليهود .

٢ - والقرآن يحرض على قتال المشركين في شجاعة وصبر واستهانة بالحياة ، لكنه لا يأمر المسلمين أن يبدؤوهم بحرب ، لأن القرآن طالما نفر من الظلم والبغى والعدوان ، قال تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» (١) وقال «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» (٢) وقال « فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ : لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٣) .

وقال تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (٤) .

وقال سبحانه : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » (٥)

٣ - وعد القرآن الكريم المجاهدين الذين يُستشهدون في الحرب دار الخلد مثوبة لهم على الاستشهاد في الدفاع عن الدين والأرواح والأموال ، قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ

(١) سورة التوبة ٧٣

(٢) سورة التوبة ٣٦

(٣) سورة التوبة ١٢-١٣

(٤) سورة البقرة ٢١٦

(٥) سورة الحجرات ١٥

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدَا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ (١) .

ووعده المجاهدين ثواباً عظيماً في قوله : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْأُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ، وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا ، إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ، وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) » .

٤ - حض على الثبات في وجه العدو ، وحض على الثقة بالنفس وبالله ، وأمر بالاتحاد وطاعة القائد ، قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ يُرَّهُ إِلَّا مُتَعَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٣) » .

٦ - قرع الجبناء المتخلفين عن الجهاد ، لأنهم ضعاف النفوس يؤثرون سلامتهم على سلامة الدين والمسلمين ، قال تعالى في المنافقين الذين تخلوا عن غزوة تبوك وثبّطوا غيرهم : « فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ . قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٤) » .

٧ - نفّر القرآن الكريم من الاستخذاء وقبول الضيم والإقامة على

(١) سورة التوبة ١١١

(٢) سورة التوبة ١٢٠-١٢١ نصب : جهد وتعب - مخمصة : جوع . نيل : قتل أو أسرا أو غنيمة .

(٣) سورة الأنفال ١٥-١٦ متحرّفاً لقتال : مداراً في الحرب . متحيزاً : منقسم

(٤) سورة التوبة ٨١

الخسف ، قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ : قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا : أَلَمْ نَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسعةً فتهاجروا فيها ؟ فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (١) » .

فالمسلمون الذين يرضون بالذل حطب جهنم ، أما الضعفاء الذين لا يقدرون على الجهاد أو الهجرة من رجال ونساء وولدان ، فقد استثناهم الله سبحانه من الوعيد .

مظاهره

كان النبي محباً للسلام مؤثراً له ، لأن هذا الإيثار هو الذي رباه عليه القرآن الكريم ، ولأنه يتفق وشمائل النبي كلها . وهذه بعض المظاهر الدالة على إيثار السلام .

(أولا) في الأسماء

كان يحب الأسماء التي تدل على السلام أو تشير إليه ، ويتفأئل بها ، ويؤثرها على الأسماء المتصلة بالحرب أو بالظلم . وقد غير بعض الأسماء التي توحى بالقطيعة والحرب والجفاء ، فقد أراد على بن أبي طالب أن يسمى ابنه الأول من السيدة فاطمة حرباً ، فلما سأله النبي عن الاسم الذي اختاره قال : حرب ، فقال النبي : بل هو

(١) سورة النساء ٩٧-٩٩

حسن . ثم ولد له ابنه الثاني فسماه على حرباً ، ولكن النبي سماه حسينا^(١) .

وسأل مرة : من يحلب هذه اللقحة ؟ فقام رجل ، فقال له الرسول : ما اسمك ؟ فقال : مرة ، قال له : اجلس . ثم قال : من يحلب هذه ؟ فقام رجل آخر ، فقال له الرسول : ما اسمك ؟ فقال : حرب ، قال له : اجلس . ثم قال : من يحلب هذه ؟ فقام رجل ، فقال له الرسول : ما اسمك ؟ فقال : يعيش ، قال له : احلب .

وسأل رجلاً عن اسمه : فقال : أضرم ، فقال : أنت زُرعة ، وسأل آخر عن اسمه ، فقال : حزن ، قال : بل أنت سهل^(٢) .

وغير اسم غاوى بن ظالم إلى راشد بن عبد ربه .

ومر في غزوة ذي قرد على ماء ، فسأل عنه ، فقبل له : هذا اسمه بئسان ، وهو مالح ، فقال : لا ، بل اسمه نَعْمَان ، وهو طيب ، فوجدوه طيباً عذباً ، واشتراه طلحة بن عبيد الله ثم تصدق به ، فلما جاء إلى رسول الله وأخبره بذلك قال له : ما أنت يا طلحة إلا فياض ، فسمى طلحة بالفياض^(٣) .

وأقوى قوم إليه فقال لهم : من أنتم ، فقالوا : نحن بنو غِيَّان . فقال : بل أنتم بنو رَشْدان^(٤) .

(١) منهاج السنة النبوية . ابن تيمية

(٢) تيسير الوصول ٣٨/١ ، ٤٠ : اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن . الحزن : ما غلظ من الأرض . الأمر : الفقير الكثير العيال أو المجدوذ المقطوع . زرة : بذر أو موضع يزرع فيه .

(٣) السيرة الحلبية ٢٧٧/٢

(٤) الخصائص ٢٦٠/١

وكان يقول لأصحابه : إذا أبردتم إليّ بريدا فابعثوه حسن الوجه
حسن الاسم (١) .

وكان يحب الفأل الحسن ، ويستبشر بالاسم الجميل ، فقد كان
فيمن سفر بينه وبين قريش في صلح الحديبية سهيل بن عمرو ، فقال
النبي : قد سهّل لكم من أمركم (٢) .

وهو القائل : يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا (٣) .

(ثانيا) الحظ على السلام

قال عليه الصلاة والسلام :

١ - إياكم وسوء ذات البين ، فإنها الحالقة (٤) .

٢ - أفضل الصدقة إصلاح ذات البين (٥) .

٣ - ألا أدلكم على صدقة يحبها الله ورسوله : إصلاح ذات البين إذا
تفاسدوا (٦) .

٤ - ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فيمنى خيرا (٧) .

٥ - اقتتل أهل قُباء حتى تراموا بالحجارة ، فأخبر رسول الله بذلك ،
فقال : اذهبوا بنا نصلح بينهم (٨) .

(ثالثا) مع قريش

لقد سالم النبي قريشاً وهو في مكة ضعيف القوة قليل العدد ، وسالها
وهو في المدينة عظيم القوة كثير العدد ، وآثر السلام حتى بعد أن انتصر

(١) الجامع الصغير ١٠/١
(٢) فتح المبدى ١٣٤/١ و ٢٨٢/٢ والاحياء ٤٦٢/٤
(٣) فتح المبدى ١٢/١
(٤) الى (٦) كنز العمال ١٤/٢
(٥) و (٨) فتح المبدى ٢٧٢/٢

عليها مرات ، ثم كانت خاتمة هذا الإيثار يوم أن فتح مكة وخضعت قريش بعد طول عناء وعداء .

ونستطيع أن نوجز علاقات النبي بقريش في مرحلتين : الأولى المقاومة السلبية ، والثانية المقاومة الفعلية ، وأن نكشف في كليهما عن سياحته وإيثاره للسلام .

(١) المقاومة السلبية

جاء محمد عليه الصلاة والسلام بدين جديد ، لينشئ مجتمعا مثالياً في عتيديته وعبادته ونظمه وأخلاقه ، وليلغى كثيراً مما ألفه العرب في عتادهم ونظمهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وبدأ للدعوة سرا ، فأمن به بعض المقربين إليه ، ثم أمره الله أن يجهر بالدعوة « فاصدغ بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين^(١) » ، فماذا فعلت قريش ؟

١ - تصدوا له يكدبونه ويؤذونه ، وهو يصبر على الأذى والتكذيب ، ويبين لهم ما في دعوته من حق وخير ، ويدال على صدقه ، وتحادهم بالقرآن أن يأتوا بسورة من مثله ، فإذا عجزوا كان عجزهم برهاناً على أنه من عند الله ، وأن محمداً رسول إليهم بهذا الدين الجديد .

فهل قدروا أن يأتوا بسورة أو بعض سورة ؟ لا . وهل صدقوه ؟ لا ، بل تمادوا في استكبارهم وعنادهم ، فرموه بالكذب وبالجنون وبالكهانة وبالسحر ، وجعلوا يسخرون منه .

ثم طالبوه بمعجزات تدل على تعنتهم وإصرارهم على الكفر ، قال

(١) سورة الحجر ٩٤

تعالى : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تُكُونَ لَكَ جُنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ . قُل : سُبْحَانَ رَبِّيَّ ، هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ » (١) .

وعجبوا من أن يكون الرسول رجلاً منهم يأكل كما يأكلون ، ويمشي كما يمشون ، لا يصاحبه ملك من السماء يؤيده في دعوته ، وليس له كنز من المال يخفيه ويدل على رسالته ، وليست له حديقة مثلهم تدر عليه الخير وقالوا : « مال هذا الرسول يأكلُ الطعام ، ويمشي في الأسواق ؟ لولا أنزلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرًا ، أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ، أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا . وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا » (٢) .

لكن النبي صبر على تكذيبهم ، وسوء إتهامهم ، وآلام إعنائهم ، وأمره الله أن يقول لهم : « إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٣) .

كانت الدعوة حينئذ تشق طريقها إلى القلوب بقوتها الذاتية ، وبسموها الروحي والاجتماعي ، وكلما ازدادت ذبوعاً اشتعلت قريش حَقَقاً على النبي وعلى من أسلموا .

فما الذي أحرق قريشاً ؟

لم يكن من سبب لحنقهم إلا الأنفة من أن يتبعوا رجلاً منهم يُبَلِّغُ عن ربه ، والخشية على مكانتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ،

(١) سورة الاسراء ٩٠-٩٣ كسفا : قطعا . قبيل : مؤبدا وكفيل . زخرف : ذهب

(٢) سورة الفرقان ٨٧

(٣) سورة الاعراف ١٨٨

أن يذهب بها الدين الجديد الذي يدعو إلى الحرية والمساواة والعدل ،
وإلى نظم سامية لم يألّفوها ، ومُثل عالية لم يطبقوها ، وعقيدة نقية
لا سلطان فيها للأصنام ولا لِسَدنة الأصنام .

٢ - فلما أَعَيْتَهُم الحيلة في مناهضة النبي لجأوا إلى أخط. أنواع
الخصومة .

والأمثلة على هذا كثيرة ، يكفي أن نمثل لها بأن كل رجل أخذ يعذب
من أسلم من عبيده عذاباً ألياً ، وبأن كل قبيلة جعلت تنكل بمن أسلموا
من أهلها تنكيلاً .

ولم يسلم النبي من هذا العدوان ، كما تقدم في (الصبر) .

٣ - فلما ضاق النبي بما ينزل بالمسلمين من تعذيب ، وعز عليهم
أنهم ضعفاء لا يقوون على رد العذاب عن أنفسهم ، أمرهم بالهجرة
إلى الحبشة ، حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه ، فخرج فريق منهم إليها ،
نجاه بحياتهم ، وخوفاً على دينهم .

فهل تركتهم قريش ؟ لا ، بل جدّت في أن تستردهم ، فبعثت
مندوبين عنها إلى الحبشة ، ومعهما هدايا للنجاشي وبطارقته ، وطلباً منه
أن يرد هؤلاء القوم الذين ابتدعوا ديناً لا هو دين العرب ولا دين
النجاشي ، لكن النجاشي لم يوافق على إرجاعهم ، ورفض الهدايا ،
فعاد المندوبان خائبين ، وبطل تدبير قريش .

٤ - في هذا الوقت كان قد أسلم عظيمان من قريش هما حمزة بن
عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب ، فازدادت قريش حنقاً ، فتعاهدت
على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، فلا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ،

ولا يبيعونهم ولا يشترون منهم ، وكتبوا هذه المعاهدة ، في صحيفة ، وعلقوها في الكعبة ، توكيدا لها وحضاً على اتباعها .

وكان الغرض من المقاطعة الحصار الاقتصادي والاجتماعي والمدني ، وتعويق سبل الحياة أمام المسلمين ، وجعلهم سجناءً منبوذين حتى يموتوا همماً وجوعاً .

وصبر بنو هاشم وبنو عبد المطلب سنتين أو ثلاثاً أنفق فيها أبو طالب ماله ، وأنفقت السيدة خديجة ماله .

ثم دعا بعض عملاء قريش إلى نقض المعاهدة فنقضت .

٥ - انتهر النبي موسم الحج ، فعرض الدعوة على جماعة من المدينة ، فأسلموا ، وبايعوه على أن ينصروه إذا هاجر إليهم .

وحيث بدأ الإسلام يجد بيئة حرة ، لكن مشرقي قريش طار صوابهم لما علموا بمخالفة الأوس والخزرج للرسول ، فاجتمعوا في دار الندوة ، وتشاوروا ، فأشار بعضهم بخبسه ، وأشار آخرون بنفيه ، وأوعز بعضهم بقتله ، وانتهى بهم الرأي إلى أن يجمعوا من كل قبيلة شجاعاً يُعطى سيفاً صارماً ، ليضربوا محمداً ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا العرب جميعاً ، فأوحى الله إلى نبيه ، فهاجر إلى المدينة ، ونجا ، وأخفق تدبير قريش وضاع أملها هباءً .

٦ - لا شك إذاً في أن الدعوة شقت طريقها في مكة وفي المدينة ، معتمدة على الصبر والمقاومة السلبية ، لأنها ضعيفة لا تقوى على المقاومة ، وليس لها سلاح إلا ما تبشر به من حق وخير وسعادة .

(٢) المقاومة العملية

هاجر النبي إلى المدينة ، وهاجر بعض المسلمين إليها قبله وبعده ،
فهل سَلِمُوا من أذى قريش ؟

لقد ازدادت بغضاً لهم ، وعزماً على القضاء عليهم في دارهم الجديدة ،
وحرصت العرب ليشاركوها في هذا العدوان .

فيا للعجب ، المسلمون يدعون إلى الحق والخير في غير استعلاء ولا طمع
في مال أو رياسة أو جاه ، ولكن المشركين يضيقون عليهم ، ويصدون الناس
عن سبيلهم ، وينكرون عليهم حق الحرية في العقيدة والعبادة والعمل
وحق الحياة .

فهل يسلك المسلمون سبيلاً غير النضال عن أنفسهم ، بعد أن
ناضلوا بحقهم باطل خصومهم ، وبعد أن كافحوا بخيرهم شرور أعدائهم ؟
لا ، إن المسلمين مضطرون إلى الدفاع عن عقيدتهم وعن وجودهم ،
ولهذا تتابعت بين النبي وقريش موجات من الهجوم والدفاع .

وإنه ليتبين لمن ينعم النظر المنصف أن النبي كان في كل هذه الحروب
مؤثراً للسلام على الخصام ، ويكفى أن نذكر بعضها على سبيل المثال .

١ - غزوة بدر .

كانت لقريش قوافل تجارية تتردد بين مكة والشام ، بلغت في
بعض الأحيان أثنى بغير ، إذ كانت مكة المركز المختار لتجارة الجنوب القادمة
من الهند والحبيشة واليمن ولتجارة الشمال القادمة من الشام وما والاها .
وإذا كان النبي لا يستطيع أن يحتبس الدعوة في صدره ، ولا يطيق

أن يُعْرِقَها معوق عن الذبوع والاستقرار ، فإن قريشاً لا تستطيع أن تكف عن رحلتها إلى الشام ، ولا تطيق أن تقيم في مكة بغير غدر ورواح . وقد كانت قريش منذ قاومت الدعوة ، ومنذ اضطرت النبي والمسلمين إلى الهجرة في حرب متصلة مع النبي ، لم يخفف من حدتها أنه سألها ما اتسع جهده للسلام .

فلم يكن بد للنبي من أن يهرب قريشاً بقوته بعد أن عجزت وسائل السلم عن اجتذابها إلى التفاهم والوثام ، فخرج إلى القافلة القادمة من الشام ليرغم قريشاً على أن تتخذ لقوافلها طريقاً آخر ، حتى يطمئن المسلمون إلى أن قريشاً لن تفاجئهم بهجوم غادر ، أو ليضطرها إلى الكف عن مقاومته ، ويقرع أسماعها ، ويفتح عيونها ، لتوادعه مودة تقيه وتقيها شرور العداوة المستمرة ، وتكفل له أن يدعو إلى الإسلام ما وجد إلى الدعوة سبيلاً ، وتكفل لقريش أمن طريقها إلى الشام .

وذلك أن قريشاً إذا ما أيقنت أن المسلمين بالمدينة يترصدون لها في ثنايا الطريق المار بالقرب من بلدهم ، اضطرت إلى مصالحتهم أو موادعتهم ، فكسبت اطمئنانها على مورد ثروتها ، واطمأن المسلمون إلى سلامتهم وإلى نشر عقيدتهم بين الناس ، واستطاعوا أن يدخلوا مكة زواراً لأهلهم وحجاجاً لبيت الله .

خرج النبي إلى بدر ، وعلم رئيس القافلة أبو سفيان بخروجه ، فعدل عن الطريق المعتاد ، وسار على ساحل البحر مسرعاً ، فنجت القافلة ولكنه قبل أن يستوثق من نجاتها خشى أن يتعقبه المسلمون ، لأنه يعلم أنهم موتورون من قريش ، إذ عذبتهم ، وطردهم من وطنهم ، واستولت على

أَمْلَاكِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، فَبَعَثَ إِلَى قَرِيشٍ يَخْبِرُهَا أَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ
تَصَدُّوا لِلْقَافِلَةِ ، وَأَرَادَ مَبْعُوْثُهُ أَنْ يَشِيرَ قَرِيْشًا فَقَطَعَ أَنْفَ بَعِيرِهِ ، وَشَقَّ
قَمِيصَهُ ، وَصَاحَ ، فَاسْتَجَابَتْ لَهُ قَرِيشٌ ، وَتَجَهَّزَتْ لِلرَّحِيلِ .

كَانَتْ الْقَافِلَةُ قَدْ نَجَتْ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا الْمُسْلِمُونَ بِسُوءٍ ، وَكَانَ
أَبُو سَفْيَانَ قَدْ وَثِقَ بِنَجَاتِهَا ، وَخَافَ سُوءَ الْعَاقِبَةِ مِنْ صِدَامِ قَرِيْشٍ وَالْمُسْلِمِينَ ،
فَأَرْسَلَ إِلَى قَرِيْشٍ يَقُولُ : إِنَّكُمْ قَدْ خَرَجْتُمْ لِتَحْمُوا قَافِلَتَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ،
ثُمَّ نَجَتْ وَنَجَّوْا ، فَارْجِعُوا .

وَوَافَقَهُ عَلَى رَأْيِهِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ أَبَا جَهْلٌ أَصْرَ عَلَى آلَا يَرْجِعُوا ،
وَصَاحَ : وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَّ بِدِرَاهِمِ (١) ، فَتَقِيمُ ثَلَاثَ لَيَالٍ نَنْحَرُ
الْجُزْرَ ، وَنَطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَنَسْقِي الْخَمْرَ ، وَتَعْزِفُ عَلَيْنَا الْقِيَانُ ، وَتَسْمَعُ بِنَا
الْعَرَبُ ، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا .

فَلَمَّا سَمِعَهُ الْقَوْمُ تَرَدَّدُوا بَيْنَ الْإِقْدَامِ وَالرَّجُوعِ ، وَخَشَوْا أَنْ يَتَهَمُوا
بِالْجَبْنِ إِذَا رَجَعُوا ، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَّا بَنُو زُهْرَةَ ، وَسَارَ الْبَاقُونَ لِيَخْتَارُوا
مَنْزِلًا لِلْقِتَالِ .

لَقَدْ كَانَ الْمَنْطِقُ السَّلِيمُ يُوجِبُ عَلَى قَرِيْشٍ أَنْ تَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ
أَبِي سَفْيَانَ فَتَعُودَ إِلَى مَكَّةَ فَرِحَةً بِأَمْوَالِهَا الَّتِي نَجَتْ ، وَبِرِجَالِهَا الَّذِينَ
سَلِمُوا .

لَكِنَّا قَرِيْشٌ ، أَبَى عَلَيْهَا عِدَاؤُهَا لِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ إِلَّا أَنْ تَشْتَبِكَ مَعَهُمْ
فِي حَرْبٍ حَيْثُ لَا مَجَالَ لِحَرْبٍ أَوْ صِدَامٍ .

وَمَا زَالَ النَّبِيُّ حَرِيصًا عَلَى حَقْنِ الدَّمَاءِ ، فَأَوْصَى الْمُسْلِمِينَ أَلَّا يَقَاتِلُوا

(١) بدر : مكان كان من مواسم اجتماعهم وأسواقهم في كل عام .

حتى يأذن لهم ، وأوصاهم ألا يقتلوا أناساً ساء لهم ، لأنهم أخرجوا مع قريش كرها ولو أنهم خيروا لآثروا البقاء .

ثم لم يكن بد من القتال ، فقاتل النبي مضطراً ، ليحمي دينه ونفسه وأتباعه ، وشاء الله أن ينتصر المسلمون ، وأن تكون غزوة بدر بشيراً للمسلمين ونذيراً للكفار « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ » (١) .

٢ - غزوة أحد .

لم يكد يمضي على موقعة بدر عام وبعض عام حتى استنفرت قريش العرب ، وزحف على المدينة جيش ضخم ، ليثأر من المسلمين ، وسخا أغنيائهم بالمال لتجهيز المحاربين ، « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ، لِيُصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبُونَ (٢) » .

فماذا يفعل النبي ؟

أليس مضطراً إلى الدفاع عن المدينة وعن مسلميها ؟ إن الأعداء يهاجمونها ليقضوا على المجتمع المثالي الذي بها ، فليس لديه إلا عمل واحد يجب عليه أن يسارع إلى القيام به ، وهو الدفاع .

وقد انتصر المسلمون في أول الموقعة ، ولكن الرماة خالفوا أمر الرسول فانهمزوا .

(١) سورة الحج ٣٩-٤٠

(٢) سورة الأنفال ٣٦

على أن انتصار قريش لم يشفِ حنقها وحنق حلفائها ، فتوعدت النبي بحرب أخرى ، بل فكرت في أن تكرر على المدينة عقب النصر ، لولا أن النبي أوهمهم أنه جمع جموعه ليتعقبهم ، فخشوا أن يسترد النصر ، فاتجهوا إلى مكة سراعاً .

٣ - غزوة الخندق .

تقدم في عفو النبي أن اليهود حرضوا قريشاً وغيرها من القبائل على محاربة النبي ، وأن الحلفاء من القبائل العربية ومن اليهود تجمعوا ليقضوا على النبي ، وليضربوا المدينة الضربة القاضية . فلما علم المسلمون تحصنوا بمدينتهم ، واكتفوا بأن حفروا حولها : خندقاً يعوق المهاجمين عن دخولها ، ولم يبادثوا أحداً بقتال . ومكث الحصار شهراً ، كانت فيه قريش وغيرها يتحرشون بالمسلمين ، ويستفزونهم .

ثم يئست الأحزاب من دخول المدينة ، وانقسموا على أنفسهم ، فرجعوا بغير قتال ، فضلاً من الله على المسلمين ونعمة « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ^(١) » .

(١) سورة الأحزاب ٩-١١ من فوقكم ومن أسفل منكم : من أعلى الوادي ومن أسفله

٤ - صلح الحُدَيْبِيَّة .

خرج رسول الله في جماعة من المسلمين سنة ست من الهجرة ،
لِيَعْتَمِرَ ، وَلِيُعْلِمَ العرب جميعاً أن الإسلام يجعل البيت الحرام أكثر مما
يجلونه ، ويبقى على الصحيح من الشعائر التي يمارسونها ، فيكسب الإسلام
عطف بعض خصومه ، ويمحو ما أَلصقته به الدعاية المغرضة الحاقدة .

ومن الذي يحول بين المسلمين والبيت الحرام ؟

إنه بيت العرب جميعاً ، بل إن حق المسلمين فيه أعظم ، فليس
لقريش أن تصد عنه فريقاً من أبنائها شرح الله صدورهم للإسلام ،
ما دام هذا الفريق لا يبغى بقريش أى عدوان ، ولا يستذلها في الوصول
إلى البيت الحرام .

ولقد اجتهد النبي في أن يمحو ما قد يتسرب إلى نفوس قريش من
سوء الظن ، فأعلمهم منذ خروجه أنه خرج معتمراً يريد السلام لا الخصام ،
وأنه لا يبتغى إلا أن يزور البيت الحرام .

ثم حقق فعله قوله ، فخرج هو وأصحابه لا يحملون من السلاح
إلا ما يحمل المسافر ، وساقوا الَهْدَى أمامهم إلى فقراء مكة .

لكن قريشاً الضالة الحاقدة لم تشأ أن تسالم من سالمها ، ولم ترد
أن تترك للمسلمين الحرية في زيارة بيت الله ، فعبأت قواها لحرب النبي .

وكان نذيرها إلى الحرب أن أرسلت مائتي فارس طليعة لها : ليصدوا
المسلمين عند عسفان^(١) ، فلما علم النبي بهذا قال : يا ويح قريش ،

(١) عسفان : على مرحلتين من مكة .

لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهر ذلك أو تنفرد هذه السالفة (١) .

وحرص النبي على السلام ، فأمر أصحابه أن يعدلوا عن طريق فرسان قريش حتى لا يلتحموا بهم ، فساروا إلى أن بلغوا الحُدَيْبِيَّة (٢) ، فنزلوا بها .

وحينئذ كرر النبي رغبته في حقن الدماء بقوله : والذي نفس محمد بيده لا تدعوني قريش إلى خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها .

ثم سَفَرَ الرسل بينه وبين قريش ، ونقلوا عنه أنه لا يريد إلا زيارة البيت ، وأنه يؤثر أن تكون بينه وبين قريش هدنة لا حرب فيها ، ولكن قريشاً رفضت وسخرت من بعض السفراء .

لم ييأس النبي من المسألة ، فبعث سفيرا رابعاً هو عثمان بن عفان ، فأبَّت قريش أن تجيبه إلى ما عرض عليها من سلام ، واشتطت في حنقها فحبسته عندها . وهي تعلم أن النبي لم يحتجز سفيرا من سفرائها الذين أوفدتهم إليه .

وفي هذا الوقت أرسلت قريش خمسين رجلاً ليطوفوا بالمسلمين ، لعلمهم أن يصيبوا منهم غرّة ، فلما رموا بالنبل والحجارة في معسكر المسلمين أسرهم الحراس ، وجاءوا بهم إلى رسول الله ، ففعا عنهم ، وخلي سبيلهم . وبهذا كله أعلن النبي مرات بقوله وعمله أنه مؤثر للسلام ، وسرعان

(١) تنفرد هذه السالفة : يبرتر عنقي

(٢) حجة من مكة

ما ذاع بين المسلمين أنَّ عثمان قد قتل ، فلم يجد النبي بدا من الاستعداد لمحاربة قريش ، بعد أن يئس من مسالمتها ، ويئس من جدوى التسامح معها ، فكانت بيعة الرضوان .

فلما علمت قريش أنَّ المسلمين قد اعتزموا على الحرب لانت بعض اللين ، وأرسلت بشروطها للموادة (١) ، وهى شروط متعسفة تظهر المسلمين فى مظهر الضعف والانهزام .

ومع هذا قبلها النبي ، فدهش بعض الصحابة من قبوله ، وعجبوا من أنَّ يرد المسلمون إلى قريش من جاءهم مسلماً . وألا ترد قريش إلى المسلمين من جاءها من المسلمين .

لكن النبي كان أبعد نظراً ، لأنَّ الذين حجزتهم قريش بمكة فروا ، فتجمعوا حول رجل منهم ، وكان عددهم نحو سبعين رجلاً ، وتربصوا بقريش بالعيص ، وقطعوا طريقها إلى الشام ، فلم يظفروا بأحد منها إلا قتلوه ، ولم تمر بهم غير إلا سلبوها . فطلبت قريش من النبي أنَّ يلتقى هذا الشزط ، واستحلفته أنَّ يضم إليه هؤلاء ، لأنَّها لا حاجة لها بهم ، فأواهم رسول الله .

٥ - فتح مكة .

لم تقنع قريش بما فى صلح الحديبية من سماحة النبي وإيثاره

(١) الشروط هى : (١) بين قريش ومحمد هدنة لا حرب فيها مدتها عشر سنوات يأمن فيها الناس ويكف، بعضهم عن بعض (٢) من جاء الى محمد من قريش بغير اذن وليه رده ، ومن جاء قريشا من محمد لم رده (٣) يرجع المسلمون فى هذا العام من غير عمرة ، فلا يدخلون مكة . وفى العام القادم يدخلونها بغير سلاح معهم الا السيوف فى أنصافها ولا يقون بمكة أكثر من ثلاثة أيام (٤) من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل ، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل . وحيث تواتبت خراة فقالوا نحن فى عهد محمد وعهده وتواتبت بنو بكر فقالوا نحن فى عهد قريش وعهدهم (٥) بين قريش ومحمد صدور منطوية على ما فيها ولكن لا اسلال - سرقة خفية - ولا خيانة (سيرة ابن هشام ٣/٢٣١)

السلام ، فنقضت العهد بعد سنتين ، إذ ساعدت حلفاءها من بني بكر ابن عبد مناة من كنانة على حلفاء النبي من خزاعة ، مع أنها في شروط الصلح تعاهدت على أن العرب أحرار في انضمامهم إلى النبي أو إلى قريش .

وتمثلت مساعدتها لبني بكر فيما قدمت إليهم من سلاح ومن رجال .
فأرسلت بخزاعة إلى النبي تخبره وتستنجد به ، وفاء بمخالفته لها ، كما ساعدت قريش حلفاءها غادرة .

حينئذ كان النبي مضطرا إلى مناصرة حلفائه ، وفاءً بالعهد ، وانتصافاً للمظلوم ، وصيانة للكرامة المسلمين ، وإنجازا لوعدهم ، فتجهز النبي لفتح مكة سنة ثمان ، ومضى فافتتحها سلماً لا عنوة ، إذ كان كثير من زعمائها قد أسلموا من قبل كخالد بن الوليد وعمر بن العاص ، وأسلم أبو سفيان زعيم المشركين والمسلمون على مشارف مكة .

وفي هذا اليوم قال سعد بن عبادة أحد قواد جيش الرسول وحامل راية الأنصار : يا أبا سفيان اليوم يوم المَلْحَمَةِ ، اليوم تُسْتَحْلُ الحُرْمَةُ (١) ، يريد أن من أهدر دمه سيقتل ولو تعلق بأستار الكعبة ، وسيمحو المسلمون الأسماء والصور التي تزعم قريش أنها تعظيم للكعبة .

فتمتل ذلك إلى رسول الله ، فقال اعلى بن أبي طالب : أدرك سعدا ، فخذ الراية منه ، فكأن أنت الداخل بها .

وروى أن أبا سفيان قال للنبي لما حاذاه : أمرت بقتل قومك ؟ قال : لا ، فذكر له ما قال سعد ، ثم ناشده الله تعالى والرحم ، فقال النبي :

(١) الحرمة : مالا يحل انتهاكه والمراد الكعبة

اليوم يوم المرجمة ، اليوم يعز الله قريشاً . وأرسل إلى سعد فأخذ الراية منه ، فدفعها إلى ابنه قيس (١) .

وقد كان المشركون يتخوفون أن ينكل النبي بهم ، وأن يثأر منهم ، لكنه لم يفعل بل عفا عنهم ، وهو قادر عليهم .

٦ - ألم يكن النبي في علاقته بقريش مؤثراً للسلام ما وسعه الإيثار ؟ ألم يكن داعية إلى السلام ما وجد سبيلاً إلى الدعوة ؟ بلى .

فإن لم يجد بداً من الحرب عمد إلى تخفيف ويلاتها ، وتقصير أيامها ، وتقليل ضحاياها ، وذلك بأن يعي جنوده ويدكي حماسهم ليقدموا وأمامهم هدفان اثنان : النصر أو الاستشهاد ، ثم يفاجئ أعداءه ، ويبادهم بالهجوم ، مجتهداً في إخفاء خطته ، وفي التهويل من قوته ، ليملاً الرعب من جيشه نفوس أعدائه فلا يثبتون طويلاً أمامه ، فيواتيه النصر الذي أراد .

هكذا كانت حروب النبي مع قريش ومع اليهود ، وهكذا كانت حروب الخلفاء الراشدين حروب اضطرار ودفاع ليس فيها استعلاء ولا عدوان (٢) .

(رابعاً) مع اليهود

قد يسأل سائل : كيف عامل النبي يهود المدينة ؟

وهل آثر في معاملته لهم السلام على الخصومة ، والعفو على العقوبة ؟

نعم ، فقد صبر النبي على أذى اليهود وخياناتهم حتى ضج الصبر ،

(١) شرح الزرقاني ٣٠٦/٢
(٢) سماحة الاسلام ٢٠٤-١٣٠ وفتح البندى ٢٧٣/٢ و ٢٨٠ وشرح الزرقاني ١٨٥/٢
وسيرة ابن هشام ٣٢١/٣ .

وعفا عنهم حتى ضاق بهم العفو ، وسالمهم ما وسعته المسألة ، ثم يثس من صلاحهم ، وأيقن أن سلامة الإسلام والمسلمين وسلامة المدينة ، وحياة الدعوة التي كلف أن يبلغها ، تحتم عليه ألا يصبر أكثر مما صبر ، وألا يعفو أعظم مما عفا ، وتوجب عليه أن يلقي الشر بما ينبغي أن يلقاه به ، فلم يكن بد من النهوض بهذا الواجب ، كما يتبين من هذه الأحداث (١).

١ - مقتل كعب بن الأشرف .

كان قد عاهد النبي هو وقومه بنو النضير على ألا يحاربوا النبي أو يحاربهم ، وعلى أن يكون كل منهم حليف الآخر يُكِنُّ له المودة والوفاء ، ويقدم له المعونة إن احتاج إلى معونة .

لكنه نقض العهد ، وجعل يؤلب قريشاً وغيرها على النبي ، بدافع من عداوته للإسلام التي كانت تطمس على قلبه ، فيؤثر وثنية قريش على توحيد محمد عليه الصلاة والسلام ، حتى إنه لما قتل بعض زعماء قريش في غزوة بدر قال : أولئك أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبَطُنَ الأرض خير من ظهرها .

ثم أسرع إلى مكة يحرض قريشاً على النبي ويتباكى بشعره على قتلاها ويحرض على الثأر لهم .

ولم يشف هذا حقه ، بل عاد إلى المدينة ، فجعل يشبُّ بنساء المسلمين ، وهو يعلم أن بهتانه يؤذى المسلمين ، وَيَنْفِرُ منه الخلق العربي .

(١) كتاب المأزى للواقدي وسيرة ابن هشام والسيرة الحلبية وتاريخ الطبري في مواضع شتى وسماحة الإسلام ١٤٨ .

فماذا يفعل النبي برجل يأكل الحقد قلبه وعقله فلا يفتأ يشعل
نار الفتنة ؟

هل يعفو عنه ؟

لا ، فإنه قد نقض العهد ، وأشعل الفتنة ، وجرح أعراض المحصنات ،
وتبجح بالعداوة ، ولن يكون العفو عنه إلا تمكينا له ، وترويجا لغيه ،
وتجريئاً لغيره .

هل ينتقم منه ؟

نعم ، فإن سلامة الإسلام والمسلمين تقتضى هذا ، لأنه الجزاء العادل .
والعقاب الرادع .

٢ - بنو قينقاع .

لم يزدجر بنو قينقاع بمقتل كعب بن الأشرف ، بل جعلوا يتحرشون
بالمسلمين ، واعتدوا على امرأة مسلمة ؛ كانت قد قدمت إلى صائغ يهودى
بسوقهم ، فأرادوا منها أن تكشف عن وجهها فأبت ، فتسلل أحدهم
إلى خلفها فعلق طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها فلما قامت انكشفت عورتها ،
فسخروا منها وضحكوا ، فصرخت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ
فقتله ، ووثب اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم إخوانهم ،
فوقع الشر بين المسلمين وبين بنى قينقاع .

حينئذ طلب النبي من اليهود أن يكفوا عن أذاهم ، وأن يفوا بعهدهم
الذى عاهدوه ، وهددهم إن لم يفعلوا أن ينزل بهم مثل ما أنزل بقريش في
بدر ، فاستخفوا بوعيده ، وقالوا : لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم

بالحرب فأصابت منهم فرصة ، إنا والله إن حاربناك لتعلمن أننا نحن
الناس .

فهل يعفو النبي عن هؤلاء ، وهم يزعمون أنهم أقدر منه ، ويهزأون
بوعيده ؟

أليس العفو إذاً عجزاً ، وإضعافاً لزهبة المسلمين ، وإملاء للمعتدين ،
وتشجيعاً لغيرهم من المشركين الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر ؟
لقد جنى بنو قينقاع على أنفسهم ، فاستحقوا العقاب على جنائياتهم ،
حتى إن حليفهم عبادة بن الصامت برىء منهم وأعلن براءته .
وكان العقاب العادل أن يخرج المسلمون فعاصروهم خمس عشرة ليلة ،
لم يبيحوا فيها لأحد من بنى قينقاع أن يخرج من داره ، ولم يسمحوا
لأحد أن يدخل عليهم بطعام ، فلم يبق لهم إلا الخضوع لحكم النبي .
فماذا كان حكمه ؟

لقد استشار كبار المسلمين ، فأجمعوا على قتلهم ، فقام إليه عبد الله
ابن أبي بن سلول - وكان حليفاً لبنى قينقاع وللمسلمين - فشفع فيهم
عند النبي ، وجاء عبادة بن الصامت يشفع كما شفع عبد الله ، فقضى
النبي بإجلالهم عن المدينة ، فارتحلوا إلى وادي القرى ، ثم إلى أذريعات
بحدود الشام .

٣ - بنو النضير .

كان بعض المسلمين قد قتلوا غلداً بعد غزوة أحد ، في يوم الرجيع (١)
وفي يوم بئر معونة (٢) ، ففرح بنو النضير الذين بالمدينة ، وودوا أن

(١) ماء لهذيل بالحجاز بناحية اسمها الرجيع .
(٢) اسم بئر بين أرض بنى عامر ومرة بنى سليم بنجد .

يكون حزن النبي والمسلمين على قتلاهم مقدمة لأحزان أخرى ، فأراد النبي أن يكشف عن نوايا بني النضير ، فمضى إليهم في عشرة من كبار الصحابة فيهم أبو بكر وعمر وعلى ، فتظاهروا بالغبطة بمقدمه ، وجعل بعضهم يتبسط في الحديث معه ، ولكنه رأى آخرين يتناجون ويتآمرون ، فغادر مكانه مسرعاً وترك أصحابه وهم يظنون أنه قام لبعض أمره ، ولم يعلموا أن النبي أوحى إليه بما كان اليهود يدبرون من غدر به ، وان عمرو ابن جحاش بن كعب دخل البيت الذي كان النبي مستنداً إلى جداره ، فصعد إلى سطح البيت ليلقي حجراً على رأس النبي .

ولما أخفقت مؤامرة اليهود حاروا في أمرهم ، وعجزوا عن تليفيق الأعذار ، وكان أصحاب النبي قد استبطأوه فنهضوا في طلبه : فذكر لهم ما كان اليهود يريدونه به .

حينئذ أرسل إليهم النبي محمد بن مسلمة يقول : إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما همتم به من الغدر بى ، ولقد أجلتكم عشرا ، فمن رضى بعد ذلك ضربت عنقه .

وبينما هم يتأهبون للرحيل أرسل إليهم عبد الله بن أبى يأمهم بالألا يخرجوا ، وأن يبقوا في حصونهم ، ويعدهم أن يحميهم بألفين من قومه ومن العرب .

فلما انقضى الأجل ولم يرحل بنو النضير ، سار إليهم المساحون بسلاحهم ، فقاتلوهم عشرين ليلة ، ولم يتقدم عبد الله بن أبى لنصرتهم . ولم يجدوا أملاً في قتالهم للمسلمين ، فسألوا النبي أن يؤمنهم على أموالهم

ودمائهم وذرايهم حتى يخرجوا من المدينة ، فوافقهم النبي ، فاتجه بعضهم إلى خيبر ، وشخص آخرون إلى أذرعات بالشام .

لقد كان هذا الإجلاء أهون عقاب لبني النضير ، لأنهم أعداء النبي والإسلام ، يُسِرُّون العداوة ويتربصون بالمسلمين الدوائر ، وهم يساكنون المسلمين بالمدينة . ويعرفون من أحوالهم ما لا يصح أن يعرفه عدو مخالط .

ولقد ابتهجوا بمقتل جماعة من المسلمين غدرا ، وتوقعوا أن تتكرر مأساة أحد .

ثم إنهم دبوا الوسيلة لاغتيال النبي وهو في دارهم .

وهم إلى هذا كله لم ينفذوا الجلاء بعد أن رضوا به واعتزموا عليه ، لأنهم اطمأنوا إلى نجدة عبد الله بن أبي . وأرسل زعيمهم حيي بن أخطب إلى النبي إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا ، فاصنع ما بدالك . وقال لبني النضير : ما علينا إلا أن نرّم حصوننا . وندخل إليها ما شئنا ، وننقل الحجارة إلى أزقتنا . وعندنا من الطعام ما يكفيننا سنة ، وماؤنا لا ينقطع ، ولن يستطيع محمد حصارنا سنة كاملة .

فهل لهؤلاء جزاء أهون من الطرد ؟

أليس بقاؤهم في المدينة بعد هذا كله ماثرا للفتنة ، ومهبطاً للشروع ، ومعاول للتقويض ؟

ألم يغدروا بعهدهم . وإنهم لتأهبون للغدر ما واثتهم الفرصة ؟

أليسوا جرثومة خبيثة يعتمد عليها مشركو العرب الذين لا يفتأون يعدون العدة لمحاربة المسلمين ؟

لقد أجالهم النبي ، فكان عَفْواً معهم ، سمحاً في مؤاخذتهم ، ولم يكن
ليستطيع أن يصطنع عفواً أعظم من هذا العفو .

٤ - بنو قُرَيْظَةَ .

جلا بنو النضير عن المدينة ، فلم يَشْتَفُوا من النبي ، لكن الحقد
لم ييأس ، وهم يعلمون أن قريشاً وعرب غَطَفَان وهَذِيل وغيرها ويهود
بنى قَيْنُقَاع وبنى النضير ، كلها تشتعل مَوْجِدَةً على النبي فما الذي
يمنع زعماء بنى النضير أن يؤلبوا هؤلاء جميعاً على النبي ؟

لقد خرج حَيُّ بن أَخْطَبَ وَسَلَّام بن أَبِي الْحَقِيقِ وَأَخُوهُ كِنَانَةُ
وغيرهم إلى مكة ، وأعلموا قريشاً أن بنى النضير مقيمون بين المدينة
وخبير حتى تأتئهم قريش فيسيروا جميعاً إلى قتال محمد وأصحابه ،
وأن بنى قريظة ما زالوا بالمدينة وهم أشد الناس بَغْضَةً لمحمد ، فإذا ما
سرتهم إليهم كانوا عليه معكم .

وَأَبَى الخلق الوضيع إلا أن يعلن عن نفسه ، فإن قريشاً قالت لهؤلاء
اليهود : إنكم أهل الكتاب الأول ، وأصحاب العلم بما نختلف فيه
نحن ومحمد ، فخبرونا أديننا خير أم دينه ؟

فقالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ،
وهذا هو معنى قوله : تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ
يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (١) »

(١) سورة النساء ٥١-٥٢ . الجبّ والطاغوت : سمنان لقريش أو الجبّ : الاصنام وكل
ما عبد من دون الله . والطاغوت - الشيطان

ثم خرج حُيَّيٌّ وصحبه إلى غطفان وغيرها ، وحرصوهم على محاربة محمد والنَّار منه ، وذكروا لهم أن قريشاً تُعدُّ للحرب عدتها .

وكانت غزوة الخندق ، وكان يأس الأحزاب من اجتيازه ، وترددهم في البقاء والجو عاصف بارد .

ولكن حُيَّيٌّ بن أخطب أراد أن يباعد اليأس ، فأخبر الأحزاب أنه سيجعل بني قريظة على نقض موادعتهم لمحمد ، وأنهم سينضمون إلى الأحزاب المهاجمة ، وسرعان ما بدأ ينفذ خطته ، فذهب إلى كعب بن أسد زعيم بني قريظة ، وما زال به يثير حفيظته على محمد ، ويطمئنه إلى قوة الأحزاب وما معها من سلاح ، فقبل كعب ، ونقض عهده .

فلما علم النبي أرسل جماعة من المسلمين ليعلموا حقيقة الخبر ، فوجدوا بني قريظة لم ينقضوا عهدهم فحسب ، بل جعلوا يسبون النبي ، ويجحدون أنه كان بينهم وبينه عهد .

وما لبثوا أن قطعوا الطعام على المسلمين ، فنشطت الأحزاب بعد ضعف ، وأمَّلت بعد يأس ، وجرؤ بعض بني قريظة على النزول من حصونهم إلى منازل المدينة القريبة منهم .

وحينئذ فزع المسلمون أشد الفزع ، وخشوا أن يفتح بنو قريظة طريقهم للأحزاب المغيرة فيدخلوا المدينة ، ويفتكوا بالمسلمين ، وقد صور القرآن الكريم هذا الفزع في قوله تعالى : «إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ، وَإِذْ

قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ، فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا^(١) .

ثم اختلفت الأحزاب ، ونزل المطر مدرارا ، وقصف الرعد ، ولمع البرق ، وثار العاصفة ، فاقتلعت الخيام وكفأت القدور ، وأدخلت الرُّعْب إلى القُلُوب ، فسارعوا إلى الفِرَار ، وَنَجَّى اللَّهُ الْمَدِينَةَ مِنْ خَطَرٍ دَاهِمٍ لَمْ تَشْهَدْ مِثْلَهُ .

فماذا يفعل النبي ببني قُرَيْظَةَ ؟

لقد غدروا به في أشد محنة حاقت بالمدينة ، ولقد ناصروا الأحزاب المغيرة عليه في الوقت الذي كان يقتضيهـم الوفاء .

ولم يكن يريد منهم موازرتة في الحرب ، بل كان يريد منهم الحِفاظًا على حَيَاتِهِمْ ، لِيَأْمَنُ غَدْرَهُمْ ، وهم الذين يساكنونه في المدينة المعرضة للغزو المدمر .

وقد كدسوا عن حقدهم الدفين إذ عرضوا للنبي بالسب على ملا من أصحابه .

أما العفو عنهم فإنه لا يخطر على بال آلين الناس عريكة ، وأكثرهم رحمة ، وأعظمهم شفقة فقد عفا النبي من قبل عن بني قينقاع وبني النضير ، فكانوا دعاة الانقضاض على المدينة ومثيري العرب عليه .

ولن يكون العفو عن بني قريظة إلا تجميعاً لليهود ، وتقوية لهم ،

(١) سورة الاحزاب ١٠-١٣ .

وإتاحة لفرص شتى يحرضون فيها على النبي ، ويؤلبون قريشاً وغيره بالحربه وللاستيلاء على المدينة .

فليكن العقاب عادلاً وجزاءً وفاقاً ، حاصرهم النبي خمساً وعشرين ليلة ، ثم اختار اليهود سعد بن مُعَاذ ليقضى بينهم وبين محمد ، واستوثق سعد من النبي ومن بني قريظة أن يرضوا بقضائه .

فماذا كان قضاء سعد ؟

حكم بأن تُقتل المقاتلة ، وتُقسَّم الأموال ، وتُسبى النساء والذرية . وهذا الحكم يتفق وقول التوراة التي يدينون بها «حين تقرب من مدينة لتحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الذي فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالملك بل حاربتك فحاصرها .

وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف : وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فغنيمة تغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك » وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك حدا التي ليست من مدن هذه الأمم التي هنا . وأما مدن هذه الشعوب التي يعطيك الرب إياها فلا تستبق منها نسمة ما بل أهلكتها إهلاكاً (١) .

وهم يعتقدون أن موسى عليه السلام أرسل اثني عشر ألف رجل لمحاربة أهل مدين ، فحاربوهم وانتصروا عليهم ، وقتلوا كل ذكر منهم وخمسة ملوك ، وسبوا نساءهم وأولادهم ، ولما رجعوا غضب عليهم موسى

(١) سفر التثنية اصحاح ٢٠-١٠-١٥

كما زعموا ، لأنهم استبقوا النساء والأطفال ، ثم أمر بقتل كل طفل ذكر وكل امرأة ثيب ، وأبقى الأبكار ، وكان عددهن اثنتين وثلاثين ألفاً (١) .
 ويزعمون أن داود عليه السلام كان يقاتل أعداءه ، ولا يبقى ذكراً ولا أنثى ولا طفلاً (٢) ، وكان يمثل أحياناً بمن يقتلهم أشنع تمثيل (٣) .
 وإذا كان القانون الدولي يبيح قتل الأسير الذي عاود القتال بعد أن أقسم بشرفه ألا يعاوده ، فإن قتل بني قريظة أولى بالإباحة ، لأن جرمهم أشنع ، وشرهم أضخم ، ولأنه لا أمل في صلاحهم واتقاء غدرهم .

(خامسا) مع النصارى

(١)

كانت النصرانية أكثر من اليهودية انتشاراً في جزيرة العرب ، إذ دان بها كثير من القبائل العربية في أطراف الجزيرة وفي قلبها .

ولم يكن غريباً أن يبذل النصارى جهودهم في تعويق الإسلام والقضاء عليه كما فعل اليهود ، لأنه يبطل دينهم ، ويدعو إلى اعتناق دين جديد مبرماً مما أصاب المسيحية الأذى من بلبلة واضطراب وفساد ، وينشئ مجتمعاً جديداً يدين بالوحدانية الخالصة وبالحرية والمساواة ، ويسن نظاماً سامية تقضى على النظم الفاسدة الشائعة .

ولقد بلغ من ضلال النصارى وزيفهم أن زعموا أن المسيح بن الله أرسله ليفتدى به البشر من كفارة عن خطيئة آدم وحواء . لأنهما أكلا من

(١) سفر العدد ٣١
 (٢) صمويل الأول ٢٧ - ٩
 (٣) صمويل الثاني ٣١/١٢

الشجرة المحرمة فعصيا الله ، قال تعالى : «وقالت اليهودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ ، وقالت النصارى المسيحُ ابْنُ اللَّهِ ، ذلكَ قولُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ (١) » .

ولهم في ذلك ضروب من الأباطيل ، فالمسيح عليه السلام واحد من ثلاثة أقانيم : الأب ، والابن ، والروح القدس .

وهو ذو طبيعة إلهية واحدة في مذهب فريق ، وذو طبيعتين إلهية وبشرية في مذهب فريق آخر .

واليعاقبة يزعمون أنه هو الله نفسه ، نزل إلى الأرض وصلب ليفدى الناس ، قال تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله هو المسيحُ ابنُ مريم (٢) » ؟ .

وهم في مزاعمهم هذه يشبهون البراهمة في ادعائهم أن برهما ثالث ثلاثة ، وأنه الموجود الخالق ، وأن كريشنا ابنه من العذراء ديفاكى التى اختارها والدته لابنه بسبب طهرها وعفتها ، وأن كريشنا هو المخلص والقادى . والسيدة مريم عند بعض المسيحيين إلهة معبودة تقرب لها الأقراص التى يسمونها كليرس ، ويسمى أصحابها كليريين .

على أنهم حرفوا الإنجيل وغيروا فيه ، وحذفوا منه ما يبشر بنبوة محمد ، حفاظاً على منافعهم العاجلة ، ومراكزهم الدينية ، قال تعالى : « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ، ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا : هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٣) » ،

(١) سورة التوبة ٣٠

(٢) سورة المائدة ٧٢

(٣) سورة الصف ٦

(٢)

وإذا كان اليهود قد كادوا للإسلام فقد كاد النصارى له ، لأن البواعث والغايات متشابهة عند الفريقين .

وقد صادق الله العظيم في قوله : « وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى . وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَكٍ وَلَا تَصِيرَ ^(١) » ؟ .

ولم يكن هناك أمل في هدوء مقاومتهم أو استجابتهم للحق « وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِيلَتُكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتُهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ^(٢) » .

وهم واليهود يتخذون الحرب وسيلة لإطفاء نور الإسلام ما وجدوا إلى الحرب سبيلا « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا ^(٣) » .

(٣)

كان الغساسنة ملوك الشام يمثلون النصارى في الشرق منذ عين الإمبراطور جستنيان الحارث بن جبلة (حوالي ٥٢٩ - ٥٦٩م) أميرا على جميع القبائل العربية في سورية ، ومنحه لقب فيلارك - أمير - ثم منحه لقب بطريق ، وكان لقب الأشراف ، وأرفع لقب في الدولة بعد الإمبراطور .

-
- (١) سورة البقرة ١٢٠
(٢) سورة البقرة ١٤٥
(٣) سورة البقرة ٢١٧

وكان الحارث نصرانياً يعقوبياً حامياً للكنيسة الشرقية .

فلما توفي سنة ٥٦٩ م خلفه ابنه المنذر ، وأعان الروم في مواقع كثيرة .
وشخص سنة ٥٨٠ م إلى القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية
فاحتنى به القيصر طيباروس ، وألبسه التاج .

فمن الطبيعي أن يناوئ الغساسنة الإسلام والدعوة إلى الإسلام ،
لا لأنه يغير عقيدتهم فحسب ، بل لأنه يقضى على سلطانهم السياسى
ونفوذهم الدينى . ومن الطبيعى أيضاً أن تحارب الدولة البيزنطية
الإسلام ، لأنه يقوض قوتها الاستبدادية ، ويطرح بما كسبه رجال الدين
والسياسة من سلطان ونفوذ ومال .

وهل كان من المعقول أن تطيق الكنيسة الملكانية (١) - وهى تحارب
كل رأى مسيحى يخالفها - ديناً ينكر عقيدة التثليث والفداء ، ويذيع فى
الناس أن الله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ولا
يعترف بما لرجال الدين من سلطان على النفوس ، ووساطة بين العباد
وخالقهم ؟

(٤)

لهذا لم يلبث النصارى أن كشفوا عن شرهم وعزمهم على محاربة
الإسلام :

١ - فى سنة ٦ هـ (٦٢٧-٦٢٨ م) صلب البيزنطيون عاملهم على عمان
وهو قروة بن عمرو الجذامى ، لأنه اعتنق الإسلام ، وأرسل إلى النبي فرساً

(١) هذه هى الكنيسة الارثوذكسية التى مقرها القسطنطينية ، وتعرف باسم الكنيسة
الشرقية ورئيسها الاعلى الامبراطور ، تقابلها الكنيسة الكاثوليكية التى تعرف باسم الكنيسة
الغربية ومقرها روما ورئيسها البابا

وبغلا وحمارا وعباءة وأقمصة ، وحاول الروم أن يجبروه على الارتداد عن إسلامه ، فأبى ، فسجنوه ثم صلبوه (١) .

٢- وفي سنة ٨ هـ (٦٢٩م) بعث النبي كتيبة من خمسة عشر رجلا إلى شرقي الأردن ليدعوا الناس إلى الإسلام ، فخرج عليهم جمع كبير من مكان يقال له (طلة) وقتلوهم إلا واحدا لاذ بالفرار (٢) .

٣- وفي السنة نفسها أرسل النبي كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعو إلى الإسلام ، كما دعا غيره من الملوك والأمراء ، فرد عليه رد المغرور الذي يتوعد بالعدوان (٣) .

ولما بعث النبي الحارث بن عمرو الأزدي إلى هرقل يدعو إلى الإسلام تصدى له شَرَحْبِيل بن عمرو الغساني في مُؤْتة وقتله ، فكان هذا سبباً في غزوة مؤتة .

٤- وفي السنة التاسعة للهجرة أمر هرقل بعد انتصاره على الفرس بجمع جيش لغزو بلاد العرب وقاتل رسول الله ، للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره. وبلغ النبي أن هرقل ومن يتبعه من نصارى العرب قد عزموا على قصده (٤) .

(٥)

وإذاً فلا مفر من حملة لتأديب هؤلاء المعتدين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقتلون دعاة رسول الله ، ويتأهبون للهجوم المفاجئ .

-
- (١) الكامل لابن الاثير ١١٤/٢ وسيرة ابن هشام ٦١/٤
 (٢) تاريخ شرقي الاردن وقبائلها ٨٥ الكولونيل فردريك بيك
 (٣) الكامل لابن الاثير ٨١/٢
 (٤) الكامل ١٠٦/٢

ولو لم يفعل رسول الله ذلك لأغلق الجزء الشمالى من الجزيرة في وجه الدعوة التى تشق طريقها بسلام .

وكيف يرضى بهذا الذى يفعله الغساسنة والروم ، وهو يعلم أن واجبه يحتم عليه حماية دعوته من هؤلاء الطغاة ؟

ثم إن الحكمة تقتضيه أن يختبر قوة أعدائه ، ويتعرف السبب فى تجمعهم .

لهذا سار النبي بجيشه إلى تبوك ، ولكن لم يحدث بينه وبين خصومه صدام ، لأن الروم اختفوا وراء حدود الشام ، ولم يفكر النبي فى اختراقها ، واكتفى بما عقد من صلح بينه وبين بعض العرب مثل يوحنا بن ربيعة ، وعاد إلى المدينة (١) .

لكن الأفاعى خرجت من أبحارها بعد عودة النبي ، وبدأ نصارى العرب والروم يعتدون على المسلمين ، فصلب هرقل أمير أيلة يوحنا بن ربيعة ، لأنه عقد مع النبي صلحاً ، كما صلب من قبل فروة بن عمرو الجذامى ، لأنه أسلم وأصر على الإسلام .

فبعث النبي بقيادة زيد بن حارثة إلى الشام فى السنة الثامنة (٦٢٩م) وتصدى الروم والعرب للقاء هذا الجيش الصغير الذى لم يتجاوز ثلاثة آلاف رجل ، وكان جيش الروم من مائة ألف أو مائتين ، يقوده هرقل نفسه أو أخوه ، والتحم الجيشان التحاماً لم يكتب فيه نصر حاسم لأيهما ، فآثر المسلمون العودة إلى المدينة .

ثم أراد النبي أن يتدارك ما عساه أن يحدث من هذا الإنسحاب ،

(١) التامل ١٠٦/٢

وأراد أن يسترد هبة المسلمين في الشمال ، فأمر بتجهيز جيش أسامة
ابن زيد لمحاربة الروم ، لكن الرسول لحق بالرفيق الأعلى قبل أن يتحرك
الجيش من المدينة ، فأنفذه أبو بكر .

ومن هذا يتبين أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان حريصاً في صلته
بالنصارى كما كان حريصاً في علاقته باليهود على إثارة السلام ،
وإن لم يشهر سيفه إلا للدفاع ورد العدوان .

الفصل الرابع عشر

الزهد

حقيقته

الزهد هو العزوف عن المباح مع القدرة عليه ، تهديباً للنفس ، وإيثارا
لنفع الآخرين .

فإن كان العزوف عن معجزة وضيق فإنه لا يسمى زهدا ، لأنه اضطرار
لا مندوحة عنه .

وإن كان العزوف لإذلال النفس وتعذيبها فحسب بدون قصد إلى نفع
يتحقق للأمة أو لطائفة منها ، فإنه ليس من الزهد في شيء ، بل هو
رهبانية حرمها الإسلام ، قال تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ
كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ
حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١) »
والزهد بهذا المعنى السامى فضيلة موصولة بفضائل أخرى مثل القناعة
والعفة والصبر والتواضع والإيثار .

وهو مظهر للاقتدار على حرمان النفس مما تجدد ، وتقوية للزعيمة وتغليب

(١) سورة الاعراف ٣١-٣٢

لها على الرغبات والحاجات ، لأن الاستمتاع الدائم يعود النفس طلب المزيد ، فإذا حُرِّمَتْ شيئاً مما تريده ضاقت ألماً وحسرة .

وما من شك في أن الرجل الفاضل الحكيم يتجافى عن اللذات التي تستهوى غيره ، ويتعالى على الاستمتاع بما لا ينبغي الاستمتاع به ، بل إنه يبغض الاستمتاع باللذات ، ولا يشعر بالألم من الحرمان ، لأنه قليل المآرب ، يرضى من حياته بما لا ضرر فيه ، وبما يلائم ضبطه لرغباته ، وإيثاره غيره على نفسه .

مظاهره

كان زهد رسول الله المثل الأعلى في الزهد ، لأنه كان زهد المختار ، القادر ، المؤمن بأن الاستمتاع المباح حلال ، المؤثر على نفسه فقراء الأمة ومصالح الإسلام .

وهو بزهد ربّي كثيراً من الرجال فتخلّفوا بمثل خلقه ، فانصرفوا عن الخسوع للذات ومآرب النفوس ، وآثروا غيرهم على أنفسهم ، كآبى بكر وعمر وعلى وغيرهم من كبار الصحابة وولاة الأقاليم ، فصار زهدهم تربية وتنمية ، أما التربية فللنفوس ، وأما التنمية فلإسعاد الناس ولتقوية الأمة .

قالت حنّصة لأبيها عمر بن الخطاب حينما فُتِحَتْ عليه الفتوح : البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومُرْ بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر . فقال عمر : يا حفصة ألسنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ فقالت : بلى . قال : قد ناشدتك الله هل تعلمين

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَبِثَ فِي النَّبِوَةِ كَذَا وَكَذَا سَنَةً لَمْ يَشْبِعْهُ هُوَ وَلَا أَهْلُ بَيْتِهِ غُذْوَةً إِلَّا جَاعُوا عَشِيَّةً ، وَلَا شَبِعُوا عَشِيَّةً إِلَّا جَاعُوا غُذْوَةً ؟

وَنَاشَدْتُكَ اللَّهُ هَلْ تَعْلَمِينَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَبِثَ فِي النَّبِوَةِ كَذَا وَكَذَا سَنَةً لَمْ يَشْبِعْهُ مِنَ التَّمْرِ هُوَ وَأَهْلُهُ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ خَيْبَرَ ؟

وَنَاشَدْتُكَ اللَّهُ هَلْ تَعْلَمِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَرَّبْتُمْ إِلَيْهِ يَوْمًا طَعَامًا عَلَى مَائِدَةٍ فِيهَا ارْتِفَاعٌ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى تَغْيِرَ لَوْنَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْمَائِدَةِ فَرَفَعَتْ وَوَضَعَ الطَّعَامَ عَلَى دُونَ ذَلِكَ أَوْ وَضَعَ عَلَى الْأَرْضِ ؟

وَنَاشَدْتُكَ اللَّهُ هَلْ تَعْلَمِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَنَامُ عَلَى عِبَادَةِ مَثْنِيَّةٍ فَثَنَيْتُ لَهُ لَيْلَةً أَرْبَعَ طَاقَاتٍ فَنَامَ عَلَيْهَا ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ قَالَ : مَنْعَتُمُونِي قِيَامَ اللَّيْلِ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ ، ائْتَوْهَا بِاِثْنَتَيْنِ كَمَا كُنْتُمْ تَتَشَوَّهْنَ ؟
فَمَا زَالَ يَقُولُ حَتَّى أَبْكَاهَا وَبَكَى عَمْرٌ وَانْتَحَبَ (١) .

مال الرسول :

وَيَجِدُرُ بِنَا قَبِيلَ أَنْ نَعْرُضَ مَظَاهِرَ مِنْ زَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ نَحْيِبَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ :

هَلْ كَانَ الرَّسُولُ ذَا ثَرَاءٍ وَمَالٍ حَتَّى يَثْبُتَ أَنْ زَهَدَهُ عَنْ وَجْدٍ وَاقْتِدَارٍ ؟
نَعَمْ كَانَ لِلرَّسُولِ مَالٌ ، وَكَانَ مَالُهُ كَثِيرًا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ

١ - كَانَ لَهُ خَمْسُ الْغَنَائِمِ الَّتِي يَصِيبُهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ مُحَارِبِيهِمْ .
وَقَدْ كَانَتْ الْحُرُوبُ كَثِيرَةً وَكَانَتْ الْغَنَائِمُ مُوفُورَةً مِنْذُ غَزْوَةِ بَدْرٍ حَتَّى

(١) الاحياء ١٩٢/٤ .

ثم فتح الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب . فتوافدت الغنائم والجزية والصدقات .

قال تعالى : «وَاَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ^(١)» .

فللمجاهدين أربعة أخماس الغنيمة ، وللرسول خمسها يختص به نفسه وأقاربه واليتامى والمساكين وأبناء السبيل .

٢ - وكان له نصيب من القىء . وهو الذى ناله المسلمون من أموال المشركين بغير حرب كالجزية وما تركوه فى حروبهم خوفاً من المسلمين وما صالحوا المسلمين عليه ، قال تعالى : «وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ . وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(٢)» .

وكان رسول الله ينفق من هذا القىء على أهله نفقة سنتهم . ثم يأخذ ما بقى فيجعله مَجْعَلٌ مال الله فى السلاح والخيول ومصالح المسلمين . وهذا مذهب الجمهور .

وقال الإمام الشافعى إن القىء يقسم خمسة أخماس وفقاً للآية ، ثم

(١) سورة الانفال ٤١ .

٢ سورة الاحزاب ٧٠ .

يقسم خمسة على خمسة أسهم ، للرسول منها سهم ينفق منه على مصالحه ، وما فضل يصرفه في السلاح وسائر مصالح المسلمين .

وأما بعد وفاته فمصرف هذا السهم للمصالح العامة كسد الثغور وعمارة الحصون والقناطر وأرزاق القضاة .

والسهم الثاني لذوي القربى وبنى هاشم وبنى المطلب .

والثالث لليتامى الفقراء ، والرابع للمساكين والخامس للأبناء السبيل .

وأما الأربعة الأخماس فهي للمرتزقة وهم المرصدون للجهاد بتعيين الامام (١) .

ومن هذا النصف مزارع فذك وبساتينها ونخيلها وعينها الفوارة .

٣ - يضاف إلى الغنائم والجزية والصدقات ما أهدى إليه من بعض الملوك والأمراء .

بعد هذا نذكر صوراً من زهد رسول الله .

(١) في المال

١ - لم يستأثر بشيء من المال الكثير الذي تدفق من الغنائم والنفي والجزية والصدقات والهدايا ، بل اقتصر على الخمس ، ثم لم يمسك درهماً من هذا الخمس . بل أنفق في وجوهه ، وقوى به المسلمين ، وأسعد به غيره ، وقال : ما يسرني أن لي أحداً ذهباً يبيت عندي منه دينار إلا ديناراً أرصده لديني .

(١) فتح الميدي ٢/٣٢٤

٢ - أذنه ذنانير فقسمها ، وبقيت منها ستة ، فدفعتها لبعض نسائه لكنه لم يتم حتى قام وقسمها ، وقال : الآن استرحت .
٣ - اقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو إليه الضرورة . وزهد فيما سواه .

٤ - توفي ودرعه مرهونة في نفقة عياله (١) .

٥ - روى عن أبي رافع أنه قال : ورد على رسول الله ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه . فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال : قل له : يقول محمد أسلفني أو بعني دقيقتاً إلى هلال رجب ، قال : فأتيت ، فقال إلا يرهن ، فأخبرت رسول الله بذلك فقال : أما والله إني لأمين في أهل السماء ، أمين في أهل الأرض ، وأو باعني أو أسلفني لأديتُ إليه . اذهب بدرعي هذا إليه فارهنه (٢) .

٦ - أتى بمال من انبحرين . وكان أكثر مال أتى به ، فخرج إلى الصلاة ، ولم يلتفت إليه . فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فقلما رأى أحداً إلا أعطاه (٣) .

٧ - قال عمرو بن الحارث أخو جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث أم المؤمنين : ما ترك رسول الله عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً . إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة (٤) .

ولما قبض رسول الله جاءت السيدة فاطمة والعباس إلى أبي بكر

(١) الشفا ١/٧٣

(٢) الاحياء ٤/١٦٩

(٣) الاحياء ٤/١٦٦

(٤) فتح المبدى ٢/٢٨٩

يطلبان ميراثهما من قرية فذلك التي أفاءها الله على رسوله ، وكان له سهم من ثمراتها ، فقال لهما : لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ .

وروى مثل هذا عن عمر بن الخطاب في مجلس على وعباس وعثمان وغيرهم (١) .

(٢) في الطعام

١ - لم يجمع في بطنه طعامين ، فإن أكل لحماً لم يزد عليه ،
وإن أكل تمراً لم يزد عليه ، وإن أكل خبزاً كفاه ، وإن وجد ابناً دون
خبز أغناه (٢) .

٢ - قالت السيدة عائشة : إن رسول الله لم يمتلئ قط شبعاً ، وربما
بكيت رحمة مما أرى به من الجوع ، فأمسح بطنه بيدي ، وأقول : نفسي
لك الغذاء ، لو تبالغت من الدنيا بقدر ما يقولك ، ويمنعك من الجوع ،
فيقول : يا عائشة إخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو
أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم ، فأكرم مآبهم ،
وأجزل ثوابهم ، فأجلني أستحي إن ترَفَهْتُ في معيشتي أن يُقَصَّرَ بي غدا
دونهم ، فالصبر أياماً يسيرة أحب إلي من أن ينقص حظي غدا في الآخرة ،
وما من شيء أحب إلي من المحق بأصحابي وإخواني (٣) .

(١) صحيح مسلم ٧٦/١ وفتح المبدى ٣٣٤/٢ ولا يعترض على هذا بقوله تعالى على لسان
زكريا : (يرئى ويرث من آل يعقوب) وبقوله تعالى (وورث سليمان داود) لأن المراد هنا
ميراث العلم والنبوة والحكمة .

(٢) السيرة الحلبية ٣٧٩/٣ والاحياء ٣١٧/٢

(٣) الاحياء ٧١/٣

٣ - وقالت : كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله مصباح ولا نار . قيل لها : فم كنتم تعيشون ؟ قالت : بالأسودتين : التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله جيران من الأنصار ، كانت لهم منائح : وكانوا يمنحون رسول الله من ألبانها فيسقينها (١) .

٤ - وقالت : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاثة ليال تباعاً . حتى قبض (٢) .

٥ - قال أنس : ما علمت النبي أكل على سُكَّرَجَةٍ قط . ، ولا خبز له مُرَقِّي قط . ، ولا أكل على خِوان قط . (٣) .

٦ - كان يأكل ما حضر ، ولا يرد ما وجد ، ولا يأكل متكئاً (٤) .

٧ - قالت السيدة عائشة : لم يمتلئ جوف النبي شبعاً قط . وكان لا يسأل أهله طعاماً ولا يتشهاه ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه وما سقوه شرب (٥) .

٨ - لهذا قال صلى الله عليه وسلم : أجوع يوماً . وأشبع يوماً ، فإذا جعت صبرت وتضرعت ، وإذا شبعت شكرت (٦) .

ادخار القوت :

هل ادخر رسول الله قوت عياله ؟ وهل هذا الادخار يناقض الزهد ؟

(١) فتح المبدى ٢٥٢/٢ والاحياء ١٩٩/٤ منائح : نجاج ذوات لبن .

(٢) فتح المبدى ٢٦٢/٢ .

(٣) فتح المبدى ٢٦١/٢ السكجة : قصعة كبيرة كانت العجم تستعملها حول الموالد في الكواميخ وما أشبهها من أصناف التثهي والهضم .

(٤) الاحياء ٢١٧/٢ .

(٥) نور اليقين ٢٨٣ .

(٦) الاحياء ٧٣/٢ .

روى أنه نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئاً لغد^(١) .

وروى أنه كان يدخر لعياله قوت سنة^(٢) وكان - قال عمر بن الخطاب - يبيع نخل بنى النضير ، ويحبس لأهله قوت سنتهم ، إذ كان نخلهم فيئلاً له .

وليس بين الخبرين تعارض ، لأن النبي نهى عن ادخار القوت سنة حينما لم تكن الموارد كافية ، فلما كثرت اتسعت لهذا الادخار .

ولا تنافي بين ادخار القوت للعيال وبين الزهد ، لأن النبي كان يدخر - فإذا رأى المحتاجين منهم ما ادخر ، وهذه أعلى درجات الإيثار .

ويؤيد هذا حديث السيدة عائشة : « توفي رسول الله حين شبعنا من الأسودينِ التمر والماء » وقد كان هذا الشبع منذ فتح خيبر ، لأنها قالت لما فتحنا خيبر قلنا الآن نشبع من التمر ، وفي حديث ابن عمر : ما شبعنا حتى فتحنا خيبر .

وقد فتحت خيبر قبل وفاة النبي بثلاث سنين^(٣) .

هل عصب الحجر على بطنه ؟

قيل إن رسول الله كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع^(٤) فهل بلغ الزهد به إلى هذا الحد ؟ ولماذا ؟

لقد أنكر بعض العلماء هذا ، ومنهم أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي ، وقالوا إن الأحاديث التي رويت في هذا باطلة ، واستدلوا

(١) الاحياء ٢٢٩/٤

(٢) الاحياء ٢٠١/١ • ٢٢٩/٤

(٣) فتح المبدى ٢٥٨/٢ • ٢٦٠

(٤) الاحياء ٢١٧/٢ •

بحديث الوصال وهو : « لست كأحدكم ، إني أُطعمُ وأُسقى » وقال ابن حبان :
 إِنَّ الرُّسُولَ لَمْ يَكُنْ يَشُدُّ عَلَى بطنه الحجر ، بل كان يشدُّ عليه الحُجَزَ (١) ،
 لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ يَطْعَمُ رَسُولَهُ وَيَسْقِيهِ إِذَا وَاصَلَ الصُّومَ ، فكيف يحتاج
 إلى شدِّ الحجر على بطنه ؟ وماذا يغني الحجر من الجوع ؟

وقالوا لقد ثبت أن رسول الله كان يدخر لأهله قوت سنة ، وأنه
 قسم بين أربعة من أصحابه ألف بغير مما أفاء الله عليه ، وساق في عُمُرته
 مائة بَدَنَةٍ (٢) فنحراها وأطعم المساكين ، وأمر لأعرابي بقطيع من
 الغنم ، وأعطى جماعة كثيرة من خيرات خيبر ، وكانت فِدْكَ وَقُرَيْظَةَ
 والتَّخْيِيرَ خالصة له ، ثم إن بعض الصحابة كانوا ذوى مال مثل أبي بكر
 وعمر وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف
 وسعد بن عُبادة ، وكانوا يبذلون أموالهم وأنفسهم بين يديه ، وقد أمر
 بالصدقة فجاءه أبو بكر بجميع ماله ، وقال : أَبْقَيْتَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لِعَالِي ،
 وجاءه عمر بنصف ماله .

ولما حث على تجهيز جيش العُسرة في غزوة تبوك جهزهم عثمان بألف
 بغير ، وجاء بعشرة آلاف درهم فوضعها بين يدي رسول الله .

لكن بعض العلماء ردوا على هذا وذاك

وجاء في ردِّهم أن من أقام بالحجاز عرف عادة أهله إذا أصابتهم
 المنجاعة ، فإنه إذا خوى البطن لم يمكن انتصاب القامة ، فيعمدون إلى
 صفائح رقاق في طول الكف ، ويربطونها على البطن ، فتعتدل القامة ببعض
 الاعتدال .

(١) الحجز : جمع حجة وهي التي يشدُّ بها الوسط . وهو طرة الازار .
 (٢) البدنة : الناقة أو البقرة التي تدبح في مكة قربانا .

وقد كان رسول الله يفعل مثلهم ، ليعلموا أنه لا يملك ما يستأثر به عليهم ، وإن لم يحصل له ألم الجوع .
على أنه فعل ذلك إثارة للثواب ، لا لفقدان ما يدفع به الجوع عن نفسه .

وأما الأحاديث التي رويت في شد الحجر على البطن فإنها صحيحة لاجتماع شروط الصحة فيها .

ولابن جرير الطبري رد آخر هو أن النبي والصحابة كانوا يفعلون ذلك في حالة دون حالة ، لا لعوز وضيق ، بل تارة للإيثار ، لأن رسول الله كان يدخر قوت عام ، ثم يجد المحاويج فيدفع إليهم ما ادخره ، ويترك أهله ، وتارة لكرامة الشيع ، وكرامة لكثرة الأكل .

وقال ابن حجر إن كثيرا من المسلمين كانوا قبل الهجرة في ضيق ، فلما هاجروا إلى المدينة كان أكثرهم في عوز ، فواساهم الأنصار بأموالهم ومنازلهم ، فلما فتحت لهم النضير وما بعدها أثروا ، وردوا إلى الأنصار أموالهم ومنازلهم (١) .

(٣) في الملابس والفرش والآنية

١ - لم يكن رسول الله إلا ثوب واحد من قطن ، قصير الكمين قصير الطول ، وكان له جبة ضيقة الكمين ، ورداء طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر ، وبردة يمانية طولها ستة أذرع في عرض ثلاثة وشبر ، كان يلبسهما في يوم الجمعة والعيدين ، ثم تطويين ، وكان له رداء أخضر طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر تدوتمه الخفاف (٢) .

(١) شرح الزرقاني ٤/٢٢٠ .

(٢) السيرة الحلبية ٣/٢٧٩ .

ولما قبض أُخرجت عائشة كساء مُلبداً وإزاراً غليظاً فقالت : قُبِضَ رسول الله في هذين (١) .

٢ - وكان يلبس ما تيسر من اللباس . فلبس الصوف تارة : والقطن تارة . والكتان تارة . ولبس البرود اليمنية . ولبس الجبة : والقُبَاء والقميص والسراويل والإزار والرداء والخف والنعل : وأرخى الذوَّابة من خلفه تارة . وتركها تارة (٢) .

٣ - أَهْدَى إِلَيْهِ أَكْبَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ صَاحِبُ دُومَةِ الْجَنْدَلِ فُرُوجَ حَرِيرٍ فَلَبِسه - قَبْلَ تَحْرِيمِ الْحَرِيرِ - فَصَلَّى فِيهِ . ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَزَعَهُ نَزْعاً شَدِيداً كَالْكَارِهِ لَهُ . وَقَالَ : لَا يَنْبَغِي هَذَا لِلْمُتَّقِينَ (٣) .

٤ - صَلَّى فِي خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلَامٌ (٤) . فَنَظَرَ إِلَى أَعْلَامِهَا نَظَرَةً ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ : اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ (٥) وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةٍ (٦) أَبِي جَهْمٍ ، فَإِنِهَا أَلْهَتْنِي آنَفًا عَنْ صَلَاتِي (٧) .

٥ - كَانَ أَحَبَّ الثِّيَابِ إِلَيْهِ الْحَبِيرَةُ (٨) .

٦ - لَمْ يَلْبَسِ الْحَرِيرَ قَطْ . رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ : مِنْ لِبَسِ الْحَرِيرِ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ .

٧ - عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ : نَهَانَا النَّبِيُّ أَنْ نَشْرَبَ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . وَأَنْ نَأْكُلَ فِيهَا . وَعَنْ لِبَسِ الْحَرِيرِ وَالْجُلُوسِ عَلَيْهِ .

(١) فتح المبدى ٢/٢٢٥ ، والاحياء ٤/٢٠٠ . الملبد : المرنج .
 (٢) زاد المعاد ١/٥٠ .
 (٣) فتح المبدى ١/١٩١ .
 (٤) الخميصة : كساء أسود مربع له أعلام .
 (٥) أبو جهم : عامر بن حذيفة القرشي كان قد أهدى الخميصة للنبى .
 (٦) أنبجانية : كساء غليظ لاعلم له نسبة الى أنبجان ، وقد طلب منه لبعلمه أنه لم يرد عليه هديته استخفافاً به .
 (٧) فتح المبدى ١/١٩٠ .
 (٨) الحبرة : ضرب من نسيج البسج يصنع من القطر .

وحكى القاضي عياض أن الإجماع انعقد بعد ابن الزبير وموافقيه
على تحريم الحرير على الرجال (١)

وفي هذا ما فيه من البعد عن الخيلاء والرفاهية والسرف والفخر .

٨ - احتذى مرة نعلين جديدين ، فأعجبه حسنها . فخرَّ ساجدا ،
وقال : أعجبنى حسنها . فتواضعت لربى خشية أن يمتتنى . ثم خرج
بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه (٢) .

٩ - أخرج أنس بن مالك إلى الصحابة نعلين جرداوين لهما قبَّالان (٣) ،
فحدث أنهما نعلا النبي صلى الله عليه وسلم (٤)

١٠ - كان ينام على الفراش تارة ، وعلى البُطُّع (٥) تارة ، وعلى الحَصِير
تارة ، وعلى الأرض تارة . وعلى السرير تارة .

وكان فراشه آدمًا (٦) حشوه ليف ، وكذلك وسادته (٧)

١١ - ولكن إذا قدم عليه وفد من الوفود التي كانت تجيئ لتسلم
لبس أحسن ثيابه . وأمر كبراء صحابته بذلك (٨) لأنَّ هذا يعظمهم في عيون
القادمين ، ويعلى حزب الله ، وبخاصة أنهم لم يتخلقوا بأخلاق الإسلام
بعد .

(١) فتح المبدى ٢/٢٩٦ .

(٢) الاحياء ٤/٢٠١ .

(٣) جرداوين : باليين لم يبق عليهما شعر . قبَّالان : سيران بين الاصبعين .

(٤) فتح المبدى ٢/٣٣٥

(٥) النطع : الجلد

(٦) الادم : الجلد

(٧) زاد المعاد ١/٥٤ والاحياء ٢/٣٢١

(٨) كنز العمال ٤/٢٤

(٤) تزهيده ابنته وزوجاته

لم يأخذ رسول الله نفسه وحدها بالزهادة ، بل زهداً أقرب الناس إليه ، فطبق زهده على ابنته السيدة فاطمة وعلى زوجاته جميعاً ، ليجعل منهن قدوة للمسلمات .

١ - فقد عاد من سفر فدخل على فاطمة ، فرأى على باب منزلها سترا ، وفي يديها قُلْبَيْنِ من فضة . فرجع ولم يدخل .

فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي ، فأنخبرته برجوع رسول الله ، فسأله أبو رافع ، فقال له : من أجل الستر والسوارين ، فأرسلت فاطمة بسواريتها بلالا إلى رسول الله ، وقالت : قد تصدقت بهما ، فضعهما حيث ترى ، فقال لبلال : اذهب فبعهما وادفعهما إلى أهل الصفة ، فباعهما بدرهمين ونصف وتصدق بالثمن عليهم (١) .

٢ - وشكت نسوة النبي عليه الصلاة والسلام من أنهن لا يجدن ما يكفينهن من النفقة والزينة ، واجتمعن فحدثن النبي بهذا ، فلم يفعل أكثر من تخييرهن بين الرضا الصابر والتسريح الجميل ، وفي نفسه ألم من شكواهن لم يُخَفِّه عليهن ولا على صديقيه وصهره أبي بكر وعمر ، فقد دخل عليه أبو بكر وعمر فوجداه واجماً وحواله نساؤه ، ففهم أبو بكر أن اجتماعهن لشيء متصل برغبات ، فأراد أن يسرى عن رسول الله فقال : يا رسول الله أو رأيت بنت خارجة ، سأمتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها . فضحك الرسول وقال : هن حولى كما ترى يسألننى

(١) الاحياء ٢٠٥/٤

النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة يَجأُ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يَجأُ عنقها ، وهما يقولان : تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ فقلن : والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده .

ثم اعتزلهن الرسول شهراً فنزلت الآية الكريمة : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنن ترذن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً . وإن كنن ترذن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ^(١) » .

فقال رسول الله السيدة عائشة : أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تعجلني فيه حتى تستشيرى أبويك .

قالت وما هو يا رسول الله ؟

فقرأ الآية ، فقالت : إليك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .

ثم خير النبي نساءه جميعاً ، فاجبن بما أجابت به عائشة ، ورضين بحال يستمتع بخير منها كثيرات من المعاصرات لهن من دن دون مكانة ومقاماً وصهرها .

واو أن النبي أراد أن يغدق على زوجاته إغداقاً لفعل ، فقد كان من اليسور له أن يفرض لنفسه ولأهله من الغنائم والأنفال ما يزيد على حاجته ويرضى زوجاته ، وإنه لمطمئن إلى أن المسلمين سيرحبون بما فرض ، معتقدين أن هذا تشريع من الله .

(١) سورة الاحزاب ٢٨-٢٩

لكنه لم يفعل . فضرب بقناعته عما هو قادر عليه . وزهده فيما يملكه وفيما يستطيع أن يملكه . المثل الأعلى للرجل الكامل . وللحاكم العظيم . وللمالك الذى يتصرف فى ملكه بما يشاء إلا أن يخضع ليل من ميول النفس أو لهوى من الأهواء .

كلفه بالنظافة والطيب .

كان رسول الله مع زهادته وتواضعه وإيثاره كلفاً بنظافة جسمه وملابسه . يحب أن يبدو لأهل بيته ولأصحابه حسن البزّة . نظيف الملبس .

وقد سبق أنه كان يرتدى أحسن ثيابه إذا قدم عليه وفد من الوفود التى كانت تقدّم إليه لتعلن إسلامها . وأنه كان يأمر كبار صحابته بذلك . لأن هذا المظهر يرفع من أقدار المسلمين فى نظر هؤلاء الوافدين . ويعظم من شأن الإسلام . وبخاصة أنهم لم يتشربوا بعدُ تعاليم الإسلام . وكان رسول الله يحب الطيب . وينفر من الرائحة الكريهة . وكانت له سكة^(١) يتطيب منها .

لهذا كان يقبل هدية الطيب ولا يردّه^(٢) .

وقد صنعت له السيدة عائشة جبة من صوف . فلما لبسها عرق . فوجد ريح الصوف ، فخلعها^(٣) .

(١) سكة : طيب من الرامك وهو شئ أسود يخلط بمسك ويعرك ويقرس ويترك يومين ثم يشب بمسلة وينظّم فى خيط ، وكلما قدم به العهد عبق ، أو هى طيب مجموع من اخلاط .

(٢) المواهب اللدنية ١٢٨ .

(٣) الاحياء ٣١٨/٢ .

- وكان يتطيب وهو مُحَرَّمٌ . قالت السيدة عائشة : كنت أُطِيبُ رسول الله لإِحرامه حين يُحَرِّم ، ولحله قبل أن يطوف بالبيت (١) .
- وقالت : كنت أُطِيب رسول الله بأطيب ما يجد . حتى أجد وَبِيبِص (٢) الطيب في رأسه ولحيته وهو مُحَرَّم (٣) .
- وكانت له مِلْحَفَةٌ مصبوغة بالزعفران . وربما صلى بالناس وهو يلبسها وحدها (٤) .
- لهذا كانت رائحته عبقرة . قال أنس بن مالك : ما شممت ريحاً قط . أو عَرَفْتُ قط . أطيب من ريح النبي أو عَرَفَهُ (٥) .
- وكان إذا قام من الليل يَشُوصُ (٦) فمه بالسَّوَاك (٧) .
- وقال عليه الصلاة والسلام : لولا أَن أَشَقَّ على أمتي لأمرتهم بالسَّوَاك عند كل صلاة .
- وكان يُرَجِّلُ شعره (٨) ، وَيُسَرِّحُ لحيته ، وَيَذْهَنُ رأسه . ويضع قِنَاعاً (٩) في بعض الأوقات فوق شعره (١٠) .
- وكان أكثر ملابسه أبيض اللون ، إذ كان يحب البياض . ويوصى بلبسه (١١) .

-
- (١) اللؤلؤ والمرجان ٢٤/٢
(٢) وبِيبِص : لمان
(٣) فتح المبدى ١٦٢/١ ، ٢٩٩/٢
(٤) الاحياء ٣٣٢/٢
(٥) فتح المبدى ٦١/٢ وصحيح مسلم ٨٦/١٥
(٦) يشوص : يدلك
(٧) اللؤلؤ والمرجان ٦٤/١
(٨) يرجل : يرح
(٩) القناع : الخرقعة التي يوضع على الرأس حين استعمال الدهن لتبقى العمامة منه
(١٠) المواهب اللدنية ٤٦
(١١) الاحياء ٣٣٢/٢

وقد أراد من أصحابه أن يكونوا كذلك ما استطاعوا ، فقد سأله رجل : يا رسول الله ، إني أحب أن يكون ثوبي حسناً ونعلى حسنة . أقمن الكبر ذاك ؟ فقال : لا ، إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس (١) .

وذكرت السيدة عائشة أن الناس كانوا يحضرون لصلاة الجمعة من منازلهم وبعضها في العوالي ، فيصيبهم الغبار والعرق ، فتظهر رائحته . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنسان منهم ، وهو عندي ، فقال الرسول : لو أنكم تطهرتم ليومكم هذا (٢) .

وقال على المنبر يوم الجمعة : ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنتيه (٣) .

وقال : اغتسلوا يوم الجمعة ، واغسلوا رؤوسكم ، وإن لم تكونوا جنباً وأصيبوا من الطيب (٤) .

وقال : من أكل من هاتين البقلتين (٥) فلا يقربن مسجدنا ، فمن كان آكلهما فليمتهما طبخاً (٦) .

وقال : من أكل من هذه الشجرة - يريد الثوم - فلا يغشانا في مساجدنا قال راوى الحديث : قلت لجابر بن عبد الله : ما يعنى به [فقال : ما أراه يعنى إلا نيئة ، وقيل إلا نتنة (٧)] .

(١) زاد المعاد ٥٢/١

(٢) فتح المبدى ٢٩١/١

(٣) زاد المعاد ٤٥/١

(٤) فتح المبدى ٢٨٨/١

(٥) المراد النوم والكرات

(٦) المجازات النبوية ٦٨ .

(٧) فتح المبدى ٢٨٣/١

وقال : من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا ، أو فليعتزل مسجدنا وليتعد في بيته (١) .

وقال : من أكل من هذه اللحوم شيئاً فليغسل يده من ريح وذره لا يؤذى من حذاه (٢) .

وقال : إن الله جميل يحب الجمال ، سخي يحب السخاء ، نظيف يحب النظافة (٣) .

وكان صلى الله عليه وسلم يقلم أظفاره . ويقص شاربه يوم الجمعة قبل أن يروح إلى الصلاة (٤) .

ورأى عوف بن مالك في ثياب رثة ، فقال له : هل لك من مال ؟ قال : من كل المال قد أعطاني الله تعالى من الإبل والغنم . قال رسول الله : فليُر عليك (٥) .

حُضه على الزهد

كثيراً ما حض النبي على الزهد ، كقوله :

١ - إذا نظر أحدكم إلى من فضّل عليه في المال والخلق فليَنظر إلى من هو أسفل منه ، فهو أجدر ألا تزددوا نعمة الله تعالى عليكم (٦) .

٢ - عليكم بالقناعة فإن القناعة مال لا ينفد (٧) .

-
- (١) فتح المبدى ٢٨٣/١ والجامع الصغير ٢٥٧/٢
 (٢) الجامع الصغير ٢٥٨/٢ الوتر : وسخ اللسم أو رائحته الكريهة
 (٣) الجامع الصغير ١٧٣/١
 (٤) كنز العمال ٢٥/٤
 (٥) تيسير الوصول ٢٨٩/٢ رثة : بالية رديئة
 (٦) فتح المبدى ٣٢٥/٣
 (٧) كنز العمال ٨٠/٢ والجامع الصغير ١٤/٢

- ٣ - إذا أصبحت آمناً في سِرْبِكَ : مُعافى في بدنك . عندك قوت يومك .
فعلى الدنيا العفاء^(١) .
- ٤ - أتاه أوس بن خولة بقدرح فيه لبن وعسل . فوضعه وقال :
شَرِبْتان في شَرْبَةٍ . وأُذْمان في قَدَح . لا حاجة لي فيه . أمّا إني لا أزعَم أنه
حرام . ولكن أكره أن يسألني الله عن فضول الدنيا يوم القيامة^(٢) .
- ٥ - مر على أصحابه وفي يده قطعة من ذهب . فقسمها وقال .
ما كان محمد قاتلاً لربه لو مات وهذه عنده^(٣) ؟ .
- ٦ - إني والله ما يسرنى أن لي أحداً ذهباً كله ثم أورثه أو ما أحب أن
لي أحداً ذهباً أموت يوم أموت وعندى منه دينار أو نصف دينار إلا أن
أرصد له غريم^(٤) .
- ٧ - من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من حجر جهنم . قالوا :
يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يُغْذِيهِ أو يُعْشِيهِ^(٥) .
- ٨ - ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه . حسب ابن آدم اتقيات
يقمن صلبه . وإن كان لا بد فاعلا فثلث اطعمه . وثلث اشربه ،
وثلث لنفسه^(٦) .
- ٩ - لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا يتغى لهما ثالثاً . ولا
يملا جوف ابن آدم إلا التراب^(٧) .
- ١٠ - منهومان لا يشبعان منهومان العا ومنهومان المال^(٨) .

(١) كسر العمال ٨٠/٢ والجامع الصغير ٩٤/٢

(٢) الى (٤) كسر العمال ٥١/٢ الأدم : الأدام : ما يسمرا به الخير

(٥) المنتخب من السنة ٤٩/٧

(٦) الأحياء ٧٠/٢ ونور اليقين ٢٨٢

(٧) (٨) الأحياء ٢٠٦/٢

- ١١ - ليس الغنى عن كثرة العَرَض . إنما الغنى غنى النفس ^(١) .
- ١٢ - طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافاً وَقَنِيعاً ^(٢) .
- ١٣ - مَنْ سَأَلَ مِنْ غَيْرِ فَقْرٍ فَكَأَنَّمَا يَأْكُلُ الْجَمْرَ ^(٣) .
- ١٤ - مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ ، مُعَافٍ فِي جَسَدِهِ . عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَافِيرِهَا .
- ١٥ - أَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ ، وَأَزْهَدْ فِيهَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ ^(٥) .

(١) (٢) الاحياء ٢٠٦/٢
 (٣) الجامع الصغير ٣٧٣/٢
 (٤) الجامع الصغير ٣٥٢/٢
 (٥) كنز العمال ٣٩/٢

النصائح الخاصة عشر

الحياء

حقيقته

الحياء انقباض النفس وتحفظها عما يَعيبُها من فعل أو قول وإن كان مباحاً في الشرع ، ولا مقال فيه لأحد .
وهو وثيق الصلة بالعفة والإيثار والصبر والحلم والعفو وطيب العشرة .

وأعلى درجاته ما كان منشؤه الشعور برقابة الله وعظم حقه ، قال عليه الصلاة والسلام : استحيوا من الله حق الحياء . قالوا : إنا نستحي من الله يا رسول الله والحمد لله ، قال : ايس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى (١) ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأولى .

وقد كان النبي حياً ، بل كان شديد الحياء ، حتى لقد وصفه مخالفوه بأنه كان أشد حياء من العذراء في خدرها (٢) .

(١) كالسمع والبصر واللسان

(٢) فتح المبدى ٦١/٣ والاحياء ٣١٦/٢ وصحيح مسلم ٧٨/١٥

ولم لا ؟ وهو عفيف النظرة . مهذب الكلمة . مؤثر أصحبه على نفسه ، سريع المغفرة . طيب العشرة ، صبور حلیم . بالمؤمنين رؤوف رحيم . لكن حياة النبي كان مقصورا على ما لا يتصل بتبليغ الدعوة . والنهوض بالرسالة ، وإقرار الحق ، وإقامة العدل . وتقوى الله وطاعته . فطالما غضب الله ، وطالما جهر بتسفيه الشرك والسخرية من الضلال . فلما لم يجد من امتثاق الحسام بُدأ شَهْرَ سيفه . وجاهد في سبيل الله ، حتى أعلى كلمته ، ومكَّنَ لدينه الذي ارتضاه لعباده .

مظاهره

١ - كان بعض المسلمين يتحिनون طعام رسول الله . فيدخلون بيوته . ويجلسون منتظرين إنباج الطعام ، ومستأنسين لمحادثة بعضهم لبعض ، وكان رسول الله يضيق بطول جلوسهم وكثرة أحاديثهم . ولكن حياته يمنعه أن يأمرهم بالخروج . لأن هذا الأمر يشق عليهم . فتولى الله عن النبي إرشادهم ، ولهذا قالت السيدة عائشة : حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم (١) .

قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّا هَذَا (٢) . ولكن إذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا . فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ . إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ . وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (٣) » .

(١) الكشف ٢٢٠/٢

(٢) إنا : نضجه

(٣) سورة الأحزاب ٥٣ .

٢ - كان لا يثبت بصره في وجه أحد ، ويعرض عن يتكلم بغير جميل ، ويتغافل عما لا يشتهي من الحديث (١) .

٣ - قالت السيدة عائشة : كان إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل : ما بال فلان يقول كذا وكذا ، بل يقول ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا وكذا ، ينهى عنه ، ولا يسمى فاعله (٢) .

٤ - وكان يتوصل بالكناية عما يضطر إلى التعبير عنه مما يكره التصريح به .

ذكرت السيدة عائشة أن امرأة سألت النبي عن غسلها من المحيض ، فعرفها كيف تغتسل ، ثم قال لها : خذي فرصة من مسك فتطهري بها ، قالت : كيف أتطهر بها ؟ قال : سبحان الله تطهري ، فاجتذبتُها إلى فقلتُ لها : تتبَّعي بها أثر الدم .

وروى أنه قال لتلك المرأة تطهري بها ثلاث مرات ، ثم استحيا فأعرض بوجهه (٣)

كذلك قال لامرأة رفاعه - حينما سألته وقد تزوجت رجلاً فطلقها قبل أن يدخل بها : هل تحل لزوجها الأول الذي كان قد طلقها ثلاثاً : حتى تذوق عُسَيْلَتَه ويذوق عُسَيْلَتَكَ (٤) .

(١) الاحياء ٢/٢٢٤

(٢) نور اليقين ٣٩٥

(٣) فتح المبدى ١٧٠/١ والاحياء ٢/٢٢٤ فرصة : قطعة

(٤) الاحياء ٢/٢٢٤

حُضه على الحياء

قال عليه الصلاة والسلام :

- ١ - إذا لم تستح فاصنع ما شئت .
- يريد أنه إذا لم يكن بك حياءً يمنعك القبيح فافعل ما تأمرك به نفسك الأمارة بالسوء ، وهذا تهديد .
- أو أن الأمر للإباحة ، لأن المعنى إذا أردت فعلاً لا يستحياً منه شراً وإن كان يعاب عرفاً فافعل ما شئت (١)
- ٢ - إن الله إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء ، فإذا نزع منه الحياء لم تُلَفِه إلا مقبلاً مَقْبَتاً ، فإذا لم تُلَفِه إلا مقبلاً مَقْبَتاً نُزِعَتْ منه الأمانة ، فإذا نزعته منه الأمانة لم تُلَفِه إلا خائناً مُخَوَّناً نُزِعَتْ منه الرحمة ، فإذا نزعته منه الرحمة لم تُلَفِه إلا رجياً مُلْعَناً نُزِعَتْ منه رِبْقَةُ الإسلام (٢) .
- ٣ - إن الحياء والإيمان في قرآن ، فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر (٣) .
- ٤ - الحياء خير كله (٤) .
- ٥ - من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله تعالى (٥) .
- ٦ - الحياء شعبة من الإيمان (٦) .
- ٧ - مر رسول الله على رجل من الأنصار يعظ أخاه في الحياء ، فقال : دعه فإن الحياء من الإيمان (٧) .

(١) فتح البدي ٣/٣١١

(٢) الجامع الصغير ١/١٦٧

(٣) إلى (٥) كنز العمال ٢/٢٧ والجامع الصغير ١/١٩٧

(٦) المجازات النبوية ٨٧

(٧) فتح البدي ١/٥٨ كان الرجل كثير الحياء ، وكان الآخر يعاتبه لأن الحياء قد يمنعه استيفاء حقوقه ، فقال رسول الله تركه على حياته .

- ٨ - من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ^(١) .
- ٩ - كل أُمّي مُعافٍ إلا المجاهرين . وإن من الجهار أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله تعالى فيقول : عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه ^(٢) .

(١) الجامع الصغير ٢/٢٥٨ ونجح المبدى ٣/٣٠٨
(٢) الجامع الصغير ٢/١٦٤ ونجح المبدى ٣/٣٠٨

الصلة السابعة عشر

التواضع

ما التواضع ؟

التواضع تنزل بالنفس في غير ابتذال لها ، ولا تهون بقدرها ، ولا تجرئة للآخرين على الاستخفاف بمكانة المتواضع .

فهو إذا نقيض الكبر ، لأن الكبر يزين للمتكبر أنه أعظم قدرا وكمالا من سواه ، فيركن إلى هذا الاعتقاد ، ويدأب على تحقير من دونه ، ويزدريه ، ويقصيه ، ويترفع عن مجالسته ومخالطته ، ويأنف من أن يخالفه غيره أو يعظه ، فإن جروا أحد على شيء من هذا غضب وغنه ووبخه .

ولهذا فإن المتكبر إذا علم استذل المتعلمين وانتهرهم وامتن عليهم ، وإن خالط الناس استجهلهم واستحقرهم ، وإن تولى عملا استبد واستأثر (١) . وعلى قدر ما يحقق التواضع من مساواة وإيثار وسماحة ومشاركة في المشاعر وشغف بالإنصاف ، يجر الكبر إلى رذائل كالحقد والغضب والآثرة والغرور والتسلط .

ولهذا يرى العقلاء والفضلاء من الكبر ، وبرئوا من الفخر . فقد

(١) الكبر يختلف عن العجب لأن العجب لا يمتد إلى غيره ويختلف عن العظمة ، لأن الإنسان قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم منه أو يراه ندد (الاحياء ٢٩٩/٣) .

استخر رئيس على مملوك لبعض الفلاسفة ، فقال له المملوك : إن افتخرت على يعمرك ونحسب ونفراة القرس لا لك ، وإن افتخرت بشيابك وآلائك ونحسب لها دونك . وإن افتخرت بآبائك فالفضل كان فيهم دونك .

دم القرآن تكبر

وقد ذم القرآن الكريم رذيلة الكبر . فقال تعالى : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الْيَتِيمِ يُتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ (٢) » .

وقال سبحانه : « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ (٣) » .

وضرب سبحانه وتعالى مثلي لما يجنيه الكبر على صاحبه من هلاك . أحدهما إبليس إذ زين له كبره أن يستنكف من السجود لآدم ، فطرده الله من رحمته . قال تعالى : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ، قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِإِبْرَئِيلَ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْنُونٍ ، قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الْيَتِيمِ (٤) » .

والآخر رجل غره ماله وكثرة أتباعه ووفرة ثماره ، فأنكر الوحداية

١ . تهذيب الاخلاق لاس مسكو ١٦٤ .

٢ . زبد الامراء ١٤٦ .

٣ . سورة طه ٢٥ .

٤ . سورة الحجر ٢٨-٣٥ .

والبعث ، واستعلى على صاحبه ، واستكبر أن يستمع نصحه ، فأنلف الله أشجاره وثماره .

قال تعالى : « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحفظناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً كلتا الجنتين ءاتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً . وفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهراً وكان له ثمر ، فقال لصاحبه وهو يحاوره أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفْراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه . قال : ما أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ، وما أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً . ولئن رددت إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَبًا . قال له صاحبه وهو يُحاوِرُهُ : آكفرت بالذي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا . لَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً . ولولا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ . وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ، أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ، فَاصْبَحْ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنزَلْنَا فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، ويقولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ^(١) .

وكذلك ذم القرآن الكريم العُجب لأنه يولد الكبر . فقال تعالى : « لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ^(٢) » .

(١) سورة الكهف ٢٢-٢٣
(٢) سورة التوبة ٢٥-٢٦

مظاهره

كان رسول الله المثل الأعلى في تواضعه . لأنه أعلى الناس قدرا عند الله وعند الناس ، ولكنه لا يتعالى عليهم . بل يتنزل في غير امتهان ، تنزل العظيم الذي يحب صحبه . كما يحب إخوته وبنيه ، ويعلم أنهم يحبونه ويجلونه ويؤثرونه على أنفسهم .

وكان هذا التواضع لا يزيده إلا جلالا في عيونهم . ولا يزيده إلا محبة في قلوبهم .

وقد شمل تواضعه معاملاته وأعماله ومظهره العام .

١ - حدث أبو سعيد الخدري قال : كان رسول الله يَغْلُفُ النَّاصِحَ (١) ، ويعقل البعير . وَيَقْمُ (٢) البيت ، ويحلب الشاة ، وَيَخْصِفُ النعل ، ويرقع الثوب . ويأكل مع خادمه . ويطحن عنه إذا تعب ، ويشترى الشيء من السوق فيحمله إلى أهله . ويصافح الغني والفقير والكبير والصغير . ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير وأسود أو أحمر وحر أو عبد (٣) .

٢ - لما سمع الرسول بأن قريشاً وحلفاءها قادمون إلى المدينة ضرب الخندق على المدينة . فعمل فيه ترغيباً للمسلمين في الأجر ، وتشجيعاً لهم على العمل ، ودأب فيه ودأبوا ، وكانوا يرتجزون برجل من المسلمين يقال له جُعيل سماه رسول الله عمرا . فقالوا :

(١) الناصح : البعير

(٢) يقم : يكتس

(٣) الاحياء ٣٠٦/٢

سماء من بعد جُعيل عمراً : وكان للبائس يوماً ظهراً (١) .
 فإذا مروا بعمره قال الرسول (عمرا) . وإذا مروا بظهر قال الرسول
 ظهراً .

وكان ينقل التراب وقد وارى بياض بطنه . وهو يقول :

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِينَا
 فَأَنْزَلَنُ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَتَ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقِينَا
 وَالْمَشْرُكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا (٢)

٣ - كان في سفر ، وأمر أصحابه بطهو شاة . فقال أحدهم : على
 ذبحها وقال آخر : على سلخها . وقال ثالث : على طبخها . فقال رسول الله .
 وعلى جمع الحطب . فقالوا : يا رسول الله . نكفيك العمل . فقال :
 علمت أنكم تكفونني ، ولكن أكره أن أتميز عليكم . وأن الله سبحانه
 وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه (٣) .

٤ - قدم وفد النجاشي على رسول الله . فقام يخدمهم بنفسه .
 فقال له أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله . فقال : لا . إنهم كانوا
 لأصحابي مكرمين ، وأنا أحب أن أكافئهم (٤) .

٥ - عن أبي هريرة : دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم
 فاشتري سراويل . وقال للوازن : زن وأرجع . ثم قال : فوثب إلى يد
 رسول الله يقبلها . فجذب يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ،

(١) الضمير في (سماء) وفي (كان) يعود على السى . انظر : الطاهر والمعين
 فتح المبدى ٢٠٢/٢ وتاريخ الطبرى ٤٤/٣
 (٢) شرح الزرقاني ٢٦٥/٤
 (٣) شرح الزرقاني ٢٦٦/٤ والاحياء ١٧/٢
 (٤)

ولستُ بملك . إنما أنا رجل منكم . ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله ، فقال : لا . صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله (١) .

٦ - قالت السيدة عائشة : كان صلى الله عليه وسلم يَخْصِفُ نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته ، أرسل إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلا ، فأمسكت وقطع رسول الله (٢) .

٧ - قال الأسود بن سريع : يا رسول الله إني قلت شعرا أثنيت فيه على الله ومدحتك ، فقال له : ما أثنيت به على الله فهاته ، وأما ما مدحتني به فدعه عنك وكان يقول : يا أيها الناس لا ترفعوني فوق قدرى ، فإن الله قد اتخذني عبدا قبل أن يتخذني نبياً (٣) .

٨ - اغتسل في بئر فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب ، وقام يستر رسول الله حتى اغتسل ، ثم نزل حذيفة ليغتسل ، فتناول رسول الله الثوب ، وقام يستر حذيفة عن الناس ، فأبى حذيفة . وقال : بآئ أنت وأمى يا رسول الله ، لا تفعل . فأبى إلا أن يستر حذيفة بالثوب حتى اغتسل (٤) .

٩ - وكان يقدم من السفر فيلتقاه الصبيان . فيقف عليهم ، ثم يأمر بهم فيرفعون إليه : فيرفع بعضهم بين يديه ، ويرد بعضهم خلفه ، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم .

وربما تفاخر الصبيان بعد ذلك ، فيقول بعضهم لبعض : حملني

(١) نور اليقين ٢٩٩
(٢) الاحياء ٢١٦/٢ ، وفتح المبدى ٢٥٠/١
(٣) كنز العمال ١٢٢/٢
(٤) الاحياء ١٥٤/٢

رسول الله بين يديه ، وحملك أنت ورائه ، ويقول بعضهم : أمر أصحابه أن يحملوك ورائهم (١) .

١٠ - وكان يُردف خلفه عبده أو غيره ، أردف أسامة بن زيد مولاه وابن مولاه من عرفة ، وأردف الفضل بن عباس من المزدلفة ، وأردف معاذ بن جبل وابن عمر وغيرهم من الصحابة (٢) .

١١ - وكان يركب ما أمكنه ، مرة فرساً ، ومرة بعيراً ، ومرة بغلة ، ومرة حمارا ، وأحياناً يمشى راجلاً حافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة (٣) .

١٢ - وما عاب منسجماً ، إن فرشوا له اضطجع ، وإن لم يفرشوا له اضطجع على الأرض ، وكان فراشه من أدم حشوه ليف ، طوله ذراعان أو نحوه ، وعرضه ذراع وشبر أو نحوه ، وكان ينام على الحصير ليس ثمة غيره (٤) .

١٣ - وكان يجيب دعوة الحر والعبد ، لا يدعو أحمر ولا أسود من الناس إلا أجابه ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمساكين (٥) .

١٤ - وكان يتقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن ، أو فخذ أرنب ، ثم يكافئ عليها ، ويأكلها ولا يأكل الصدقة .

١٥ - وكانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيده فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شئت ، فلا يأنف أن يمشى مع الأرملة والمساكين (٦) .

(١)	الاحياء ١٧٢/٢
(٢)	الاحياء ٣١٨/٢
(٣)	الاحياء ٣١٨/٢
(٤)	الاحياء ٣٢١/٢ ، ٣٢٤
(٥)	أقضية ٣١٦/٢ وهامشه
(٦)	الاحياء ٣١٧/٢ ، ٣٠٤/٣

١٦ - وكان يجالس الفقراء والمساكين ، قال أبو سعيد : جاست في عصابة من ضعفاء المهاجرين ، وإن بعضهم ليستر بعضاً من العرى . فجلس رسول الله وسطنا ليغذّل بنفسه فينا ، وكان له عبيد وإماء لا يترفع عليهم من مأكّل ولا ملبس^(١) .

١٧ - حدث أبو أيوب خالد بن زيد أن الرسول لما نزل في بيتي نزل في الطبقة الأولى ، وأنا وأم أيوب في الطبقة الأعلى ، فقلت له : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي ، إني لأكره أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فاصعد أنت وكن في العلو ، وننزل نحن فنكون في السفّل ، فقال : يا أبا أيوب إيه ، أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفّل البيت .

ثم انكسر حب^(٢) لنا فيه ماء ، فقدمت أنا وأم أيوب بقطيفة انا ، مالذا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء ، تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء^(٣) .

١٨ - كان له كساء ملبد^(٤) يلبسه ويقول : إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد . وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ، ويعقد طرفيه بين كتفيه ، وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ماتحفاً به مخالفاً بين طرفيه^(٥) .

١٩ - أتى برجل فأرعد من هيبتة ، فقال له : هون عليك ، فلست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد^(٦) .

(١) الاحياء ٣١٩/٢

(٢) حب : جرة

(٣) سيرة ابن هشام ١٤٤/٢

(٤) ملبد : مرتع

(٥) الاحياء ٣٢٢/٢

(٦) الاحياء ٣٢٨/٢

- ٢٠ - ما دُعاه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال : لبيك^(١) .
- ٢١ - كان أصحابه يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً . ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ، ويضحكون ، فيبتسم إذا ضحكوا . ولا يزجرهم إلا عن حرام^(٢) .
- ٢٢ - لم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه . لأنه كان يجلس حيث ينتهي به المجلس . ويجلس بين ظهرائهم ، فيجئ الغريب فلا يدرى أيهم هو ، حتى يسأل عنه ، روى أنه قال : لا يُقِمُّ الرجلُ الرجلَ من مجلسه ، ثم يجلس فيه ، ولكن توسعوا وتَفَسَّحُوا . وقال : إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا أحد أخاه فأوسع له فليأته ، فإنما هي مكرمة أكرمها بها أخوه ، فإن لم يوسع له فلينتظر إلى أوسع مكان يجده فيجلس فيه^(٣) .
- ٢٣ - وكان يضحك ، لكن ضحكه تبسم ، وكان يرى اللعب المباح فلا ينكره ، ذكرت السيدة عائشة أن النبي كان يسترها بردائه وهي تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد^(٤) .
- ٢٤ - وكان يسابق السيدة عائشة فيسبقها وتسبقه ، فيقول هذه بتلك^(٥) .
- ٢٥ - وكان يذكره أن يقوم له أصحابه إذا أقبل ، روى أنه قال لهم : إذا رأيتموني فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم ، وقال : من سره أن يمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار .

(١) ، (٢) الاحياء ٢/٢٣٨

(٣) الاحياء ٢/١٨٢

(٤) الاحياء ٢/٢٤٥

(٥) الاحياء ٢/٤٠

روى عن أنس قوله : ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنا إذا رأيناه لم نقم له ، لما نعلم من كراهته لذلك (١) .

حُضه على التواضع

طلما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكبر ، وبَغْضَهُ إلى المسلمين ، وطلما أمر بالتواضع ، وحببه إليهم ، وكثيرا ما ضرب لهم أعظم المثل والقدوة بنفسه ، مثل قوله :

١ - لا تُظروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله (٢) .

٢ - حج على رَخل رَثٌ وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم ، فقال : اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة (٣) .

٣ - أعوذ بك من نقمة الكبرياء (٤) .

٤ - لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر (٥) .

٥ - كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم (٦) .

٦ - لا يقل أحدكم : أَطْعِمُ ريك ، وَضِيُّ ريك ، اسقى ريك ، وليقل سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي ، واكن فتاى وفتاى وغلامى (٧) .

٧ - إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه ، فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين ، فإنه وليّ علاجه (٨) .

(١) الاحياء ١٨٢/٢ و ٢٠٤/٣
(٢) و (٣) المواهب اللدنية ١٨٩
(٤) الى (٦) زاد المعاد ٥٢/١ والاحياء ٢٩٩/٣
(٧) و (٨) فتح المبدى ٢٤٨/٢ والاحياء ١٤١/٢

- ٨ - التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا يرفعكم الله (١) .
- ٩ - إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد (٢) .
- ١٠ - من تواضع لله رفعه (٣) .
- ١١ - لا ينظر الله إلى رجل يجبر إزاره بطراً (٤) .
- ١٢ - طوبى لمن تواضع في غير مسكنه (٥) .
- ١٣ - يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صُور الذر ، تطوهم الناس ، لهوانهم على الله تعالى (٦) .
- ١٤ - من جرّ ثوب خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة (٧) .
- ١٥ - لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تَفَسَّحُوا وتوسَّعوا (٨) .
- ١٦ - سئل صلى الله عليه وسلم عن الجمال في الثياب : هل هو من الكبر ؟ فقال : لا ، ولكن من سفه الحق ، وغَدَصَ الناس (٩) .

(١) إلى (٣) كنز العمال ٢٥/٢ والاحياء ٢٨٠/٤
 (٤) الاحياء ٢٩١/٣
 (٥) الاحياء ٢٩٢/٣
 (٦) الاحياء ٢٩٠/٢ الدر : النمل
 (٧) الجامع الصغير ٣٦٤/٢
 (٨) فتح المبدى ٣٦٧/٣
 (٩) زاد المعاد ٥٢/١ والاحياء ٢٩٨/٣ ، ٣٠٥ غصن الناس : ازدراهم واحترقهم

الفصل السابع عشر

الوفاء

حقيقته

الوفاء القيام بما يجب للعبد من رعاية وأداء ، سواءً أكان العهد معتمدا على توثيق مكتوب أو على وعد شريف ، أم لم يكن متعاقدا عليه ، لأنه مما تُلْزَمُ به الفطرة السليمة والعقل الرشيد والوجدان الحي ، كالوفاء لصاحب الجميل .

وَحَسْبُ الْوَفَاءِ بِالْوَعْدِ تَشْرِيفاً أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ . يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ (١) ؟ » .

وقد أمر سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهد ، لأنه من التقوى ، والله يحب عباده الاتقياء : « بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٢) » ، ولأنه الوسيلة إلى نيل ما وعد الله به عباده الأفياء « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ (٣) » ، ولأن العهد مما يسأل الخلق عنه يوم

(١) سورة التوبة ١١١

(٢) سورة آل عمران ٧٦

(٣) سورة البقرة ٤٠

القيامة «وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مستولاً»^(١) ، ولأنَّ الوفاء من صفات أصحاب العقول الراجحة المبرأة من الأهواء « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابَ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ »^(٢) .

مظاهره

كان رسول الله - كما قال علي بن أبي طالب - أوفى الناس ذمّة^(٣) .
وقد عظم وفاؤه واتسع ، فشمل كل ضروب الوفاء .

(١) لنعم الله

قَدَّرَ نِعَمَ اللَّهِ حَقَّ قدرها ، فأجهد نفسه في القيام بشكرها .
قالت السيدة عائشة إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تَتَفَطَّرَ^(٤) قدماه ، فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟
قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً ؟

(٢) بالعهد

وَقَفَى رسول الله بكل عهد عاهد عليه ، فلم يستجيب لما كانت تقتضيه الضرورة أحياناً من الغدر ، ولم تخوله المصلحة أن ينكث العهد ، ولا أن يرتضى نكثه مهما تكن البواعث .

(١) سورة الاسراء ٣٤

(٢) سورة الرعد ٢٠

(٣) الاحياء ٢٣٧/٢

(٤) تنفطر : تشقق .

ويكفي أن أذكر هنا ثلاثة أمثلة لكل منها أعظم الدلالة على الوفاء بالعهد .

فأما المثال الأول فهو أن حُذِيفَةَ بن اليمان^(١) قال : ما منعى أن أشهد غزوة بدر إلا أنى خرجت أنا وأبى حسيل من مكة إلى المدينة مهاجرين ، فأخذنا كفار قريش فقالوا : إنكما تريدان محمدا ، فقلنا : ما نريد إلا المدينة ، فخلوا سبيلنا بعد أن أخذوا منا عهد الله وميثاقه ألا نقاتل معه ، فلما كانت غزوة بدر أردنا أن نشترك فيها ، فأخبرنا رسول الله بما كان بيننا وبين قريش ، فقال : انصرفا ، نرى لهم بعهدهم ، ونستعين الله عليهم^(٢) .

إن هذا العمل العظيم الذى فعله رسول الله ليس وفاء فحسب ، بل هو أسمى ما يصبو إليه الوفاء ، وذلك أن الوفاء بالعهد فى وقت السلم فضيلة ، فإذا كان فى حرب متصلة مع عدو ضارى العداوة متصل المكيدة متلاحق الغدر فإنه أفضل الفضيلة .

ثم إن وفاء الشخص بعهد فضيلة ، فإذا ما حض غيره على الوفاء بعهد لم يشارك هو فيه ، ولم يشر به ، ولم يقره ، ولم يشهد عليه ، وهو يعلم أنه عهد باطل لأنه قام على الاضطرار وعلى التحايل للفرار ، ويعلم أن نقض هذا العهد يزيد عدد جنوده ويقوى جيشه فى وقت كان فيه

(١) اسم والده حسيل بالتصغير أو حسل بالتكبير ولكنه سمي اليمان (أى اليمنى) لأنه أو لان أحد أجداده جروة العيسى كان قد أساب دما فهرب الى المدينة فحالف بنى عبد الأشهل وهم من اليمن فسماه تومة اليمان ، لأنه حالف اليمانية ، أو لأنه بعد عن أهله زمانا باليمن ثم رجع اليهم (الإصابة ٣٣٢/١ والاستيعاب ٣٣٤)

(٢) مسند الامام أحمد ٣٩٥/٥ وصحيح مسلم ١٤٤/١٢ والإصابة ١٣/٢ وأسد الغابة ٣٩٠/١

جيشه قليل العدد فليس فيه رجлан بالشئ الهين ، إن الوفاء حينئذ ليس فضيلة فحسب ، بل هو أعظم الفضيلة .

لهذا كان أمر النبي لحذيفة وأبيه بالوفاء بعهدهما أعلى ما يصبو إليه الخلق العظيم من درجات الوفاء بالعهد .

وأما المثال الثاني فإنه بينما كان رسول الله يكتب معاهدة الحديبية مع قريش جاءه أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده ويعان إسلامه ، فرده رسول الله إلى قريش وفاء بالعهد الذي لم يتم توقيعه ، فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين كيف أردت إلى قريش وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً ، فاشتد الأمر على المسلمين ، وقالوا : كيف نرد إلى المشركين من جاءنا مسلماً وهم لا يردون إلينا من جاءهم مرتدا ؟

فقال النبي : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاء منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له مخرجاً (١) .

وأما المثال الثالث فهو أن أبا بصير عتبة بن أسيد فر إلى المدينة بعد عهد الحديبية ، وكان ممن حبستهم قريش في مكة ، فبعثت قريش إلى رسول الله تطلب رده ، فقال له الرسول : يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فأنطلق إلى قومك (٢) .

وقد حدث ما توقعه رسول الله ، فإن أبا بصير قتل مرافقه القرشي

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٢٢

(٢) سيرة ابن هشام ٣/٣٣٧

وهرب إلى ساحل البحر ، ولحق به أبو جندل ، ثم لحق بهما كل رجل أسلم من قريش ، وهناك اجتمعت غُصبة ، وجعلوا يتعرضون لقوافل قريش المترددة بين الحجاز والشام ، ويسلبونها ويقتلون رجالها ، فبعثت قريش إلى النبي تذاشده الله تعالى والرحيم أن يستقدم هؤلاء إليه ، فعن أتاه منهم فهو آمن فأرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدموا إليه بالمدينة (١) .

(٣) للوالدين

لقد عرف النبي الأُمى اليتيم ما يجب للوالدين من بر وتكريم وإيثار ، مهتدياً بما أمر به القرآن الكريم ، وبما توحى به المشاعر الطاهرة والخلق الكريم والوفاء بالجميل .

١ - قالت أسماء بنت أبي بكر : قدمت على أُمي وهي مشركة ، حينما عاهد رسول الله قريشاً عهد الحديبية - وكان أبو بكر قد طلقها في الجاهلية - ومعها هدية لي ، فبعثت إلى رسول الله أستفتيه فقلت : إن أُمي قلمت على وهي راغبة ، أفأدخلها بيتي ؟ فأرسل إلى يقول : نعم ، أدخلها أملك وصلبها (٢) .

٢ - جاء رجل إلى النبي يستأذن في الجهاد ، فسأله رسول الله : أحيى والداك ؟ قال : نعم . قال : فارجع فاستأذنهما ، فإن أذناك فجاهد ، وإلا فبرهما (٣) .

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٢٨

(٢) الاستيعاب ٩٠٥ ، ١٧٨١ وفتح المبدى ٢/٢٥٩ .

(٣) فتح المبدى ٢/٣٢٢ وتيسير الوصول ٢/٤٥

ومعنى هذا أنه حتم على الابن الذى يريد الجهاد أن يأذن له والداه ،
وجمهور الفقهاء على حرمة الجهاد إذا رفض الوالدان أو رفض أحدهما (١) .

٣ - أمر النبي بأن يودَّ الابن من كان أبوه صديقاً له ، لأن هذا
ضرب من الوفاء للأب .

فقد لقي عبد الله بن عمر بن الخطاب رجلاً من الأعراب ، فسلم
عليه عبد الله ، وحمله على دابته ، وأعطاه عمامة كانت على رأسه فقال له
عبد الله بن دينار : أصلحك الله ، إنهم الأعراب ، وهم يرضون باليسير ،
فقال ابن عمر : إن أباً هذا كان واداً لعمر بن الخطاب ، ولئى سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أبرَّ البر صلة الولدِ أهْلَ وُدِّ أبيه بعد
أن يؤلى الأب (٢) .

٤ - جاء رجل إلى النبي فقال : يا رسول الله إن لى مالاً وولداً ،
وإن أبى يحتاج مالى ، فقال : أنت ومالك لأبيك ، إن أولادكم من أطيب
كسبكم ، فكلوا من كسب أولادكم (٣) .

٥ - قال أبر هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
رغم أنفه ، رغم أنفه ، رغم أنفه . قيل : من يا رسول الله ؟ قال : من
أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ، ثم لم يدخل الجنة (٤) .

أى أن برهما وبخاصة عند الكبر والضعف سبب فى دخول الجنة .

(١) فتح المبدى ٣٢٢/٢

(٢) تيسير الوصول ٤٦/٢ والاحضاء ١٩٣/٢

(٣) تيسير الوصول ٤٤/١

(٤) تيسير الوصول ٤٤/٢

(٤) للزوجة

عاش صلى الله عليه وسلم حياته وفياً لذكرى زوجته السيدة خديجة ، ولم يلهه عن هذا الوفاء زواجه بالسيدة عائشة . أو السيدة حفصة أو غيرها ، بل كان يذكرها بالتقدير على مسامح من السيدة عائشة ، فتغار منها ، حتى لقد قالت له مرة : هل كانت إلا عجوزاً بذلك الله خيراً منها ؟ فغضب وقال : لا والله ما بداني الله خيراً منها ، آمَنتُ بي إذ كفر الناس ، وصَدَّقْتَنِي إذ كَذَبَنِي الناس ، ووَاسْتَنِي بِمَا لَهَا إذ حَرَمَنِي الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء (١) .

وكان إذا أتى بهدية قال : اذهبوا بها إلى بيت فلانة ، فإنها كانت صديقة لخديجة ، إنها كانت تحب خديجة .

وكان يذبح الشاة فيهديها إلى خلائل خديجة .

واستأذنت عليه أخت خديجة فارتاح إليها ، ودخلت عليه امرأة فهِش لها وأحسن السؤال عنهما ، فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين (٢) .

(٥) لقراءة الرضاع

١ - قدمت حلیمَةُ السَّعُودِيَّةِ على النبي بعد زواجه من السيدة خديجة فاستأذنت به على أعباء الدهر ، فكلم السيدة خديجة ، فمَنَحَتْهَا بَعِيرًا وَأَرْبَعِينَ شاة .

(١) فتح الباري ٢٨٥/٩ والاستيعاب ٧٤١/٢ واسد الغابة ٤٣٨/٥
(٢) الشفا ٩٩/١ والاحياء ١٦٥/٢

ثم وفدت عليه بعد غزوة حُنَيْنٍ ، فلما رآها ، قال : مرحباً بأبى ،
وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، ثم قال : اشفعى تُشَفِّعِى وسلى
تُعْطِى . فقالت : قَوِّى ، فقال : أما حقى وحقى بنى هاشم فهو لك .

فقام الناس من كل ناحية وقالوا : وَحَقُّنا يا رسول الله .

ثم وصلها بعدُ ، وأخدمها ، ووهب لها سهامه بِحُنَيْنٍ ، فاشْتُرِيَتْ بعدُ
من عثمان بن عفان بمائة ألف درهم .

٢ - وكانت له مربية أخرى اسمها ثُوَيْبَةُ كانت أرضعته أياماً
قبل أن يصير إلى حليمة ، فلما كبر وعلم ذلك حفظ لها جميلها . فحمل
السيدة خديجة على أن تعتقها من أبي لهب ، فرفض ، فجعل النبي
يواليها بمعروفه مدة إقامته بمكة ، ولما هاجر إلى المدينة لم يغفل عن
صلتها وكسوتها ، ثم ماتت فسأل عمن بقى من قرابتها ، فقيل لا أحد .
٣ - ولما جرىء بأخته من الرضاع - الشَّيْءاء - في سبايا هَوازِن .
وتعرفت له ، بسط لها رداءه ، وقال : إن أحبيبتِ أقيمتِ عندي مكرمة
مُحَبَّبة ، أو متعتك ورجعت إلى قومك ، فاخترت قومها ، فمَتَّعَهَا .

٤ - وأقبل عليه أبوه من الرضاع ، فوضع له بعض ثوبه ، فقعده
عليه (١) .

٥ - ولم يقتصر على هذا الوفاء للإحياء من قرابة الرضاع ، بل مده إلى
الموتى ، فإنه لما توفى عثمان بن مَظْعُون أخوه من الرضاع - مهاجر أسلم
قديماً وهاجر إلى الحبشة - ثم إلى المدينة - أمر النبي بأن يرش قبره

(١) الشفا ١/٩٩ والاحياء ٢/١٦٥ ، ١٧٥

بالماء ، ووَضَعَ حجراً على القبر ، وقال : أَتَعَلَّمُ بِهِ قَبْرَ أَخِي ، وَأَذْفِنُ إِلَيْهِ
من مات من أهلي (١) .

(٦) بالموعد

كان يعد فلا يخلف مواعده ، ويظن الناس مثله حِراساً على الوفاء
بمواعيدهم .

قال عبد الله بن أبي الحَمَساء العامري : بعث النبي صلى الله عليه وسلم
قبل أن يبعث ، وَبَقِيَتْ من المبيع بقية لم يتسلمها ، فوعده أن آتية بها
في مكان المبيع ، فندسيتُ الوعد ، فذكرته بعد ثلاث (٢) ، فجئته ، فإذا هو
في مكانه لم يفارقه ، فقال لي : يا فتى ، لقد شَقَقْتَ عَلَيَّ ، أنا ها هنا منذ
ثلاث أُنْتَظَرُ (٣) .

(٧) للوطن

أحب مكة أعظم الحب ، لأنها مكان البيت الحرام ، ولأنها مدرج
طنولته ، وملعب ضباه ، ومشرق رسالته ، ومُقام أحبابه ، لكن المشركين
اضطروه إلى الهجرة منها ، فجعل ينظر إليها وهو يفارقها نظرة المشوق
الوفى الذاكر ، فلما كادت تغيب عن بصره ودَّعها بقوله : والله إنك لأحب
البلاد إلى نفسي ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت .

(٨) لصاحب الجميل

كان يحفظ. لصاحب الجميل جميله ، ويكافئه عليه بمثله .
قال محمد بن مسلمة : كنا يوماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) نور اليقين ١٢٨
(٢) يبدو أنها ثلاث ساعات تقريبا ، لأن بقاء النبي في مكانه ينتظر ثلاث ليال غير مقبول
(٣) شرح الزرقاني ٢٧٦/٤ .

فقال لحسان بن ثابت : يا حسان أنشدنا من شعر الجاهلية ما عفا الله لنا فيه .

فأنشده قصيدةً للأعشى هجاها علقمة بن علاثة ، مطلعها :
علقمة ما أنت من عامر الناقص الأوتار والواتر
فقال النبي : يا حسان لا تنشدني مثل هذا بعد اليوم .

قال حسان : يا رسول الله ، تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر ؟
فقال النبي : يا حسان ، أشكر الناس للناس أشكرهم الله ، وإن
قيصر سأل أبا سفيان بن حرب غني ، فتناول مني ، وسأل هذا فأحسن
القول ، فشكره رسول الله على ذلك (١) .

(٩) للحيوان

أقد تقدم في شجاعة الرسول أنه ارتبط بسلاحه ارتباطاً عاطفياً :
فأحبه وأعزه ، حتى لقد أطلق على كل من عُدده الحربية اسماً ، كما تطلق
الأسماء على الأحياء .

وها هو ذا يأمر بالوفاء للحيوان لقاء ما عمل وخدم ، فقد أقبات
ليلي امرأة أبي ذرٍّ على ناقة من إبل رسول الله بعد غزوة ذي قرد ،
فقالت : يا رسول الله إني قد نذرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها ،
فأكل من كبدها وسنامها .

فتبسم رسول الله ثم قال : بئس ما جَزَيْتَهَا أَنْ حَمَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهَا ،
وَنَجَّكَ بِهَا ، ثم تنحرينها ، إنه لا نَذْرَ في معصية الله ، ولا فيما لا تملكين ،
إنما هي ناقة من إبل ، فارجعي إلى أهلِكَ على بركة الله (٢) .

(١) كنز العمال ١٥٢/٢

(٢) سيرة ابن هشام ٢٩٧/٣ وكتاب المغازي ٥٤٨

حُضْه عَلَى الْوَفَاءِ

قال عليه الصلاة والسلام :

- ١ - أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر (١) .
- ٢ - رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى ، وإذا قضى وإذا اقتضى (٢) .
- ٣ - اسبَحْ يَسْمَحَ اللهُ لَكَ (٣) .
- ٤ - من البر أن تصل صديق أبليك (٤) .
- ٥ - من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه من بعده (٥) .
- ٦ - عِدَّةُ الْمُؤْمِنِ دَيْنٌ ، وَعِدَّةُ الْمُؤْمِنِ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ (٦) .
- ٧ - الْعِدَّةُ دِينٌ ، وَيْلٌ لِمَنْ وَعَدْتُمْ أَخْلَفَ ، وَيْلٌ لِمَنْ وَعَدْتُمْ أَخْلَفَ ، وَيْلٌ لِمَنْ وَعَدْتُمْ أَخْلَفَ (٧) .

-
- (١) فتح المبدى ٦٥/١
 - (٢) فتح المبدى ١٨٦/٢
 - (٣) الاحياء ٧٤/٢
 - (٤) الجامع الصغير ٢٣٢/٢
 - (٥) الجامع الصغير ٣٤١/٢
 - (٦) كنز العمال ٧١/٢

الفصل الثامن عشر

الشورى

من خصائص الإسلام، أنه استن الشورى لتبيين الآراء ، وتمحيصها ، والاهتداء إلى خيرها ، وكفل لكل فرد حرية الرأى ما لم تعارض أصلا من أصول العقيدة أو العبادة .:

لهذا أمر القرآن الكريم بالشورى ، وقرنها بالإيمان والاعتماد على الله ، وبالبعد عن الآثام ، وبإقامة الصلاة ، وبالإلفاق فى سبيل الله وفى الجهاد لإعزاز الحق وإعلاء كلمة الله ، قال تعالى : « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمِ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (١) » .

وأمر الله سبحانه رسوله الكريم أن يستشير المساميين ، بعد أن وصفه باللين والرحمة والتواضع وطيب العشرة ، وهى نعم خلقية أنعم الله بها عليه ، وبعد أن نفى عنه الغلظة والقسوة والاستبداد والغلظة . وهى رذائل برأه الله منها ، واو أنه كان على شىء منها لنفر منه المسامون ، وانفضوا من حوله ، فالأمر بالاستشارة فى هذا السياق يدل على أنها موصولة بمكارم الأخلاق ، قال تعالى : « فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ،

(١) سورة الشورى ٣٦-٣٩

ولو كنتَ قَطًّا غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فاعْفُ عَنْهُمْ ، واستَغْفِرْ لهم ، وشاورهم في الأمرِ فإذا عَزَمْتَ فتوَكَّلْ على الله (١) .

ولقد صدع الرسول بأمر ربه ، فكان يستشير أصحابه ، وكانوا هم يستشيرون بعد أن اختاره الله ، ولم يكن لهم من أربٍ إلا تحرى الخير والصوابِ وصالح الأُمة ، حتى إن عمر بن الخطاب احتجز بعض الصحابة في المدينة ، فمنعهم أن يتركوها إلى مكان آخر ، لأنه محتاج إلى استشارتهم .

وكان المسلمون في عهد النبي والخلفاء الراشدين مطمئنين إلى حرية آرائهم ، يستشارون ويشيرون بما يعتقدون أنه الحق ، ولا يحجمون عن إعلان آرائهم وإن خالفت رأى النبي أو أحد خلفائه .

مظاهرها

كان عليه الصلاة والسلام يستشير أصحابه فيما لم ينزل به وحى ، وكان كثيرا ما يعمل بمشورتهم ، ويعدل عن رأيه ، ولهذا قالت السيدة عائشة : ما رأيت رجلا أكثر مشاورة للرجال من رسول الله (٢) .

١ - قبيل موقعة بدر نزل رسول الله عند أدنى ماء من بدر ، فقال الجُبَاب بن المُنْذِر : يا رسول الله ، أهذا منزل أنزلَكَ الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغَوِّر ما وراءه من

(١) سورة آل عمران ١٥٩

(٢) السيرة الحلبية ٣/٣٧٧

من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله : لقد أشرت بالرأى . ونهض رسول الله ومن معه ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالآبار فغُورَتْ ، وبني حوضاً على البئر التي نزل عليها ، فملىء ماء^(١) .

٢- في يوم بدر أسر المسلمون سبعين رجلاً ، فقال رسول الله : ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وهم قومك وأهلك ، أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم ، فيكونوا لنا عضداً .

فقال رسول الله : ما ترى يا بن الخطاب ؟

فقال عمر : يا رسول الله ، كذبوك وأخرجوك ، وهم صناديد الكفار وقادتهم ، فأرى أن تضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله انظر زادياً كثير الحطب ، فادخلهم فيه ، ثم أضرمه عليهم ناراً .

فسكت رسول الله ، ولم يجبههم ، ثم دخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة .

ثم خرج فقال إن الله عز وجل ليُليِّنُ قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليُشدِّدُ قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ

(١) سيرة ابن هشام ٢٧٢/٢ وتاريخ الطبري ١٧٧/٢

منى ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) « ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال :
« إِنْ تَعَذَّبْتُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) »
ومثلك يا عمر مثل نوح ، قال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ
دَيَّارًا (٣) » ومثلك يا بن رواحة كمثل موسى قال : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ،
وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٤) » .

ثم قال رسول الله : أَنْتُمْ الْيَوْمَ عَالَّةٌ ، فَلَا يُفْلِتَنَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِغَدَاءٍ
أَوْ ضَرْبِ عُنُقٍ .

فلما كان الغد أنزل الله عز وجل : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى
حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ، وَاللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ . أَوَلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لِمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٥) »
ثم أحلت لهم الغنائم (٦) .

٣ - لما علم أن قريشاً متجهة إلى المدينة في غزوة أحد ، قال لأصحابه :
امكثوا ، فإن دخل القوم المدينة قاتلناهم ، ورميناهم من فوق البيوت ،
لأنه كان يكره الخروج إلى المشركين لقتالهم في البراح وهم كثرة
والمسلمون قلة ، ويؤثر محاربتهم بالمدينة نفسها حيث تستطيع القلة
أن تبلى البلاء المنشود ، وكان عبد الله بن أبي بن سلول يؤثر هذه الخطة .
ولكن هذا لم يرق المسلمين الذين أسفوا على ما فاتهم من جهاد
في بدر ، وفيهم رجال وشبان يحبون لقاء العدو ، ويشتاقون إلى

-
- (١) سورة ابراهيم ٣٦
(٢) سورة المائدة ١١٨
(٣) سورة نوح ٢٦ ديار : أحد
(٤) سورة يونس ٨٨
(٥) سورة الانفال ٦٧-٦٨
(٦) تاريخ الطبرى ٢/٢٩٤

الاستشهاد ، فقالوا : يا رسول الله ، إننا كنا نتمنى هذا اليوم ، اخرج بنا إلى أعدائنا حتى لا يظنوا بنا جبناً أو ضعفاً .

فقال عبد الله بن أبي : يا رسول الله أقم بالمدينة ، لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط . إلا أصابوا منا ، ولا دخلوها علينا إلا أصبنا منهم ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورمتهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين .

فقال أولئك القوم - وفيهم حمزة وسعد بن عباد والنعمان بن مالك وطائفة من الأنصار - إننا نخشى يا رسول الله أن يظن أعداؤنا أننا كرهنا الخروج إليهم فرقاً منهم فيجترئوا علينا .

حينئذ استجاب رسول الله لرأى الأكثرين ، وعدل عن رأيه ، وخرج لملاقاة قريش (١) .

٤ - في غزوة الأحزاب اجتمعت قريش ومن والاهما من العرب واليهود ، وعسكروا حول المدينة بضعاً وعشرين ليلة ، ونقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله ، فعظم البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن بعض المسلمين كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، فأراد رسول الله أن يصالح قائدي غطفان عيينة بن حصن والحارث بن عوف المُرّي ، على أن يرجعا عن المدينة ولهما ثلث ثمار المدينة ، فبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد فاستشارهما فيما أراد ، فقالا : يا رسول الله أهذا أمرٌ تحبه فنصنعه ، أم شيءٌ أمرك الله به لا بد لنا من أن نعلمه ، أم شيءٌ تصنعه لنا ؟

(١) شرح الزرقاني ٢٢/٢

قال رسول الله : بل أصنعه لكم ، إن رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبؤكم من كل جانب ، فأردت أن أكثير عنكم شوكتهم .

فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله عز وجل ، وعبادة الأوثان ، ولا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا بيعاً أو قرى ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فقال رسول الله : فانت وذاك (١) .

ثم شاء الله أن يرتد المغيرون مذعورين مختلفين ، وأن تسلم المدينة .

حضره على الشورى

لم يكتف الرسول بتقدير الشورى وتدريب المسلمين عليها بأعماله ، بل أضاف إلى هذا كثيراً من تحبيبها إليهم ، وحثهم عليها بأقواله ، مثل قوله :

- ١ - استرشدوا العاقل ترشدوا ، ولا تعصوه فتندموا (٢) .
- ٢ - المستشار مرقن إذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسه (٣) .
- ٣ - من أراد أمراً فشاور فيه امرأ مسلماً وفقه الله لأرشد أموره (٤) .
- ٤ - من أشار على أخيه بشئ يعلم أن الرشد في غيره فقد خانته (٥) .
- ٥ - لن يهلك امرؤ بعد مشورة (٦) .

(١) تاريخ الطبرى ٤٨/٣
(٢) إلى (٥) كنز العمال ٨٤/٢
(٦) البيان والتبيين ٢٠/٢

الفصل التاسع عشر

طيب العشرة

النبي صبور وحليم ، ورحيم وعفو وكريم ، وصادق وعفيف وأمين ، وزاهد ومتواضع والمثل الأعلى في كل خلق عظيم .

فهل طيب العشرة إلا من ثمرات هذه الدوحة ؟ هل حلاوة المخالطة والصحبة إلا جوهرة من هذا المنجم الكريم ؟

لقد أحب المسلمون النبي حباً سما على حبهم لأنفسهم وأبنائهم وأموالهم ، لأنه رسول الهداية ، وصاحب الشريعة ، ولأنه كان يمتلك قلوبهم بطيب عشرته ، ودماثة صحبته ، وحلاوة رفقته ، وظرف معاملته ، فيشعرون أنه على رفعة قدره وعلاء مكانته واحد منهم ، لكنهم يأوون إلى ظل منة لا نظير له في سواه .

وقد امتد هذا الظل الوريث فأتسع الأحرار والأرقاء ، وللرجال والنساء ، وللأقارب والبعداء ، وللكبار والأطفال ، وفي المجتمعات والخلوات .

مظاهرها

(١) مع زوجاته

١ - كان يسابق السيدة عائشة في العدو ، فسبقته يوماً ، وسبقها يوماً ، فقال لها : هذه بتلك (١) .

(١) الاحياء ٤٠/٢ ، ١١٢/٣

٢ - قالت السيدة عائشة : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم ، وهم يلعبون في يوم عاشوراء ، فقال رسول الله : أتحبين أن تَرَيَ لعبهم ؟ فقلت : نعم . فأرسل إليهم فجاءوا إلى المسجد ، وقام رسول الله بين البابين ، فوضع كفه على الباب ، ومد يده ، ووضعتُ ذقني على يده ، وجعلوا يلعبون وأنظر ، ثم قال : يا عائشة حسْبُك ؟ فقلت : نعم ، فأشار إليهم فانصرفوا .

وذكرتُ أنَّ النبي كان يسترها بردائه وهي تنظر إلى ألعاب الحبشة بحراهم في المسجد ، فلما زجرهم عمر قال النبي : دعهم ، أمَّا بَنِي أَرْفَدَةَ (١) .

٣ - روى البخاري ومسلم أنَّ أبا بكر دخل على عائشة وعندها جاريستان تُدْفَنان وتضربان (٢) ، والنبي مُتَغَشٍّ بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف النبي عن وجهه ، وقال : دعهما يا أبا بكر ، فإنها أيام عيد .

٤ - كانت أزواجه يراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل ، وكان يقول للسيدة عائشة : إني لأعرف غضبك من رضاك ، قالت : وكيف تعرفه ؟ قال : إذا رَضِيتِ قلت : لا وإله محمد ، وإذا غَضِبْتِ قلت : لا وإله إبراهيم ، قالت : صدقت ، إنما أهجر اسمك (٣) .

٥ - كان يَعْدِلُ بين زوجاته في العطاء والبيت ، ويقول : اللهم هذا جهدي فيما أملك ، ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك ، يعني الحب (٤) .

(١) فتح المبدى ٢٠٧/١ ، ٣٠٦ والاحياء ٤٠/٢ ارفدة اجد الحبشة الاكبر
(٢) تدفنان : تضربان على الدف
(٣) الاحياء ٤٠/٢
(٤) الاحياء ٤٥/٢

٦ - كثيراً ما أوصى بالنساء خيراً ، وبَيَّن أنه لا غضاضة ولا ضَبْر في أن يداعب الرجل زوجته ، فقال : اللهو في ثلاث : تأديب فرسك ، ورميك عن قوسك ، وملاعبتك أهلك (١) ، ونهى عن ضربهن ، فقليل له : يا رسول الله إنهن قد فسدن ، فقال : اضربوهن ، ولا يضرب إلا شراركم (٢) .

لقد كان عليه الصلاة والسلام أنبل زوج معاملة ، وأطيب زوج عشرة ، وحسبنا قوله : خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي (٣) .

(٢) مع صحابته

لم تسعد أزواج النبي وحدهن بإيناسه وظرفه وطيب عشرته ، بل سعد بها صحابته أيضاً أيما سعادة :

١ - ما أَسْرَّ أحد إلى النبي خبراً ، فنَحَّى النبي رأسه ، حتى يكون الرجل هو الذي يُنَحِّي رأسه .

وما أخذ أحد بيده حتى يرسلها الآخر .

وإذا استقبل الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع .

وإذا لقي الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون الرجل هو المنصرف .

وكان لا يقطع على أحد حديثه ، حتى يتجاوز فيقطعه بنهي أو قيام .

(١) كنز العمال ٣٣١/٧ ، ميون الاخبار ٨١/٤

(٢) الطبقات الكبرى ١٤٧/٨

(٣) كنز العمال ٢٥٨/٨

وكان يبدأ من لقيه بالسلام .
 وإذا لقي أحدا من أصحابه بدأ بالمصافحة ، ثم أخذ بيده فشابهه ،
 ثم شد فقبض عليها (١) .

٢ - كان يكنى أصحابه بكناهم إكراماً لهم ، وإدخالاً للسرور
 على نفوسهم ، ويكنى من لم تكن له كنية فتصير كنية له ، فقد كنى
 عبد الله بن مسعود بابي عبد الرحمن مع أنه لا ولد له ، وكنى أنس بن
 مالك ببقله ، وكنى صُهَيْب بن مالك بابي يحيى ، وكنى أبا بكرة
 بهذه الكنية لأنه تولى من الطائف ببكرة .

وكان يكنى النساء اللاتي لهن أولاد ، ويبتدئ الكنى للاتي لم يلدن ،
 مثل تكنيته للسيدة عائشة بأُم عبد الله (٢) ، وتكنيته أُم خالد وكانت
 صغيرة .

وكان يكنى الصبيان ، كقوله لأخي أنس بن مالك يا أبا عُمَيْر (٣) .
 ٣ - وكان يعطى من جلس إليه نصيبه من وجهه ، فلا يحسب
 جلسه أن أحدا أكرم عليه منه .

٤ - وإذا قدم عليه أحد وهو يصلى خفف صلاته ، وأقبل عليه
 فقال : ألك حاجة ؟ فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته (٤) .

٥ - وكان يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، وآثره
 بالوسادة التي تحته ، ليجلس عليها ، فإن أبي أن يقبلها عزم عليه حتى
 يقبل .

(١) الاحياء ٢/٢٢٢
 (٢) يقصد عبد الله بن الزبير ابن اختها أسماء
 (٣) الاحياء ٢/٢٢٣
 (٤) الاحياء ٢/٢٢٢

جاء جرير بن عبد الله البجلي إلى مجلس الرسول وهو مكتظ ، فلم يجد مكاناً ، ففقد على الباب ، فلف رسول الله رداءه ، فالتقاه إليه ، وقال له : اجلس على هذا .

فأخذه جرير ووضع على وجهه وجعل يقبله ويبكي ، ثم رده إلى النبي وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتني .
فنظر النبي يميناً وشمالاً وقال : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه^(١) .
٦ - كان يجلس مع أصحابه فلا يمدُّ رجله .

٧ - وكان يوجه نصحه لهم في رفق ، ولا يشافه أحداً بما يكره ، دخل عليه رجل تبدو صفرة الزعفران على جسمه ، فكرهها النبي ، ولكنه لم يقل شيئاً ، فلما خرج الرجل قال النبي لبعض جلسائه : لو قلتم له يدع هذه الصفرة^(٢) .

٨ - بال أعرابي في المسجد والنبي حاضر ، فسارع بعض الصحابة إلى منعه ، فقال النبي : لا تزرؤوه^(٣) ، وهريقوا على بوله سَجَلًا من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين لا مُعسرين . ثم قال : إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلأ^(٤) .

٩ - أتى بقدح فشرب منه ، وعن يمينه غلام والأشياخ عن يساره ، فقال : يا غلام ، أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ ؟ قال الغلام : ما كنت لأؤثر أحداً بفضل سواك يا رسول الله ، فأعطاه القدح .

(١) الاحياء ١٧٥/٢

(٢) الواهب اللدنية ٢٠٢

(٣) لا تزرؤوه : لا تقطعوا بوله

(٤) فتح البدي ١٤٨/١ والاحياء ٢٣٦/٢

١٠ - قال رجل من الأنصار لغلّام له قَصَّاب : اجعل لى طعاماً يكفى خمسة ، فإنى أريد أن أدعو النّبي خمس خمسة . فدعاهم ، فجاء معهم رجل ، فقال النّبي : إن هذا قد تبعنا ، فإن شئت أن تأذن له فأذن له ، وإن شئت أن يرجع رجع .

فقال الأنصارى : لا ، بل قد أذنت له (١) .

١١ - دخل غَيْضَةٌ مع بعض أصحابه ، فاجتنى منها سِوَاكَيْن ، أحدهما مُعَوَّجٌ والآخر مستقيم ، فدفع المستقيم إلى صاحبه ، فقال له الرجل : يا رسول الله ، كنت أحق بالمستقيم منى .

فقال الرسول : ما من صاحب يَصْحَبُ صاحباً وَاوٍ ساعة من نهار إلا سئل عن صحبته هل أقام فيها حق الله أم أضاعه (٢) .

١٢ - كان يقول لأصحابه : لا يُبَلِّغْنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر (٣) .

١٣ - كان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه ، فإن كان غائباً دعا له ، وإن كان شاهداً زاره ، وإن كان مريضاً عاده (٤) .

(٣) مع الخدم والأرقاء

لم يكن النّبي ليختص بطيب عشرته أزواجه وصحابته ، أو ليقصرها على الأحرار من رجال ونساء ، لأن النّبع العذب الذى يسقى هؤلاء هو الذى يسقى هؤلاء ، فلا طبقية ولا محاباة ولا مجاملة لأحساب .

(١) اللؤلؤ والمرجان ٢٤/٣

(٢) الاحياء ١٥٤/٢

(٣) الاحياء ٢٣٦/٢

(٤) تيسير الوصول ٣٠/٤

١ - فقد كان زيد بن حارثة مولى للنبي قبل البعثة ، ثم ظهر أبوه بعد طول غياب ، فأراد أن يسترده من النبي ، فرفض زيد أن يعود مع أبيه ، وآثر أن يبقى مملوكاً لرسول الله ، على أن يصير حراً ، يُعَلَى مكانته ، ويرضى أباه .

وإن هذا الإيثار ليدل على أنه كان أسير العشرة الأبوية ، والعطف الكريم ، والحب الرحيم ، وإلا لفرح زيد فرحتين : إحداهما العودة مع أبيه ، والأخرى خلاصه من الاسترقاق .

ولم يكن زيد يتوقع ما فاجأ به النبي ، فإنه كافاً هذا الإيثار بما يستحقه ، فأعتق موله .

ثم زاده تكريماً فزوجه من زينب بنت جحش ، وهى بنت عمّة رسول الله ، ومن عقائل قريش أصحاب النُّعْرة وذوى السيادة والجاه .

ثم بعته قائداً للجيش الذى وجهه إلى مؤتة ، وقال : إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، وإن أُصيب جعفر فعبد الله ابن رَوَاحَة على الناس .

وكان فى الجيش خالد بن الوليد ، خرج متطوعاً ليدل ببلائه على حسن إسلامه .

فانظر إلى جيش فيه خالد وجعفر وابن رَوَاحَة يرأسه عتيق . فلما قتل زيد فى الغزوة ، أعد النبي جيشاً آخر ليتجه إلى الشام وولى عليه أسامة بن زيد وهو فى نحو العشرين ، وكان فى الجيش سيدان من سادة المسلمين هما أبو بكر وعمر .

٢ - وقد سنَّ أروع أدب فى معاملة الأرقاء فى عهد الطبقية والاعتزاز

بالأنساب ، فقال : لا يقولنَّ أحدكم عبيدى ولا أمتى ، كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، وليقل غلامى وجارىتى وفتاتى .

وفى الوصية نفسها أشعر الأرقاء بأنهم عبيد الله ، لا عبيد الناس ، فقال : ولا يقول المملوك ربى ولا ربى ، وليقل سيدى وسيدتى ، فكلكم عبيد الله ، والربُّ الله سبحانه وتعالى (١) .

٣ - وكثيرا ما أوصى بالأرقاء ، كقوله فى خطبة الوداع أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، فإنَّ الله قد ملَّكم إياهم ، ولو شاءَ ملَّكمهم إياكم .

٤ - أرسل وصيفة فى أداء عمل ، فأبطأت عليه ، فقال لها : لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السؤال .

٥ - قال أنس بن مالك إنَّ النبی أرسلنى فى حاجة ، فتشاغلت بصبيان يلعبون فى السوق ، وإذا رسول الله قد قبض ثيابى من ورائى ، فنظرت إليه وهو يضحك ، فقال : يا أنیس اذهب حيث أمرتك .

٦ - قال أنس بن مالك : خدمت النبی صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى أف قط . ولا قال لشيء صنعتُه : لم صنعتُه ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ ولا أمرنى بأمر فتوانيت فيه فعاتبنى عليه ، فإنَّ عاتبنى أحد من أهله قال دعوه ، فلو قدَّرَ شيء كان (٢) .

٧ - كان عتبة بن عامر الجهني صاحب بغلة رسول الله يقودها به فى الأسفار ، وقد روى أنَّ الرسول كان ينزل عن دابته ويُرْكبه إياها .

٨ - وقد سبقت فى رحمته ألوان من طيب عشرته .

(١) الاحياء ١٤١/٢
(٢) الاحياء وعامته ٣٢١/٢

(٤) في شئون شتى

استنَّ في شئون شتى من آداب العشرة ما يتفق وأعلى مكارم الأخلاق .

١ - كان إذا جلس إلى طعام يأكل مما يليه (١) .

وإذا أكل الخبز واللحم غسل يديه غسلًا جيدًا .

ولا يتنفس في الإناء ، بل ينحرف عنه ، ونهى من يشرب أن يتنفس في الإناء . فإذا أراد أن يتنفس فليؤخر الإناء عنه ثم يتنفس (٢) .

ولم يأكل الثوم والبصل والكراث ، لأنه ينجس جبريل .

وما ذم طعاماً قط ، فإذا أعجبه أكله ، وإن لم يعجبه تركه ، ولكنه لا يبغضه إلى غيره . فقد كان يعاف الضبَّ والطَّحال ولا يحرمهما ، وعلل امتناعه عن أكل الضب بأنه ليس من أرض قومه ولا من طعامهم (٣) .

٢ - وإذا عطس غصص صوته ، واستتر بثوبه أو بيده ، أو غطي وجهه وقمه (٤) .

٣ - وإذا كره من إنسان شيئاً قال : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ؟

٤ - قال عمران بن حصين : كانت لي من رسول الله منزلة وجاه ، فقال لي : يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاهاً . فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ؟ قلت : نعم بآبائي أنت وأمي يا رسول الله ، فقام فقمتم معه حتى وقف بباب فاطمة ، ففرع الباب ، وقال : السلام

(١) الاحياء ٢/٢٢٧

(٢) الاحياء ٢/٢٢٠

(٣) الاحياء ٢/٢٢٩

(٤) السيرة الحلبية ٣/٣٧٧ والاحياء ٢/١٨٣

عليكم ، أأدخل ؟ فقالت : ادخل يا رسول الله . قال : أنا ومن معي ؟
قالت : ومن معك يا رسول الله (١) .

٥ - ولم يكتف بالأدب الرفيع يأخذ به نفسه ، بل أوصى
الآخرين ، وأرشدهم إلى المجاملة اللطيفة ، فقد ورد عن ابن عمر
أن رسول الله قال : إذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع
المائدة ، ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم ، وليتعبل فإن
الرجل يُخجل جليسه فيقبض يده ، وعسى أن تكون له في الطعام حاجة (٢)

حضه على طيب العشرة

كثيرا ما حض النبي على طيب المعاشرة وحسن المخالطة ، كقوله :
١ - كل معروف صدقة ، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه
طلق ، وأن تفرغ من دلوك في إنائه (٣) .

٢ - من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره . ومن كان
يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم
الآخر فليقل خيرا أو ليصمت (٤) .

٣ - ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه (٥) .

٤ - لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٦) .

٥ - إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم (٧) .

(١) الاحياء ١٧١/٤

(٢) هامش الاحياء ٢٧٢/٣

(٣) المنتخب من السنة ٢٩٧/٧ من مسند أحمد وسنن الترمذى .

و (٥) فتح المبدى ٣٠٤/٢

(٦) فتح المبدى ٥٠/١

(٧) فتح المبدى ٢٣٧/٢ وتيسير الوصول ٢٣٣/١

٦ - إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل : فلا يحل لأحدهما أن يغشى على أخيه ما يكرهه^(١) .

٧ - لا يحل لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه^(٢) .

٨ - إن أحدكم مرآة أخيه ، فإذا رأى فيه شيئاً فليُعطه عنه^(٣) .

٩ - من جادل في خصومه بغير علم لم يزل في سخط. الله حتى ينزع^(٤) .

١٠ - من ترك المراء وهو محق بُنى له بيت في أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بُنى له بيت في رِبط الجنة^(٥) .

وقد جعل ثواب المبطل التارك للمراء أقل من ثواب المحق ، لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل وإنما الأجر على قدر الجهد . والمارة مثيرة للحقد بين الإخوان ، وسبب للتدابير والتقاطع ، لأن الذي يرد على غيره كلامه بهذه الصورة ينسبه إلى الجهل والحمق أو إلى الغفلة .

١١ - الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم ، فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ، وأما الذي له حقان فالجار المسلم ، له حق الجوار وحق الإسلام ، وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك^(٦) .

١٢ - أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً^(٧) .

(١) و (٢) الاحياء ٦٠/٣

(٣) الاحياء ١٨٥/٢

(٤) الاحياء ١٠٢/٢

(٥) تيسير الوصول ٢٣٢/١ والاحياء ٢٠٠/٣ ربض الجنة مثبته برِبط المدينة وهو ماحولها من العمارة

(٦) و (٧) الاحياء ١٨٨/٢

١٣ - قال أبو أمامة الباهلي : خرج علينا رسول الله ونحن نتمارى .
فغضب وقال : ذروا المراء لقلّة خيره ، ذروا المراء فإن نفعه قليل ، فإنه
يَهيجُ العداوة بين الإخوان (١) .

١٤ - أتدرون ما حقُّ الجار ؟ إن استعان بك أعنته . وإن استنصرك
نصرتَه ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض
عدته ، وإن مات تبعته جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته
مصيبة عزيتَه ، ولا تَسْتَعْلِ عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه :
ولا تؤذَه ، وإن اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ،
ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده . ولا تؤذِه بِقُتَارٍ قَدْرِكَ إلا أن تغرف
له منها (٢) .

١٥ - إن قوماً ركبوا سفينة في البحر ، فافتسموا ، فصار لكل
رجل موضع ، فنقر رجل موضعه بفأس . فقالوا : ما تصنع ؟ قال :
هو مكاني أصنع ما شئت . فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا ، وإن تركوه
هلك وهلكوا (٣) .

١٦ - المرء كثير بأخيه (٤) .

١٧ - لا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له (٥) .

١٨ - من ذَبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقاً على الله
أن يُحرّمَ لحمه على النار (٦) .

-
- (١) كنز العمال ١٣١/٢ والاحياء ١٥٨/٢
(٢) الاحياء ١٩٠/٢ قتار القدر : رائحة طعامها
(٣) البيان والتبيين ٢٥/٢
(٤) البيان والتبيين ١٩/٢
(٥) البيان والتبيين ١٩/٢
(٦) البيان والتبيين ٣٨/٢

- ١٩ - لا يستر عبد عبد في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة (١) .
- ٢٠ - أوصى بالنساء خيراً في حجة الوداع فقال : استوصوا بالنساء ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمة الله (٢) .
- ٢١ - شكت إليه امرأة أن زوجها قد ضربها ضرباً شديداً ، فقام فأنكر ذلك ، وقال : يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ، ثم يظل يعانقها ولا يستحي (٣) .
- ٢٢ - أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً ، وألطفهم بأهله (٤) .
- ٢٣ - خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي (٥) .
- ٢٤ - ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ فقالوا : بلى يا رسول الله قال : أفشوا السلام . وصلوا الأرحام (٦) .
- ٢٥ - إن الله يحب السهل الطلق الوجه (٧) .
- ٢٦ - اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة (٨) .
- ٢٧ - ذبح أهل عبد الله بن عمرو بن العاص شاة ، فقال لهم : أهديتم لجارنا اليهودي ؟ قالوا : لا ، قال : ابعثوا إليه منها ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

(١) كنز العمال ٥٢/٢
(٢) تيسير الوصول ٢٦٥/٢ والمغازي للواقدي ٢٣٤
(٣) كنز العمال ٢٦٠/٨
(٤) و (٥) الاحياء ٤١/٢
(٦) البيان والتبيين ٢٢/٢
(٧) و (٨) الاحياء ١٧٤/٢ ، ١٠٣/٢

٢٨ - من المروعة أن ينصت الأخ لأخيه إذا حدثه ، ومن حسن المعاشاة أن يقف الأخ لأخيه إذا انقطع شئ نعله (١) .

٢٩ - إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس ، فإن ذلك يحزنه (٢) .

٣٠ - ثلاث تُصفيين لك ود أخيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتودع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه (٣) .

٣١ - لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاث ، فإن مرت ثلاث فليأته فليسلم عليه ، فإن رد السلام فقد اشتركا في الأجر ، وإن لم يرد عليه فقد باء بالاثم (٤)

٣٢ - من الجفاء أن يدخل الرجل منزل أخيه فيقدم إليه شيئاً فلا يأكله . والرجل يصحب الرجل في الطريق فلا يسأله عن اسمه واسم أبيه (٥) .

٣٣ - سئل رسول الله : أى النساء خير؟ قال : التى تسره إذا نظر إليها ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره (٦) .

٣٤ - إن العبد إذا نصح لسيدته وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين (٧) .

(١) الجامع الصغير ٣٣٣/٢

(٢) كنز العمال ٧/٥

(٣) و(٤) كنز العمال ٨/٥

(٥) كنز العمال ٩/٥

(٦) تيسير الوصول ٢٥٤/٢

(٧) كنز العمال ٢١/٥

الفصل العشرون

حُبُّ الْعَمَلِ

الإسلام عقيدة وشريعة وعمل ، والعمل يشمل العبادات والطاعات والنشاط المبذول في كسب الرزق وفي تنمية الإنتاج والخيرات .

لهذا أمر الله عباده بالسعى في مناكب الأرض ابتغاء فضله : قال تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(١) » .

وذلك أن الإسلام لا يريد أتباعه كسالى متواكلين . ينظرون إلى العمل نظرهم إلى الشقاء والنقمة . ويغفلون عما فيه من خير وسعادة ونعمة ، بل يربيههم على العمل وتقديره على أنه واجب الإنسان في الحياة . وحق للحياة عليه ، فهو يأخذ من الحياة ودين المجتمع ويرقى . فعليه أن يعطى لقاء ما أخذ ، ليسهم في ترقية الحياة وفي خير المجتمع .

الإسلام يحض على العمل ، لأنه تدريب على الصبر والمثابرة والمهارة والأمانة والطاعة وإعمال الفكر وتقوية الجسم وترقية الأفراد والجماعات وتقوية الأمة ، ولولا العمل المتقن لتوقف سير الإنسانية إلى مثلها العالية . وما كانت الحضارة التي صعد البشر درجاتها .

(١) سورة الجمعة ١٠

والإسلام يبغض البطالة والكسل والخمول ، لأنها موت بطيء
يتقضى على جميع القوى ، ويغرى بكثير من المفسد والشرور .

فالتاريخ يحدثنا أن الرومان حينما ركنوا إلى الراحة ، وفشا بينهم
استخدام الأرقاء في القيام بأعمالهم صار العمل في نظرهم حقيرا
منافيا للشرف ، وصار الخمول والرفاهية ديدن الطبقات الحاكمة ،
فانحدروا إلى الضعف والدمار .

وقد ذهب (برتون) إلى أن الخمول موت زؤام ، وسم زعاف للجسم
والعقل ، وإذا كان الخامل من الكلاب يصاب بالحصص^(١) فما بالنا
بالخامل من الرجال ؟ إن خمول العقل شر من خمول الجسم ، والفطنة
بلا عمل مرض عُضال ، وصدأ للروح ، وكما تكثر الديدان والقاذورات
في الغدير الراكد ، تنمو الأفكار السيئة الفاسدة في المرء الخامل ، فتدنس
روحه فيصير قلق البال ، ضعيف الجثا ، ناقما على العالم ، مهما يكن
شراؤه وحظه ووسائل نعيمه^(٢) .

مظاهره

لم يكتف الرسول بالإرشاد والنصح ، لأن النصائح في حاجة إلى
قدوة ، بل نصح وكافح ونافح ، وقال وعمل بما قال ، فكان أعظم مثل
يُحتذى .

١ - كان في صغره وفي شبابه يرعى الغنم ، فقد رعاها في بني
سعد مع أخيه من الرضاعة . ثم رعاها بمكة لأهل مكة على نصيب

(١) الحصان : الجرب ، والحصص : تساقط الشعر
(٢) الاخلاق ٢/١٤١-١٤٣ صمويل سميتو

معين ، وكان يقضى بها زماناً خارج مكة ، ولهذا قال : ما من نبي إلا وقد رعى الغنم ، ف قيل له : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا (١) .

٢ - ثم مارس التجارة قبل النبوة ، إذ كانت السيدة خديجة بنت خويلد تاجرة ذات شرف ومال . تستأجر الرجال في مالها ، لقاء شيء تجعله لهم ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته . وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فتقبل رسول الله ، وخرج في مالها ومعه ميسرة حتى قدم الشام (٢) ، وكان ذلك قبل البعثة .

٣ - حينما تألبت قريش ومن انضم إليها من قبائل العرب واليهود وساروا إلى المدينة ، أمر رسول الله بحفر الخندق . وعمل فيه بنفسه وكان يضرب بالمعول وينقل التراب وقد دارى بياض بطنه ، وكان المسلمون يرتجزون وهم يعملون برجل من المسلمين يقال له جُعيل ، فسماه رسول الله عمراً ، فقالوا :

سماء من بعد جُعيل عمراً وكان للبائس يوماً ظهراً
فإذا مروا بعمره قال رسول الله عمراً ، وإذا قالوا ظهراً قال رسول الله
ظهراً .

وكان رسول الله يقول :

لاهم لولا أنت ما اهتدينا

(١) سيرة ابن هشام ١٧٦/١ وفتح المبدى ٢٠٠/٢
(٢) سيرة ابن هشام ١٩٩/١

ولا تصدقنا ولا صلينَا
فأنزلنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
ووثبتْ الأَقْدَامَ إِن لَّا قَيْنَا
إِن الأُلَى قَد بَغَوْا عَلَيْنَا
إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا (١)

٤ - ولم يأنف من أن يعمل بيده مع عبد ايعينه على التحرر .

جاء في حديث سلمان الفارسي عن تحرره من رق سيده اليهودي :
قال لي رسول الله : كاتب يا سلمان فكاتبني صاحبي على ثلاث مائة نخلة
أحييها له بالحنزرو الغرس وأربعين أوقية فقال رسول الله لأصحابه أعينوا
أخاكم فأعانوني بالنخل ، حتى اجتمعت لي ثلاث مئة ودية (٢) . فقال لي
رسول الله : اذهب يا سلمان فاحفر لها . فإذا فرغت جثته فأخبرته فخرج
معي إليها ، فجعلنا نقرب إليه الودي ويضعه بيده حتى فرغنا .

فأديت النخل وبقى على المال ، فأتي رسول الله بمثل بيضة الدجاجة من
الذهب فقال : ما فعل الفارسي المكاتب فدُعيتُ له ، فقال : خذ هذه فأدّها
مما عليك يا سلمان فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم
منها ، وتحررت فشهدت مع رسول الله الخندق حرا ثم لم يفتني معه مشهد (٣) .

٥ - وقد سبق في تواضعه وفي طيب عشرته أنه كان يعلّف البعير ،
ويَعْقِلُهُ ، وَيَقْمُ البيت ، ويحلب الشاة ، وَيَخْصِف النعل ، وَيُرْقِع

(١) فتح البدي ٣٠٢/٢ وتاريخ الطبري ٤٤/٣

(٢) الودية : فرخة النخلة الصغيرة

(٣) سيرة ابن هشام ٢٣٤/١

الثوب ، ويساعد خادمه في طحن الحب ، ويحمل الشيء الذي يشتريه من السوق.

٦ - أتى رجل من الأنصار يسأل رسول الله فقال له الرسول : أما في بيتك شيء؟ قال : بلى جلس نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء .

قال رسول الله : اتنى بهما ، فاتاه بهما ، فأخذهما بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . فقال رسول الله : من يزيد على درهم ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الرجل ، وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إليّ أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به ، فاتاه به ، فشد فيه رسول الله عودا بيده ، ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يوماً .

ف فعل الرجل ، ثم جاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشتري ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً ، فقال له الرسول : هذا خير لك من أن تجيء المسألة نُكتة في وجهك يوم القيامة ، إن المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مُدقع ، أو لذي غُرم مُفْظع ، أو لذي دم موجع (١) .

حُضه على العمل

قال عليه الصلاة والسلام :

١ - ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده (٢) .

(١) تيسير الوصول ١٧٨/٣

(٢) فتح المبدى ١٧٥/٢

- ٢ - إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه (١) .
- ٣ - من سألنا أعطيناه ، ومن استغنى أغناه الله ، ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا (٢) .
- ٤ - لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه (٣) .
- ٥ - ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة (٤) .
- ٦ - أتى رجلان إلى النبي فسألا من الصدقة ، فقلَّب فيهما البصر ، ورآهما جلدتين ، فقال : إن شئتما أعطيتكما ، ولا حظَّ فيها لغني ولا لقوى مكتسب .
- أراد أننى أعطيتكما إن شئتما ، وأكل الأمر إلى ما تعلمانه من حالكما . فعليكما إثم الأخذ إن أخذتما وأنتما غنيان أو قادران على العمل .
- ٧ - خيركم من لم يلع آخرفته لديناه ولا دنياه لاخرته (٥) .
- ٨ - الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، وكالقائم الذى لا يفتتر . وكالصائم الذى لا يفطر .
- ٩ - أثنى على رجل فى مجلس رسول الله ف قيل : كنا إذا ركبنا

(١) و (٢) الاحياء ١٨٢/٤ ، ١٨٤

(٣) فتح المبدى ٧/٢

(٤) فتح المبدى ٢١٤/٢ ومسنند أحمد وصحيح مسلم

(٥) كنز العمال ١٥٠/٢

لا يزال يذكر الله تعالى حتى ننزل . وإذا نزلنا لا يزال يصلي حتى ترفع . فقال الرسول : فمن كان يكفيه علف بغيره وإصلاح طعامه ؟ قالوا : كلنا ، فقال : كلكم خير منه .

١٠ - إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها (١) .

١١ - خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح (٢) .

١٢ - إن أطيّب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكلبوا ، وإذا أؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يلموا ، وإذا باعوا لم يظفروا ، وإذا كان عليهم لم يمتطوا . وإذا كان لهم لم يعسروا (٣) .

١٣ - إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه (٤) .

(١) . الجامع الصغير ٢٦٦/١
الفسيلة : النحلة الصغيرة تقطع من اللم أو تقلع من الأرض تنفوس
(٢) . الجامع الصغير ٢٩٦/١
(٣) . الجامع الصغير ٢٢٠/١
(٤) . الجامع الصغير ١٨٧/١

الفصل الحادى والعشرون

البشر والفكاهة

هل كان من اللائق بالرسول أن يكون عابس الوجه . مُقَطَّبَ الجبين ،
مكفَهَرًا المظهر ؟

إن الضحك نزعة غريزية لها قيمة عظيمة فى حياة الفرد وحياة
المجموع ، وكان العرب يحبون الضحك ، وَيَهْشُونَ للضحكين ، فسموا
أبناءهم بالضحاك وببسام وبطلق وبطلق وببشير وببشير وبجذلان
وبفرحان .

وكانوا يمدحون الرجل بأنه ضحك السن ، بِسَامَ العَشِيَّاتِ
هَشَّ إلى الضيوف ، ويدمونه بأنه عبوس وكالـح وقَطُوب^(١) وإذا
كانت جهامة الوجه قبيحة فهي أقبح من الرائد الذى يدعو الناس
إلى دين جديد .

وإذا كان البشر حميدا فهو أحمد من رسول الله الذى نشأ على الأخلاق
الكريمة ، ورباه الله أسمى تربية ، وعلمه أحسن تعليم .

كان رسول الله سمح النفس ، طاهر القلب ، عظيم الصبر ،
راسخ الحلم ، كثير العفو ، بَيِّن الزهد ، جَمَّ التواضع ، موصول

(١) راجع الفكاهة فى الأدب ١٢-٣٤ تحمد الحوق
بسام العشيَّات : كناية عن ترحيبه بضيوفه اذا جاءوا اليه وقت العشي .
كالـح : عابس مكثر . قطوب : زاو ما بين عينيه .

الرحمة ، حلو السمائل كلها ، فلا عجب أن كان يتفكه حيناً ،
ويطرب للنكامة أحياناً ، لأنه كما جاء في وصف السيدة عائشة له :
ما خيّر بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثماً ، فإن كان
إثماً كان أبعد الناس عنه (١) .

ذكر على بن أبي طالب أن رسول الله كان دائم البشر ، سهل الخلق
وكان أكثر الناس ابتساماً في وجوه أصحابه . وتعجباً لما تحدثوا به ،
ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه (٢) وذكر غيره أن النبي كان أضحك
الناس وأطيبهم نفساً (٣) .

وإذا كان بعض الصحابة قد وصفوا ضحك النبي بأنه تبسم .
فإن آخرين قالوا إنه كان يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه (٤) ، ولكنه
إذا جرى به الضحك وضع يده على فيه (٥) .

وقد وصفته السيدة عائشة بأنه إذا خلا في بيته كان ألين الناس
بسماً ضحاكاً .

وهذا حق ، لكن بشره وضحكه لم يكن في بيته وبين أهله فحسب .
بل كان أيضاً في غير بيته وفي غير أهله .

ولهذا روى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بَعْدَ
سَاعَةٍ ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا كَلَّتْ عَمِيَتْ ، وقوله : لا خير فيمن لا يُطْرَبَ
ولا يُطْرَب (٦) .

(١) فتح المبدى ٦٠/٣

(٢) الاحياء ٣٢٥/٢

(٣) كنز العمال ٢٧/٤

(٤) المواهب اللدنية ١٣٥ .

(٥) كنز العمال ٢٧/٤

(٦) نهاية الارب ١/٤ والعقد الفريد ٣٢٦/٣

قال حنظلة : كنا عند رسول الله فوعظنا موعظة رَقَّتْ لها القلوب :
 وَذَرَفَتْ منها العيون ، وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلي فدنيت مني المرأة ،
 وجرى بيننا من حديث الدنيا ، فنسيْتُ ما كنا عليه عند رسول الله ،
 وأخذنا في الدنيا ، ثم تذكرت ما كنا فيه ، فقلت في نفسي
 قد نافقت حيث تَحَوَّلَ عني ما كنتُ فيه من الخوف والرقّة :
 فخرجتُ وجعلتُ أُنَادِي : نافقَ حنظلة ... فدخلت على رسول الله
 وأنا أقول نافق حنظلة ، فقال رسول الله كلاً لم ينافق حنظلة .
 فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وَجِلَتْ منها القلوب :
 وَذَرَفَتْ منها العيون ، وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلي فَأَخَذْنَا في حديث
 الدنيا ، ونسيْتُ ما كنا عندك عليه .

فقال صلى الله عليه وسلم : يا حنظلة لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة
 لصافحتكم الملائكة في الطرق وعلى فراشكم ، ولكن يا حنظلة ساعة
 وساعة (١) .

وكان صلى الله عليه وسلم من أفكه الناس مع صبي ، ومن أفكههم إذا خلا
 مع أهله (٢) .

لكن مزاحه كان من الطراز الرفيع اللائق به ، فإنه كان يمزح ولكنه
 لا يقول إلا الحق ، ولهذا نجد الفكاهة المروية عنه كلها من الكناية
 أو التورية .

ولهذا كان سفيان على حق في رده على من قال له إن المزاح هُجْنَةٌ

(١) الاحياء ١٤٣/٤

(٢) لسان العرب مادة تكة

بقوله : لا ، بل سنة لقوله عليه الصلاة والسلام إلى لأمزح ، ولا أقول إلا الحق (١) .

(١) من فكاهاته

١ - جاءت إليه امرأة فقالت : يا رسول الله احملني على بغير ، فقال : بل نحملك على ابن البعير . فقالت : ما أصنع به ؟ إنه لا يحملني فقال : ما من بغير إلا وهو ابن بغير (٢) .

٢ - قال لامرأة من الأنصار : ألحق زوجك في عينه بياض ، فأسرعت المرأة نحو زوجها خائفة ، فقال لها : ماذا دهاك ؟ فقالت : قال لي رسول الله إن في عينك بياضاً ، فقال : إن في عيني بياضاً لا لسوء .

٣ - أتته عجوز أنصارية فقالت : يا رسول الله ، ادع لي بالمغفرة . فقال لها : أما علمت أن الجنة لا يدخلها العُجُز . فصرخت ، فتبسم النبي وقال لها : أما قرأت قوله تعالى : « إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ، فَجَعَلْنَاهنَّ أَبْكَاراً عُرباً أُنثَراباً » (٣) .

٤ - قال أنس بن مالك : إن النبي قال لي : يا ذا الأذنين .

أراد أن يمازحه ، فقال له يا صاحب الأذنين السميعتين الواعيتين لما سمعتنا ، وفي هذا مدح لذكائه وفطنته (٤) .

٥ - كان لأنس أخ اسمه عُمَيْر ، وكان له نَغْرٌ (٥) يلعب به ، فمات ،

(١) نهاية الارب ٢/٤

(٢) الاحياء ١١٢/٣ .

(٣) نهاية الارب ٣/٤

(٤) المواهب اللدنية ١٤١

(٥) الاحياء ١١٢/٣ النفر : طائر صغير كالعصفور .

فدخل رسول الله يوماً وهو حزين ، فقال : ما شأنه ؟ قيل له : مات نَغرُه ، فقال : يا أبا عُمَيْر ، ما فعل النُّغَيْر ؟

٦ - قال أنس إنهم كانوا يوماً عند رسول الله في بيت عائشة فأرسلت صحيفة من بيت أم سلمة ، فوضعت بين يدي النبي ، فقال : ضعوا أيديكم ، فوضع يده ووضعنا أيدينا ، فأكلنا وعائشة تصنع طعاماً عَجَلَّتْهُ ، وقد رأت صحيفة أم سلمة ، فلما فرغت من إعداد طعامها جاءت به فوضعت ، ورفعت صحيفة أم سلمة فكسرتها . فقال رسول الله : كلوا باسم الله من صحيفة عائشة ، غارت أمكم ، ثم رد صحيفة عائشة إلى أم سلمة ، وقال ، طعام مكان طعام ، وإناء مكان إناء (١) .

٧ - كان رسول الله يباسط أصحابه ، وكان رجل اسمه زُهَيْر يهادى النبي بما يستطرف من البادية ، والنبي يهاديه بما يستطرف من الحاضرة .

وقد جاء النبي إلى السوق يوماً فوجد زهيراً قائماً . فجاءه من قبل ظهره ، وضمه بيده إلى صدره ، فأجس زهير أنه الرسول . فجعل يمسح ظهره في صدر الرسول رجاء بركته ، وجعل الرسول يقول : من يشتري العبد ؟ قال زهير : إذا تجلني كاسدا ، فقال الرسول : لكناك عند الله لست بكاسد (٢) .

(٢) تقبله للفاكهة

كان الفكهون من أصحابه يضحكونه حينما يحسن الإضحك والضحك وكان يتقبل فكاكاتهم ويأنس إليهم .

(١) شرح الزرقاني ٢٧٠/٤
(٢) المواهب اللدنية ١٤٤

قال صُهَيْب : قدمت على رسول الله وهو بقباء ومعه أبو بكر وعمر ، وبين أيديهم رطب ، وقد رَمِدَتْ في الطريق فَأَصَابَتْنِي مِجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَوَقَعْتُ في الرطب ، فقال عمر : يا رسول الله ، ألا ترى صهيبيأ يأكل الرطب وهو أَرَمَد ؟ فقال رسول الله : يا صهيبي ، تأكل الرطب وأنت أَرَمَد ؟ فقلت : يا رسول الله : إنما آكل بشق عيني الصحيحة ، فتبسم رسول الله (١) .

وقد اشتهر منهم نُعَيْمان أحد أصحابه البدرين .

وهذه ألوان من فكاهاتهم التي أنس بها رسول الله :

١ - أَهْدَى نُعَيْمان رسول الله جرة عسل اشتراها من أعرابي ، وجاء بالأعرابي إلى بيت النبي ، فقال له : خذ الثمن من ها هنا .

فلما قسمها النبي نادى الأعرابي : ألا أُعْطِيَ ثمن عسلي ؟ فقال النبي : إحدى هنأت نُعَيْمان .

ثم سأله : لم فعلت هذا ؟ فقال : أردت برك يا رسول الله . ولم يكن معنى شيء : .

فتبسم النبي ، وأعطى الأعرابي الثمن (٢) .

٢ - جاء أعرابي إلى رسول الله فدخل المسجد ، وأناخ راحلته بغنائه . فقال بعض الصحابة لنعيمان : لو نَحَرْتَهَا فَأَكَلْنَاهَا ، فَإِنَّا قَدْ قَرِمْنَا إلى اللحم ، وَيَغْرُم رسول الله ثمنها . فزجرها نعيمان ، فخرج

(١) كنز العمال ١٨٣/٢ وفي العقد الفريد ٣٨١/٦ أن النبي قال : يدخل نعيمان الجنة مسلحاً لأنه كان يضحكني ، وذلك أن النبي دخل عليه وهو أَرَمَد ، فوجده يأكل تمراً ، فقال له : أأكل تمراً وأنت أَرَمَد ؟ فقال : إنما آكل من الجانب الآخر ، فضحك النبي حتى بدت نواجذه .

(٢) نهاية الارب ٤/٤ والاستيعاب ١٥٣٩

الأعرابي ، فرأى راحلته ، فصاح ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم : .
فقال : من فعل هذا ؟ قالوا نعيمان ، فاتبعه يسأل عنه . فوحده في
دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خنداق ، وجعل
عليه الجريد ، فأشار إليه رجل ، وقال بصوت عال : ما رأيته
يا رسول الله ، وهو يُشير بإصبعه حيث نعيمان ، فأخرجه رسول الله وقد
تعفر وجهه بالتراب ، فقال له ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين
دلوك علي يا رسول الله هم الذين أمروني ، فجعل رسول الله يمسح التراب
عن وجهه ويضحك .

ثم غَرَم رسول الله نمن الناقة (١) .

٣ - ذكروا أن أبا بكر خرج تاجرا إلى بُضْرَى ومعه نعيمان بن عمرو
لأنصارى وسُوَيْبِط. بن حَزْمَلَة - وكلاهما بدرى - وكان سُوَيْبِط. على
زاد أبي بكر ، فجاءه نعيمان وقال له : أطعني : فقال : لا حتى يأتي
أبو بكر . وكان نعيمان مَزَاحاً فكيفها صاحب دُعابة ، فقال لسُوَيْبِط. :
لَأَغِيظَنَّكَ .

فمروا بقوم ، فقال لهم نعيمان : تشترون مني عبدا لي ؟ قالوا :
نعم ، فقال : إنه عبد له كلام ، وسيقول لكم است بعبد . وإنما أنا رجل
حر ، فإذا كنتم ستصدقونه فلا تشتروه ، ولا تفسدوا عليّ عبدي . قالوا :
بل نشتره ، ولا ننظر في قوله . فاشتروه منه بعشر فلائص (٢) ، فأقبل بها
يَسُوقُهَا ، وأقبل بالقوم حتى عَقَلَهَا ، ثم قال : دونكم ، هو هذا فخذوه ،

(١) السيرة الحلبية ٣/٢٧٥ والاستيعاب ١٥٢٨
(٢) فلائص : جمع فلوص وهي الناقة الشابة

فَجَاءَ الْقَوْمَ وَقَالُوا لَهُ : قَدْ اشْتَرَيْنَاكَ . فَقَالَ : هُوَ كَاذِبٌ ، أَنَا رَجُلٌ حُرٌّ ، فَقَالُوا لَهُ : قَدْ أَخْبَرْنَا بِخَبْرِكَ ، فَطَرَحُوا الْجَبَلَ فِي عُنْقِهِ ، وَذَهَبُوا بِهِ .

فَلَمَّا جَاءَ أَبُو بَكْرٍ أَخْبَرَهُ نَعْيَانٌ ، فَذَهَبَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْقَوْمِ ، وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّ نَعْيَانَ كَانَ يَمْزِحُ ، وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ قَلَانِصَهُمْ ، وَاسْتَرَدُّوا سَوْبِطاً مِنْهُمْ .

ثُمَّ قَدَّمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ ، فَضَحِكَ حَوْلًا كَامِلًا ، لِأَنَّ سَفَرَ أَبِي بَكْرٍ كَانَ قَبْلَ وَفَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَامٍ (١) .

٤ - كَانَتْ سَوِيدَاءُ تُضْحِكُ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ فَيَضْحَكُ رَسُولُ اللَّهِ ، ثُمَّ إِذْ فَتَقَدَّهَا ، فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ مَا فَعَلْتَ السَّوِيدَاءُ ؟ قَالَتْ : إِنَّهَا مَرِيضَةٌ .

فَذَهَبَ إِلَيْهَا يَعُودُهَا ، فَوَجَدَهَا فِي الْمَوْتِ ، فَقَالَ لِأَهْلِهَا : إِذَا تَوَفَّيْتَ فَانْخَبِرُونِي .

فَلَمَّا تَوَفَّيْتَ أَخْبَرُوهُ ، فَشَهِدَهَا ، وَصَلَّى عَلَيْهَا ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّهَا كَانَتْ حَرِيصَةً عَلَى أَنْ تَضْحَكَنِي فَأَضْحَكَهَا فَرِحًا (٢) .

٥ - جَاءَهُ أَعْرَابِي يَوْمًا وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَغَيِّرُ اللَّوْنِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْأَلَهُ ، فَقَالَ لَهُ الصَّحَابَةُ : لَا تَفْعَلْ ، فَإِنَّا نَنْكَرُ لَوْنَهُ ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : دَعُونِي ، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَا أَدْعُهُ حَتَّى يَبْتَاسَمَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَلَّغْنَا أَنَّ الدَّجَالَ يَأْتِي النَّاسَ بِالْثَّرِيدِ وَقَدْ هَلَكُوا جَوْعًا ، أَفْتَرَى لِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَنْ أَكُفَّ عَنْ ثَرِيدِهِ تَعَفُّفًا وَتَنْزَهًُا حَتَّى أَهْلِكَ هُزَالًا ، أَمْ أَضْرِبُ

(١) السيرة الحلبية ٣/٣٧٤ والاستيعاب ١٥٢٦ وكنز العمال ٢/١٨٣
(٢) العقد الفريد ٣/٣٠٧

في ثريده حتى إذا تَضَلَّعت شَبَعًا آمَنْتُ بالله وكفرت بالرجال ؟ فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه ، وقال : لا ، بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين (١) .

(٣) مهابة

لكن سماحة أخلاق المصطفى ، وتبسطه مع المسلمين ، وتواضعه وزهده وصبره وحلمه وعفوه ، لم تزد المسلمين إلا تعلقاً به وتعظيماً له ، فهو الحبيب إلى قلوبهم ، الجليل في عيونهم ، الأثير على أئمة لهم وأبنائهم ونفوسهم ، وهو المهيب أعظم ما تكون الهيبة .

وصفه علي بن أبي طالب بقوله : من رآه بديهةً هابه ، ومن خالطه معرفةً أجبه ، يقول واصفه : لم أر قبله وما بعده مثله (٢) .

وقال عمرو بن العاص - وهو في آخر لحظات حياته يودع الحياة ويحدث ابنه - : ما كان أحد أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطق ، لأنني لم أكن أملأ عيني منه .

وقد استرعت هذه المهابة نظر عروة بن مسعود قبل أن يسلم ، فإنه كان فيمن سَفَرُوا بين النبي وقريش وقت الحُدَيْبِيَّة ، فعاد إلى قريش فقال لهم : والله ما أمرَ محمد أصحابه إلا ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوءه ، وإذا تكلموا خفصوا أصواتهم عنده ، وما يمدون إليه

(١) الاحياء ٢/٢٢٥

(٢) الاحياء ٢/٣٣٧

النظر تعظيماً له ، ولقد وفدت على قبصر وكسرى والنجاشي ، فما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه مثل ما يعظم محمداً أصحابه (١) .

لهذا كان يَفَرِّقُ لرؤيته من لم يره من قبل ، ولم يأنس إليه . كما روى عن قَيْلَةَ أنها لما رآته أُرْعِدَتْ من الفَرَق ، فقال لها : يا مسكينة عليك السكينة .

وذكر ابن مسعود أن رجلاً قام بين يديه فَأَرْعَدَ ، فقال له : هَوْنٌ عليك ، فإنني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القنيد (٢) .

إباحة الفكاهة

قال عليه الصلاة والسلام :

- ١ - لا خير فيمن لا يَطْرَبُ ولا يُطْرَبُ (٣) .
- ٢ - رَوْحُوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كَلَّتْ عَمِيَتْ (٤) .
- ٣ - إني لأمزح ولا أقول إلا الحق (٥) .
- ٤ - كل معروف صدقة ، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طَلَقٍ (٦) .
- ٥ - إن الله يحب السهل الطلق الوجه (٧) .
- ٦ - إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم (٨) .
- ٧ - إن الله يحب الرفق في الأمر كله (٩) .

(١) فتح المبدى ٢٨٢/٢
 (٢) نور البقين ٢٨٥ والشفا ٧١/١ ، ١٠٣ . القنيد : اللحم المقدس
 (٣) إلى (٥) العقد الفريد ٣٠٦/٢ ونهاية الأرب ١/٤
 (٦) المنتخب من السنة ٢٩٧/٧ من مسند أحمد وسنن الترمذى
 (٧) و (٨) الاحياء ١٠٢/٣
 (٩) فتح المبدى ٢٠٥/٣

خاتمة المطاف

أما بعد

فإن لكل دراسة نتائج تنتهي إليها . وحقائق تُشيد عليها . فما نتائج هذه الدراسة ؟ وما حقائقها ؟

١ - لقد اتضح أن المذاهب الأخلاقية لا تخلو من قصور وعيوب . لأنها من وضع أفراد مهما يبلغوا من ذكاء العقل ، وصواب الرأي . وحسن النية ، فإنهم متأثرون ببيئاتهم وبزاجهم وبتفكيرهم . ولهذا تباينت آراؤهم ، وتنافرت أهدافهم ، ولم يصلح مذهب من مذاهبهم لأن يكون دستوراً ثابتاً يَطْبُ لأدواء البشر ، ويكفل الخير لهم ، على اختلاف البيئات والأعصار .

٢ - وتبين أن الأخلاق الإسلامية هي المثل الأعلى الذي يجب على الناس أن يستشرفوه ، لأن ينبوعها الدين . ومحورها التقوى ، وغايتها سعادة الأفراد والجماعات ، ولها خصائصها التي تكفل لها قوة انبعاث . وسرعة الاستجابة ، وينتظها الرقابة ، ونبل الغاية ، وعمق الثبات . وموازرة الضمير الحي ، والعقل السليم والصلاحية الكاملة للنهوض بالأمة

٣ - وتجلي من الودقات القصار أمام أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه برسلته الخالدة ، وبأدبه الإلهي ، وبأخلاقه القرآنية الإنسان

الكامل ، والمثل الأعلى ، ومالك الفضائل المتآزرة في أعلى صورها ،
في سلمه وحربه ، وفي بيته وبين صحبه ، وفي رضاه وغضبه ، وفي سره
وجهره ، وفي وحدته واجتماعه ، ومع أعدائه وأتباعه ، ومع الأقوياء والضعفاء ،
ومع الأحرار والأرقاء ، ومع الرجال والنساء ، وفي كل شأن من شؤنه
جلّ أو صغُر .

ولهذا أثنى الله سبحانه وتعالى عليه بما لم يثن به على نبي من
أنبيائه ، فقال : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » ، وأقسم بحياته وهو سبحانه
لم يقسم بحياة نبي آخر . فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

٤ - ولقد ربّى النبي على هذه الأخلاق العليا صحابته . فأشربتها
قلوبهم ، فاستحبّوا أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس . يأمرون بالمعروف ،
وينهون عن المنكر ، وينصرون دين الله ، ثم ربّى الصحابة جيلاً بعدهم :
وسقوه من هذا المنهل الفريد ، فنبغ في الأمة من لا يحصيهم العدّ من
الأبطال والقادة والعلماء والمصلحين وحاملى مشاعل الهداية في كل مكان
وطئت أقدام المسلمين ، وبهذا دانت لهم الأرض ، ورحب بهم الخلق ، وسعد
بحكمهم الناس .

٥ - وكثيراً ما حاول الدارسون استكناه السر الذي نفخ في المسلمين
الأولين تلك القوى : نفسية والمادية التي مكنتهم في نحو قرن واحد
أن ينتقلوا من قِلّة متبديّة مستضعفة إلى كثرة متحضرة مرهوبة .
فقوضوا ملك الفرس والروم ، وانتشروا في بقاع الأرض هداة ومعلمين
ودعاة إلى الحق والخير والحرية ، وسادة يحكمون الناس . ويقضون
في كل شئونهم بالقسطاس .

لكن القوة التي حاروا في الكشف عنها ، واختلفوا في التعليل لها ، ليست سرا مُحَجَّباً ولا خِزياً ولا محتاجاً إلى فروض . لأنها وليدة العقيدة وما تحمله العتميدة من تقوى وأخلاق ، فقد كان المسلمون شجعناً أسخياءً بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، وفي نصره الحق . وفي حماية العتميدة ، وفي فداء الوطن ، وكانوا كرماء بأموالهم بوجودها أغنياؤهم على فقرائهم ، وكانوا عدولا في أحكامهم : أَعِفاءً في أفعالهم وأقوالهم ، حُناظاً على أماناتهم ، وكانوا صُبراً على المكاره . عافين عند المقدرة ، زهاداً في متاع الدنيا ومظاهر الجاه ، سواسية كأَسنان المشط . رحماء بالضعفاء . كانوا أتقياء فيما يعملون وفيما يذرون ، اتحلوا من رسول الله أُسوتهم في كل فضيلة ، إذ كان قمة البشرية الكاملة ، فكانوا هم ذروة الأمم المعاصرة الماثلة ، وبهذا كله سادوا العالم سيادة عميقة ولغة وعلوم وثقة وحضارة .

فلما غُشِيَتْ أَبصارهم ، وَضَعُفَتْ رُؤُوسُهُمْ : خَفَتْ صوت التقوى . وَوَهَنْتِ الأخلاق ، وعمت الفرقة ، فصار الجمع الموحد أَوْزاعاً . وانقسمت الأمة الواحدة أشياعاً ، فارتد المسلمون السادة أتباعاً .

٦ - واليوم ، أَفَاقَتِ الأمة من نَحْدِهَا : وجعلتْ تَشُقُّ طريقها إلى استعادة مجدها ، واستشرف مصيرها .

فلتعلم علم اليقين أنه لا سبيلَ لها إلا دينها ، ولا علاجُ لأمراضها إلا تقواها ، وليس لها من سلاح أقوى من مكارم الأخلاق . وإن لها في رسول الله الأسوة المثلَى ، والقدوة العظمى ، والضوء الهادي إلى سواء السبيل .

المراجع

مرتبة ترتيباً هجائياً

- ١ - إحياء علوم الدين . الغزالي . المطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م .
- ٢ - الأخلاق . صمويل سميلز . ترجمة الأستاذ محمد الصادق حسين . مطبعة والده عباس الأول ١٣٢٩ هـ ١٩١١ م .
- ٣ - الأخلاق . الأستاذ عبد الرحمن زغلول . نشره الأستاذ محمد عبد الجواد . مطبعة المعارف بمصر ١٩٣٦ م .
- ٤ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب . ابن عبد البر . ١ - تحقيق الأستاذ علي البجاوي . مطبعة نهضة مصر . ٢ - مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣١٨ هـ .
- ٥ - أسد الغابة في معرفة الصحابة . ابن الأثير . المطبعة الوهبية بالقاهرة . ١٢٨٠ هـ ومطبعة جمعية المعارف .
- ٦ - الإصابة في تمييز الصحابة . ابن حجر العسقلاني . مطبعة السعادة بالقاهرة .
- ٧ - إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والمتاع . المقرئزي . تحقيق الأستاذ محمود شاكر . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م .

- ٨ - إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروف بالسيرة الحلبية
برهان الدين الحلبي . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩ هـ .
- ٩ - البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م .
- ١٠ - تاريخ الأمم والملوك . الطبري . المطبعة الحسينية المصرية .
- ١١ - تاريخ التربية . الأستاذ مصطفى أمين . مطبعة المعارف ١٣٤٣ هـ
١٩٢٥ م .
- ١٢ - تاريخ شرق الأردن وقبائلها . الكواونيل فردريك بيك .
- ١٣ - تحت راية الإسلام . الدكتور أحمد محمد الحوفي . نشره
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م .
- ١٤ - تفسير القرآن الكريم (جزء عم) الشيخ محمد عبده . مطبعة
بولاق ١٣٢٢ هـ .
- ١٥ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . ابن مسكويه . المطبعة الحسينية
المصرية ١٣٢٩ هـ .
- ١٦ - تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول . ابن الدبيع
الشيواني الزبيدي . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣١ هـ .
- ١٧ - جامع البيان في تفسير القرآن . الطبري . مطبعة بولاق ١٣١٣ هـ .
- ١٨ - الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير . السيوطي . دار الطباعة
العامة بمصر ١٢٨٦ هـ .
- ١٩ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي . الدكتور أحمد محمد الحوفي .
الطبعة الرابعة . دار نهضة مصر ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م .

- ٢٠- الخصائص . ابن جنى . مطبعة الهلال بمصر ١٣٣١ هـ ١٩١٣ م .
- ٢١- زاد المعاد فى هدى خير العباد . ابن القيم الجوزية ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م .
- ٢٢- سماحة الإسلام . الدكتور أحمد محمد الحوفى . نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م .
- ٢٣- سير أعلام النبلاء . شمس الدين الذهبى . دار المعارف بمصر ١٩٥٧ م
- ٢٤- السيرة النبوية . ابن هشام . تحقيق الأستاذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى . مطبعة مصطفى البابى الحلبي ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م .
- ٢٥- شرح الزرقانى على المواهب اللدنية . القسطلانى . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٥ هـ .
- ٢٦- الشفا بتعريف حقوق المصطفى . القاضى عياض . المطبعة العثمانية ١٣١٢ هـ .
- ٢٧- صحيح مسلم . المطبعة المصرية ١٣٤٩ هـ . ١٩٣٠ م .
- ٢٨- الطبقات الكبرى . ابن سعد . نشره إدورد سخاو . مطبعة بريل بليدن ١٣٢١ هـ .
- ٢٩- العقد الفريد . ابن عبد ربه . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م .
- ٣٠- علم الأخلاق . أرسطو . ترجمة الأستاذ أحمد لطفى السيد . مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٣٤٣ هـ ١٩٢٤ م .
- ٣١- عيون الأخبار . ابن قتيبة . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .
- ٣٢- فتح البارى بشرح صحيح البخارى . العسقلانى . المطبعة الأميرية ١٣٠١ هـ .

- ٣٣-فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى لصحيح البخارى . الشيخ
عبد الله الشرقاوى . مطبعة مصطفى البابى الحلبي ١٣٣٩ هـ .
- ٣٤-الفكاهة فى الأدب . الدكتور أحمد محمد الحوفى . دار نهضة مصر
بالقاهرة . ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .
- ٣٥-القاموس المحيط . الفيروزابادى .
- ٣٦-الكامل . المبرد . مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٥ هـ .
- ٣٧-الكامل فى التاريخ . ابن الأثير . مطبعة الحلبي ١٣٠٣ هـ .
- ٣٨-كتاب الأخلاق . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م .
- ٣٩-كتاب المغازى . الواقدى . تحقيق الدكتور مارسدن جونز .
مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦ م
- ٤٠-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . الزمخشري . المطبعة النبوية
المصرية ١٣٤٣ هـ .
- ٤١-كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال . الشيخ علاء الدين السبكي
ابن حسام الدين الهندى . مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر
آباد الدكن ١٣١٢ هـ
- ٤٢-اللولؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (البخارى ومسلم) وضعه
الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي . مطبعة عيسى البابى الحلبي ١٣٦٨ هـ
١٩٤٩ م .
- ٤٣-لسان العرب . ابن منظور .

- ٤٤- المجازات النبوية . الشريف الرضى . مطبعة مصطفى البابى الحلبي
١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .
- ٤٥- محمد المثل الكامل . الأستاذ محمد أحمد جاد المولى . الطبعة الثالثة
١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .
- ٤٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل . المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ
ومطبعة دار المعارف ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م .
- ٤٧- المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من
الأخبار . زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى .
على هامش إحياء علوم الدين للغزالي .
- ٤٨- المواهب اللدنية للبيجورى على الشمائل المحمدية للترمذى .
المطبعة البهية بالقاهرة ١٣٠١ هـ .
- ٤٩- ميزان العمل . الغزالي . شركة الطباعة الفنية المتحدة بالقاهرة .
- ٥٠- نهاية الأرب . النويرى . مطبعة دار الكتب .
- ٥١- نور اليتيمين فى سيرة سيد المرسلين . الأستاذ محمد الخضرى .
الطبعة الرابعة ١٣٢٧ هـ .

فهرس الكتاب

٣	تقديم اللجنة :
٥	نحوى :
	تمهيد :
٩	المذاهب الأخلاقية ..
	الفصل الاول :
٣٥	الأخلاق الاسلامية ..
	الفصل الثانى :
٥٩	شفغ النبى بكارم الأخلاق ..
	الفصل الثالث :
٦٣	الشجاعة ..
	الفصل الرابع :
٨٥	الكرم ..
	الفصل الخامس :
٩٧	العدل ..
	الفصل السادس :
١١١	العفة ..
	الفصل السابع :
١٢٦	الصدق ..
	الفصل الثامن :
١٣٩	الإمافة ..

١٤٧	الفصل التاسع :	الصبر
١٦٥	الفصل العاشر :	الحلم
١٨٣	الفصل الحادى عشر :	العفو
١٩٣	الفصل الثانى عشر :	الرحمة
٢١٥	الفصل الثالث عشر :	ايتار السلام
٢٥٥	الفصل الرابع عشر :	الزهد
٢٧٧	الفصل الخامس عشر :	الحياء
٢٨٣	الفصل السادس عشر :	التواضع
٢٩٥	الفصل السابع عشر :	الوفاء
٣٠٧	الفصل الثامن عشر :	الشورى
٣١٣	الفصل التاسع عشر :	طيب العشرة
٣٢٧	الفصل العشرون :	حب العمل
٣٣٥	الفصل الواحد والعشرون :	البشر والفكاهة
٣٤٥	خاتمة المطاف :	
٣٤٨	المراجع :	

مطابع الأهرام التجارية - قليب - مصر

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧١ / ٥٦١.

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

